



لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِ

عبدالرحمن الناصِر

بِقِطَاعِ
عَلَى أَرْهَمِ

المدينة
المصرية
العامه
للكتاب

أعلام العرب

عبد الرحمن الناصر

بقلم
على أدوم



الهيئة العربية العامة للكتاب

١٩٧٢

مقدمة

عبد الرحمن الناصر هو ثامن أمراء الأندلس من بني أمية ، وأول من تسمى بها بأمر المؤمنين وتلقب بالقباب الخلافة ، وقد تولى إمارة الأندلس والدولة تتخطفها الأخطار ، ويكاد بناؤها يؤذن بالتصدع والانهيار ، فاستطاع بجهاده المستمر ، ومثابرته الدائبة أن يطفىء نيران الثورات ، ويستنزل العصاة من معانقهم ، ويقلم أظفار المتمردين على الطاعة ، والخارجين على القانون ، وقد أدرك ببصيرته النفاذة ، وتفكيره العميق . طبيعة الموقف الذى واجهه ، وعرف الوسائل المجدية فى علاجه ، ورسم الخطط الكفيلة بالنجاح فى تناوله ، وكان عبد الرحمن الناصر واسع الأفق ، لامع الذكاء ، موفور النشاط ، ناهض العزم ، لايفت فى عضده تلاحق الفتن وتكاثر الاحداث ، ولايهن للشدائد ، ولاتستلينه الظروف القاسية ، بل تشد من عزمه ، وتستنهض همته .

ولم يكن حكم الأندلس الإسلامية بالامر الهين ، فقد كان هناك عوامل انسانية وعوامل طبيعية تجعل هذا الحكم شاقا قد يقصر فى القيام بأعبائه ، واحتمال تبعاته ، رجال من الطراز المألوف ، والنمط العادى ،

ويستلزم رجالا موهوبين في العقل وبعد الهمة والكفاية، فقد كانت هناك مجموعة بشرية من أصول مختلفة ، وسلالات متنوعة ، يصعب امتزاجها وتكوين وحدة متماسكة منها ، كان هناك عناصر ترجع الى اصول آرية مثل السلتيين والايبيريين واللاتينيين واليونانيين وبقايا الوندال والقوط ، وكان هناك من السلالة السامية القرطاجنيون والفينيقيون واليهود والعرب والبربر آخر الغزاة والفاحين ، وكانت طبيعة البلاد بجبالها وتلالها وأوديتها المنحدرة الضيقة ، وأنهارها العميقة ، وجوها الجاف الشديد الحرارة ، وتعرضها الدائم للأوبئة والمجاعات ، والقحط وقلة الامطار ، مما يغري بالخروج على الطاعة ، ويسر الاحتماء بالمعاقل والحصون .

وكان أمراء الأندلس من الأمويين حكاما من ذوى القدرة والكفاية ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتفاوتون في سعة الذرع ، وقوة التصميم والعزم ، ولانزاع في أن عبد الرحمن الناصر كان من أشدهم قوة ارادة وصرامة عزم ، ولم يكن موهوبا فحسب ، وإنما كان عبقريا فذا من طراز عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، ورافع منارها ، وموطد أركانها ، وقد وجدت فيه مشكلة الحكم بالأندلس رجلا يعرف كيف يوثق العقدة ، ويراب الصدع ، ويدلل العقبات . ويحسم المشكلات .

وقد تولى عبد الرحمن الحكم في ميعة الشباب ، وامتد به طلق العمر ، فانفسح أمامه مجال العمل ، وتوفرت له أسباب اتمام الخطط المرسومة ، وانجاز

المشروعات التي اعتزم القيام بها ، وبرغم ما اتصف به من دماثة الأخلاق ورهافة الحس ورقة الحاشية فانه قبض على زمام الموقف بيد حديدية ، فوقرت مهابته في النفوس ، وتحامى حوزته الأعداء ، وهادنته الأمم النصرانية والممالك الاسبانية من وراء الدروب والثغور وأذعنت لأرادته ، وخطبت وده ، وعملت على مسالمته ، والتماس مشورته ، والاستعانة بوساطته ، ووصل الى سدة الملك من أهل شبه جزيرة أسبانيا المتأخمين لبلاده ، وقبلوا يده ، وسعوا في مرضاته ، واحتقبوا جوائزه ، وامتطوا مراكبه ، وبعد عهد الناصر الذروة العظيمة لتاريخ المسلمين بالأندلس ، والعصر الذي نضجت فيه الحضارة الاسلامية في الغرب والشرق على السواء .

ومؤرخو الأندلس والمغرب يتبارون في الاشادة بحكم الناصر وعهده والتثوية بمواهبه ومزاياه ، فالمؤرخ الأندلسي الكبير ابن حيان يقول « ان ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادنه الروم ، وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم الا وفدت عليه راغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى فانه هادنه ، ورغب في موادعته .

وابن الأبار يقول عنه في الحلة السيرة « أعظم بنى أمية في المغرب سلطانا ، وأفخمهم في القديم والحديث شأنًا ، وأطولهم في الخلافة - بل أطول ملوك الإسلام قبله - مدة وزمنًا . . . وظهر لأول

ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ،
وقوة سلطانه ، واقبال دولته ، وخمود نار الفتنة
— على اضطرارها بكل جهة — وانقياد العصاة لطاعته ،
ماتعجز عن تصوره الأوهام ، وتكل في تحبيره
الأقلام .

ويقول عنه ابن عذارى في المغرب «كان الناصر
رحمه الله ملكا أدال اللواء ، وحسم الأدواء ، وقهر
الأعدى ، وعدل في الحاضر والبادى ، قد أسس
الأسوس ، وغرس الغروس واتخذ المصانع والقصور
وترك أعلاما باقية الى النفخ فى الصور ، ولما ولى
الناصر لدين الله ، اعتز ركن الدين ، واحتفى ذمار
المسلمين ، وقام الجهاد على ساق ، وخمدت نار
الفتنة والشقاق ، ودخل الناس فى طاعته أفواجا ،
واستنفروا الى دعوته أفرادا وأزواجا ، فناهيك من
فضل أعطاهم ، وعدل كنهم به وغطاهم ، وتكرمة
أنالهم إياها ومبرة أبدى لهم محياها ، .

وكان عبد الرحمن الناصر يصدق فيما يقول ،
وفى بما يعد ، ويعفو عند المقدرة ، وهو مع ذلك
لا يضع الندى فى موضع السيف ، ولا يمنح ثقته من
لا يستحقها ، ولا يشمل بعطفه من هو غير جدير بأن
يتفيا ظل رعايته ، ولم يطفه الانتصار المتوالى ، ولم
يفسده اقبال الحظ ، وقد كسب الدنيا دون أن يخسر
نفسه ، فلاتقرا فى أعماله فصلا من فصول مكيافلى
فى كتاب الأمير ، فغير غريب أن يستبحر العمران فى
عصره ، ويمتد رواق الحضارة ويشعر الناس بالأمن
والطمأنينة والعدالة والرخاء ، وهو من أعظم رجال

عصره قاطبة ، واحد أبطال تاريخ الاسلام غير مدافع،
وهو جدير بأن يكون له مكان بين أبطال كارلايل ،
ويضاف الى أسباب نجاحه مساندة الظروف ومساعدة
الأقارب ، وما أصدق قول المتنبي

وما ينصر الفضل المبين على العدى
إذا لم يكن فضل السعيد الموفق

نشأة عبد الرحمن الناصر وتقلده الامارة

ولد عبد الرحمن الناصر بقرطبة يوم الخميس ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هجرية (٨٩١ ميلادية) ووالده الامير محمد ابن امير الاندلس عبد الله بن محمد ، وقد قتل أبوه بعد ميلاده بثلاثة أسابيع في ظروف يحيط بها شيء من الغموض ، وكان والده بكر اولاد أبيه ، وخليفته اذا غاب عن حضرته ، والمرشح لمكانه ووراثته العرش بعد وفاته ، ويقول ابن الأبار انه كان من أهل العناية بالآثار ، والرواية للأخبار ، والتفنن في الآداب ، وقد ندبه أبوه في سنة ٢٧٧ هـ للفصل في الخلاف الخطير الذي نجم في اشبيلية واحوازها بين المولدين والمستعربين من ناحية والاسر المنحدرة من اصول عربية ، وبخاصة أسر بني خلدون وبني حجاج ، ولم يستطع الامير محمد البت في الموضوع وأدانة أحد الطرفين لعدم وجود الأدلة الكافية ، وقد نجا من أزمة اشتداد هذا الخلاف باعجوبة ، وترشيح والده إياه لولاية العهد ، وإثاره له بما عنده ، عظما على أخيه المطرف ، وأبعدا ما بين الأخوين كل البعد ، وقد حدث ذلك غير مرة في تاريخ الدولة الاموية بالاندلس ، وقابل كل منهما الآخر بالهجران والصد ، ويروى ابن الأبار أن الامير محمد وجد يوما فارسا من فرسان مطرف فاغتاله وقتله ، ثم فرق من أبيه الأمير عبد الله ،

وحذر سطوته ، ولم يأمن عقابه ، فسار الى السجن وفتح أبوابه وحل من شده أبوه وأوثقه ، وأطلق سراحهم ، وخرج بجماعة من أهل الدعارة والفساد ، ولحق بقلعة ببشتر قاعدة الثائر المغوار عمر بن حفصون ، لائذا بحماه ، ويقول ابن الأبار ان الأمير عبد الله أباه خاطبه بالأمان ، ولامه في رفق ولين على هذا الخروج على الطاعة والولاء ، فقبل ذلك الأمير محمد ، وعاد الى أهله وذويه ، ولكن أخاه المطرف لم يكف عن افساد ما بينه وبين أبيه ، وظل يطوى له العداوة والبغضاء ، ويعمل على ازالته من طريقه ، وزعم انه لا يزال على صلة بالثائر ابن حفصون ، وانه يداخله ويداهنه للقيام على أبيه . وترك هذا التحريض اثره في نفس الأمير عبد الله ، وقوى هذا التأثير حتى لم ير والده ندحة عن اعتقاله في إحدى حجرات قصره ، ريثما يختبر أمره ، ويبحث قضيته ، ولم يصله في خلال ذلك ما يؤكد الشبهة ، ويثبت التهمة ، واتفق في أثناء ذلك أن خرج الأمير عبد الله في إحدى غزواته ، فاغتنم المطرف هذه الفرصة ، واقتحم على أخيه محبسه وأجهز عليه ، ولما علم الأمير عبد الله بذلك هم بقتله ، وكان ذلك سنة ٢٧٧ هـ ولكنه لم يعد من كسر سورته ، وهذا وقدة غضبه ، وحدث بعد ذلك في سنة ٢٨٢ هـ أن بعث الأمير عبد الله ابنه المطرف بالصائفة ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، ففتك المطرف بالوزير بمقربة من أشبيلية لعداوة كانت بينهما ، وأكبر أبوه الأمر ، وكان اعتداؤه على أخيه الأمير محمد لا يزال يحز في نفس الأمير عبد الله . وقد دفعه ذلك الى السطو بالمطرف وقتله شر قتلة ثار فيها منه بأخيه وبالوزير .

ووالدة عبد الرحمن مارية من سبى الفرنجة وهي مسيحية غسقونية وتسميها الرواية العربية مزنة .

ويبدو أن الأمير عبد الله ، أدرك في نهاية الأمر أن ابنه محمدا قد قتل مظلوما وأن أكثر ما بلغه عنه لم يكن له نصيب من الحقيقة ، ويصف لنا الفقيه أبو محمد بن حزم - وهو العالم المعروف بغزارة العلم وسعة المعرفة بالسير والأخبار مع الجرأة والصراحة في إبداء الرأي - جانبا من أخلاق الأمير عبد الله بقوله « انه كان قتالا تهون عليه الدماء ، ومع كثرة إقباله على الخيرات وترك المنكرات ، فانه احتال على أخيه (الأمير) المنذر على إثاره له ، وواطأ عليه حجامه بأن سم له الموضع الذي قصد به ، وهو نازل بمعسكره على ابن حفصون ، ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد واحد ، قتل محمدا والد الناصر لدين الله ، وقتل أخاه المطرف ، ثم قتل أخوين له معا أيضا ، قتل هشاما منهما بالسيف والقاسم بالسهم الى غير ذلك » وسواء صحت رواية مشاركته في قتل ابنه محمد أو لم تصح فان الظاهر أن مصرع الأمير محمد قد نال منه ، وترك في نفسه ندوبا ، واستشعر الكثير من تأنيب الضمير ، فدفعه ذلك كله الى أن يضع الطفل اليتيم في حياضته ، ويشمله بعطفه ورعايته ، ويضمه الى قصره ، ويشرف بنفسه على تربيته وتعليمه وثقيفه ، وماكاد هذا الطفل يبلغ أشده حتى تكشف مواهبه ، فأبدى في مستهل عمره امتيازا وتفوقا ، وتجلت براعته في النحو والشعر والتاريخ ، وأظهر استعدادا ملحوظا في فنون الحرب والفروسية بعد أن حفظ القرآن ودرس السنة ، فأرداد إقبال جده عليه ، وإثاره له ، وأخذ في ترشيحه لمختلف المهمات ، وأقعده في بعض الأيام والأعياد وشتى المناسبات مقعد نفسه لتسليم الجند عليه ، وليألفوا طاعته ، ولم يكن هناك قانون لورثة الملك واجب الطاعة مرعى الحرمة ، وإنما كان المتبع في المعتاد حينما يخلو العرش أن يعتليه من الأبناء

الأكبر سناً أو الأكثر كفاية من أفراد الأسرة المالكة ، فلما
 توفي الأمير عبد الله في ليلة الخميس من مستهل ربيع الأول
 سنة ٣٠٠ هجرية ودفن في قصره بقرطبة ولى عبد الرحمن
 في اليوم نفسه الذي توفي فيه جده ، وقد تهيأ اجلاسه
 على العرش بغير منازعة ، وقيل بأن جده رمى بخاتمه اليه
 ابانة منه لاستخلافه ، وكان أول من بايعه أعمامه أولاد الأمير
 عبد الله ، وتلاههم اخوة جده ، وتكلم واحد منهم حينما بايعه
 مثنيا عليه بكل جميل . ولم يترث أحد من أعمامه أو سائر
 أقاربه في مبايعته ولعل السبب في ذلك من ناحية ان
 عبد الرحمن كان مرضى السيرة ، محمود العشرة ، قد عرف
 كيف يكسب ود الجميع ، ويوحى الى كل من اتصل به الثقة
 بمواهبه ، والاعجاب بسلوكه ، ومن ناحية أخرى ان أحوال
 الأندلس الداخلية والخارجية حين وفاة جده كانت على غير
 مايرام ، وكان النهوض بأعباء الحكم محفوفا بالمكاره ، حافلا
 بالصعاب ، فقد تكاثرت الفتوق والثورات ، واستفحل خطر
 الخارجين على الطاعة ، والمنتهزين في مختلف أنحاء الأندلس،
 وكان من الواضح ان مصير الامارة الأندلسية معرض للزوال
 ان لم يتقدم لانقاذها رجل قوى العزم ، راجح العقل ، ميمون
 النقيبة ، وبرغم أن عبد الرحمن لم يكن قد سبق له أن قاد
 جيشا مظفرا ، أو اخمد ثورة قائمة ، أو فرج أزمة سياسية
 مستعصية إلا أن الجميع برغم ذلك بايعوه مبايعة رضى
 واغتياب ، واستبشروا بمقدمه ، واعتلاء همته ، ورجوا
 ماتحقق لهم بعد ذلك من رعايتهم والدفاع عن حرمانهم ،
 وصلاح الأحوال ، وتجرده لاستئصال الفتنة والتمهيد للطاعة
 والنظام ، وقد جلس في محراب المجلس الكامل بقصر قرطبة
 وتولى أخذ البيعة له من الخاصة والعامة بدر بن أحمد

مولاه ، وموسى بن محمد بن حدير صاحب المدينة ، وفي يوم
ولايته يقول أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد من
قصيدة :

بدا الهلال جديدا والملك غص جديد
يانعمة الله زيتدى ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

وكان بنو أمية فى الأندلس قد حرصوا على ابقاء اسم
الوزير ، ولكنهم قسموا خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف
وزيرا ، فجعلوا لحساب المال وزيرا ، ولترسيل وزيرا ،
وللنظر فى حوائج المظلومين وزيرا . وللنظر فى أحوال الثغور
وزيرا ، وكان هؤلاء الوزراء ينفذون أمر السلطان كل فيما
جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الأمير واحد منهم ارتفع
عنهم بمباشرة للأمير فى كل وقت وخصوه باسم الحاجب ،
أى أن وظيفة الحاجب تعادل فى المصطلح الحديث وظيفة
رئيس مجلس الوزراء ، وقد شرع عبد الرحمن يوم مبايعته
فى تأليف الوزارة الجديدة ، فاختر مولاة بدرا للحجابة مع
خطة الخيل الى ماكان اليه من خطة البريد ، وولى موسى
ابن محمد الوزارة الى ماكان اليه من خطة المدينة ، وهى
بمثابة محافظ المدينة ، وأقر أحمد بن محمد بن أبى عبدة
على القيادة ، وكان يعد من أقدر قادة الجيوش فى الأندلس ،
وأقر قاسم بن وليد الكلبى على الشرطة العليا ، وكان مع
ذلك خازنا للمال ، فصرف الخزانة عنه وولاها عبد الملك بن
جهور ، وولى الخزانة أيضا محمد بن عبيدة بن مبشر ومحمد
ابن عبد الله بن أبى عبدة ، واختار ثلاثة وزراء لخطة العرض
وهم عمر بن محمد بن غانم ، وعبد الرحمن بن عبد الله

الزجالى ، ومحمد بن سليمان بن وانسوس ، وعهد بكثير من المناصب العالية الى رجال سبق لهم أن مارسوا مختلف الاعمال الادارية وأظهروا فيها كفاية وقدرة ، وعرفوا بالسيرة الحسنة والسمعة الطيبة ، وعهد اليهم بالكتابة ببيعته الى الكور والاطراف ، ويصف لنا ابن عذارى هذا الشاب الذى ولى اماره الأندلس بقوله « أبيض ربة أشهل حسن الجسم جميل بهى يخضب بالسواد » ، وقد جرى فى عروقه الدم الاسبانى والدم العربى ، وتضافرت وسامة طلعتة ، وحسن سمعته ، وكريم أخلاقه ، وقوة ادراكه ، على أن تجعل منه أميرا عظيما يحبه شعبه ، ويخضع له أعداؤه ومنافسوه ، وإذا كان ظهور الابطال ونوادى الرجال فى التاريخ نتيجة للحاجة الملحة ، والضرورة القاهرة ، فان الظروف الحرجة ، والأزمات الحازبة ، والاضطراب المحدقة بالدولة الاموية فى الأندلس كانت تستلزم ظهور مثل هذا «المخلص» ، وكأنما أوحى الأقدار الى جده عبد الله باختياره لولاية الحكم دون اعمامه من اولاد الامير عبد الله وأعمام أبيه وسائر افراد بنى أمية ، لينقذ الموقف المتداعى ، ويخرج الامارة الأندلسية من المأزق الذى تورطت فيه .

عهد الثورات والعصاة المتمردين

كان عبد الرحمن الناصر ثامن الأمراء الذين تولوا عرش الأندلس من البيت الأموي ، ولم تخل عهود الأمراء الذين سبقوه من ثورات واضطرابات ، وكان الحكم في الأندلس الإسلامية يستلزم اليقظة المستمرة والجهاد الدائم لدفع غوائل الثورات والانقلابات والمحافظة على النظام والاستقرار ، ولكن الفترة الممتدة من سنة ٢٣٨ هجرية الى سنة ٣٠٠ هجرية والتي شملت حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، والأمير المنذر ، والأمير عبد الله ، كانت بوجه خاص من أشد الفترات اضطرابا وأحفلها بالثورات ، فقد تفاقمت فيها الخلافات بين العناصر المختلفة التي كانت تتكون منها معظم سكان الأندلس الإسلامية ، وكثر عدد الثائرين المتمردين والخارجين على الطاعة والنظام من ذوى الشخصيات القوية والشجاعة النادرة سواء من العرب أو البربر أو المستعربين أو المولدين ، وقد عزا بعض المؤرخين ذلك الى ضعف الولاة الذين تولوا الامارة في تلك الفترة . ولكن الواقع اننا نعلم هؤلاء الولاة اذا رميناهم بالضعف والتقصير ، فانهم لم يقصروا في الجهاد ، ولم يدخروا جهدا في العمل على اخماد الثورات واخضاع المتمردين ، ولكن الأحداث المتلاحقة كانت من وراء قدرتهم ، وفوق مستوى

همتهم ، وبرغم ما بذلوا من جهد وما أنفقوا من وقت في معالجة الأزمات المتلاحقة فانهم لم يستطيعوا التغلب عليها ، مما جعل عبد الرحمن يرث تركة مثقلة بالديون ، وموقفا يكاد يغرى باليأس .

وقد كان المسلمون في الاندلس يعاملون اخوانهم النصارى خير معاملة ، وقد تركوا لهم حرية العبادة ، ولم يتدخلوا في شيء من عقائدهم ، فكانوا يتجرون ، ويجمعون الثروات ، ويقتنون الضياع ، ويعيشون في رغد كما يعيش أضرابهم من المسلمين ، وعملوا على الاستفادة من سماحة الحكم المسلمين ولينهم وسعة أفقهم ، وبطبيعة الحال كان هناك بين المسيحيين بعض الطموحين المتحمسين الذين ساءهم خضوع الاندلس للمسلمين ، وعادت بهم الذكريات الى ما قبل دخول العرب الى اسبانيا ، والى ما كانوا يستمتعون به من حرية كاملة وسيطرة تامة ، وحدث في أواخر حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط أن عندما قليلا من النصارى بقرطبة التهبّت نفوسهم غيرة وتعصبا لدينهم ، وكان هذا التعصب الطارىء مقصورا على نصارى قرطبة ، أما جمهرة النصارى بالاندلس فلم تصبهم هذه الغيرة العنيفة ، وكان كثيرون من المسيحيين يعملون في الجيش ، وظفر بعضهم بمناصب عالية في الدولة ، وأقبل فريق كبير منهم على دراسة الادب العربى ، وشفغوا به ، وأعرضوا عن الادب اللاتينى مما بعث بعض القساوسة على أن ينعى عليهم ذلك ، ويلومهم لتركهم دراسة الأناجيل وأخبار الرسل ، ولكن هذا الأخذ بالثقافة العربية الاسلامية لم يخمد فيهم مع ذلك النزعة القومية ، وكانوا يغبطون اخوانهم فى المناطق الشمالية من اسبانيا الذين يحكمهم أمراء مسيحيون من بشى جلدتهم ،

وكانوا من الحين الى الحين يتعرضون لمواقف تشير
حساسيتهم وكبرياءهم القومية ، وكان القساوسة قد كونوا
أفكارا خاطئة عن الدين الاسلامي ونبي المسلمين وكانوا
يعتمدون في تقديرهم للاسلام وصاحب الرسالة على المراجع
اللاتينية التي لاتقدم لهم معلومات سليمة خالية من الاخطاء
والتحريف والزراية بالاسلام ونبي المسلمين ، كما أن ميل
العرب الى الاستمتاع بالحياة والاخذ بنصيب من متعها المباحة
كان يشير النعمة في نفوس القساوسة النزاعين الى الزهد
والتخلي عن لذات الحياة ، وكانت الاكثرية المستنيرة من
المسلمين تعرف لرجال الدين حرمتهم سواء اكانوا من
المسلمين ام من المسيحيين ، ولكن بعض العامة كشأنهم في
مختلف البيئات كانوا يميلون في بعض الاوقات الى الاستخفاف
بالقساوسة ، وقد أدى ذلك في العاصمة الى ظهور حركة
الاستشهاد في آخر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وعمل
على اثارة هذه الحركة في نفوس المسيحيين في قرطبة القس
البجيوس - وهو من أسرة مسيحية قديمة في قرطبة عرفت
بشدة استمساكها بالدين المسيحي - ورجل آخر من اعيان
المسيحيين يدعى الفارو ، وكان طالبو الاستشهاد يلجأون
الى اسلوب عجيب في التماسه ، وهو المعالنة بالطعن في
الديانة الاسلامية ، وتوجيه السباب المقذع الى صاحب
الرسالة ، واستمرت هذه الحركة في قرطبة بضع سنوات ،
ولم تهدأ الا بعد أن تدخل بعض كبار رجال الدين المسيحي
في عهد الأمير محمد ، وكثر شهداؤها ، ومهما يكن من أمر
هذه الحركة فانها تركت آثارها في نفوس المسيحيين والمسلمين
بوجه عام ، وكانت من أسباب الفتن والاضطرابات التي
ملأت ذلك العهد .

ومن أشهر التأثيرين فى تلك الفترة ، وأشدّهم خطورة ، وأطولهم عهدا ، وأكثرهم اضرارا بهيبة الدولة التأثير الشهير عمر بن حفصون ، ويقول عنه المؤرخ الاندلسى ابن حبان «هو كبير الثوار بالاندلس ، ونسبه عمر بن حفصون المعروف بحفص بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذبيان بن فرغلوش بن اذفونش من مسالة الذمة من كورة تاكرتا من عمل رندة . . وكان الذى أسلم منهم جعفر بن شتيم . . وكان له من الولد المذكور عمر وعبد الرحمن ، فولد عمر بن جعفر حفصونا وولد حفصون عمر هذا التأثير الملعون . . وبلغ فى الشقاق والفتن منزلة لم يبلغها تأثر بالاندلس ، ويقول المؤرخ دوزى انه من أسرة عريقة ترجع الى أصل قوطى ، وان جدهم جعفرا اعتنق الاسلام فى عهد الحكم الاول ، ولكن ذريته كانوا مسلمين فى الظاهر مع احتفاظهم بالولاء للمسيحية فى أعماق نفوسهم ، وقد استطاع حفص والد عمر باجتهاده وحسن تدبيره أن يجمع ثروة ضخمة ، ولذا رأى جيرانه تشريفه بجعل اسمه «حفصون» بدلا من حفص ، ولم يكن مايكدر صفو حياة الرجل سوى سوء أخلاق ابنه عمر ، فقد عجز عن أن يفرض عليه السيطرة الابوية وسبب ذلك له قلقا دائما ، وكان الشاب عمر مدلا بنفسه ، تياها كثير التعاضم ، ميالا الى المشاغبة ، وكانت تكفى اشارة عارضة أو كلمة عابرة لاثارة غضبه واستفزازه الى العدوان ، وطالما عاد الى منزل والده محمولا مثقلا بالكلمات والجروح ، ومثل هذا الخلق الجامح لابد أن يفضى الى ارتكاب جريمة القتل ، وحدث ذات يوم أن ثار خلاف بينه وبين أحد جيرانه لم يكن له مايسوغه ، وأسفر عن قتله لذلك الجار ، واضطر والده انقاذا لحياته من القصاص أن يفر به الى المنطقة الجبلية القريبة من مدينة رندة عند سفح جبل ببشتر تاركا الضيعة التى كانت أسرته

مقيمة بها ، وفي تلك المنطقة الموحشة ألف الشاب المتمرد حياة الغابات المتكاثفة ومخارم الجبال المتأبدة ، وقد اغراه ذلك بالاندماج في زمرة اللصوص وقطاع الطرق والمغامرين الفتاك ، ووقع في يد حاكم المنطقة ، وعوقب بالجلد ، ولما حاول العودة الى منزل والده ابي الوالد ان يلوذ بحماه هذا الابن العاق السييء السيرة النزاع الى الاجرام ، ولما ضاقت به سبل الحياة في الاندلس اخذ طريقه الى الشاطيء وابحر في احدى السفن الى الشاطيء الافريقي ، وبعد ان عانى حينا من الزمن حياة التشرد افضى به التطواف الى مدينة تاهرت ، وهناك عمل صبيا عند حائك من اهل ربه وكان له به معرفة سابقة ، وفي ذات يوم بينما كان عمر مقبلا على عمله دخل الى الحانوت الذي يعمل به رجل متقدم في السن ، وبعد ان دعاه الحائك الى الجلوس دخل الرجل في مناقشة معه اشترك فيها عمر ، فسأل الرجل المسن الحائك عن عمر ، فأجابه الحائك انه من ربه ، وجاء ليتعلم الحياكة «فسأله الرجل» متى تركت ربه ؟ فأجاب عمر «منذ اربعين يوما»

فسأله قائلا «اتعرف جبل ببشتر ؟»

فأجاب عمر «منزل ابي في سفح هذا الجبل»

فقال الرجل «هل قامت ثورة في تلك الناحية ؟»

فأجاب عمر «لم يحدث ذلك» .

فقال الرجل وكأنه يحدث نفسه «عما قليل ! اتعرف

في جوار ذلك الجبل عمر بن حفصون ؟»

فامتقع وجه عمر ولزم الصمت ، وكان الرجل المسن

من اصل اسباني ، وحينما سمع عن مغامرات عمر وهو في

ناحية ببشتر اعتقد أن هذا الشاب المغامر سيكون من كبار

الزعماء وأدرك الرجل من تغير وجه عمر ولزومه الصمت أنه يخاطب ابن حفصون نفسه ، فقال له «أتظن أنك تطارد الفقر بآبرة الحائك ؟ عد الى بلدك واحمل السيف بدلا من ذلك فانك ستكون مصدر رعب للأمويين وستتولى حكم أمة عظيمة» .

وتركت هذه الكلمات أثرها في نفس عمر ، وداخله الخوف من أن اسمه قد يعرف في تاهرت ويصل الى مسامع الحاكم فيعمل على تسليمه لحكومة قرطبة التي كانت تاهرت موالية لها ، وابتدر العودة الى الاندلس ، وبدأ تكوين عصابة في جبل بيشتر وكان ذلك في سنة ٨٨٠ ميلادية (٢٦٧ هجرية) وكان في الجبل بقايا حصن من العهد الروماني ، ولم يجد عمر صعوبة في ترميم بقايا هذا الحصن ، ولم يكن هناك مكان أكثر ملائمة وأشد منه مناعة لايواء عصابة من اللصوص أو الثائرين المتمردين على النظام ، فقد كان هذا الحصن قائما على صخرة عالية شديدة الانحدار يمتنع الوصول اليها من ناحية الشرق ومن ناحية الجنوب ، وكان من مزايا هذا الحصن المنيع أنه على مقربة من السهل المنبسط حتى قرطبة والذي تستطيع فيه عصابة ابن حفصون أن تشن غارات لسرقة الماشية ، وفرض الضرائب على المزارعين في الأنحاء النائية المنعزلة ، ولما قوى شأنه وكثر أنصاره وأتباعه صار يتجه بغاراته الى أبواب المدن ويقوم بحركات هجومية بارعة جعلت حاكم منطقة ريه يقدم على مهاجمته بمن معه من الجند ، ولكن ابن حفصون تغلب عليه ، وعزا أمير قرطبة - محمد بن عبد الرحمن الاوسط - ذلك الى ضعف الحاكم فعزله وعين حاكما جديدا لكورة ريه ، ولكن الحاكم الجديد لم يستطع التغلب على ابن حفصون فهادنه ، ولكن هذه

الهدنة لم يطل أجلها ، وعزل الحاكم الجديد ، وعاد ابن حفصون الى ماكان عليه من الشر وظل يقاوم مدة سنتين أو ثلاث سنوات ، وفي سنة ٢٧٠ هجرية (٨٨٣م) غزا القائد هاشم بن عبد العزيز كورة ريه واستنزل عمر بن حفصون من قلعته ، وقدم به قرطبة ، فاحتفى به الأمير محمد وأوسع له في الاكرام ، وضمه مع رجاله الى جيشه ، ولم ير عمر ندحة عن قبول ذلك ، وحينما قاد هاشم حملة لاختضاع محمد بن لب زعيم بني قسي في الثغر الأعلى سحب معه ابن حفصون ، وظهر عمر ضروبا من الشجاعة في الهجوم الذي شنّه القائد وعاد معه الى قرطبة ، ولم يسترح ابن حفصون بعد ذلك لخدمة الأمير محمد ، وتاق الى حياة المغامرة التي ألفها ، فهرب من قرطبة مع رجاله ولجأ الى جبل بيشتر سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) ووجه اهتمام الى استرداد قلعته ، وكان القائد هاشم الذي عرف أهميتها من الناحية الحربية قد شحنها بالمقاتلة ، وزاد في مناعة أبراجها ، ولكن ابن حفصون لم ييأس من الاستيلاء عليها ، وفاجأ حراسها بهجوم مفاجيء مكنه من استردادها ، وأخذ في اثاره شعور الأنفة في نفوس مواطنيه من المسلمين والمسيحيين قائلا لهم «(١) طالما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب ، واستعبدتكم ، وانما أريد أن أقوم بشاركم وأخرجكم من عبوديتكم ، وكان هذا النداء يجد صدى في النفوس . ويقول ابن عذارى : (كان ابن حفصون لا يورد هذا على أحد الا أجابه وشكره . . . وكان اتباعه شطار الناس وشرارهم ، فكان يمنيهم بفتح البلاد وغنائم الأموال ، وكان مع ذلك متحيبا لأصحابه متواضعا لآلافه ، وكان مع شرهه وفسقه

(١) الجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ١٧٢ .

شديد الفيرة ، حافظا للحرمة ، فكان ذلك مما يميل النفوس اليه ، وكانت المرأة في أيامه تجيء بالمال والمتاع من بلد الى بلد منفردة لا يعترضها احد من خلق الله ، وكانت عقوبته السيف ، يصدق المرأة والرجل والصبي او من كان على من كان ، لا يطلب على ذلك شاهدا أكثر من الشكوى ، وكان يأخذ الحق من ابنه ، ويبر الرجال ، ويكرم الشجعان ، واذا قدر عليهم عفا عنهم ، وكان يسورهم بأسورة ذهب اذا اختصلوا ، فكانت هذه الأشياء كلها عوناً له « وامتدت غاراته الى قبرة والبيرة ، وأحواز جيان ، ومر ما يقرب من عامين قبل أن يوجه الأمير محمد جيشاً بقيادة ابنه وولى عهده المنذر لمهاجمة هذا الثائر الذي أقام نفسه مدافعاً عن المولدين والمستعربين والمضطهدين في زعمه ، والذين يسيء العرب والبربر معاملتهم ، وهاجم المنذر حصن الحامة ، وكان صاحبه من أنصار ابن حفصون ، فأسرع الى نجدة ، واستمر الحصار شهرين تناقصت خلالهما المؤونة المدخرة ، واضطر المدافعون عن الحصن الى القيام بهجوم على الجيش المحاصر ، ولكنهم لم ينجحوا في هذا الهجوم ، وأصيب ابن حفصون بجروح كثيرة ، وقطعت يده ولاذ بحصنه بعد أن فقد عدداً من رجاله ، ولكن الحظ أسعفه ، فقد مات في ذلك الوقت الأمير محمد ، واضطر المنذر الى العودة لقرطبة وتمت له البيعة في اليوم الثاني من وصوله .

ولما بلغ ابن حفصون نبأ وفاة الأمير محمد في سنة ٢٧٣ هـ راسل الحصون التي بينه وبين الساحل كلها فأجابته ، وطاعت له ، وجمع أموالاً كثيرة قوى بها شأنه ولكنه وجد في الأمير المنذر الذي ارتقى العرش نداً قوياً ، فقد كان المنذر أميراً ناهض العزم ، قوى الشكيمة ، شجاعاً

مقداما ، ويعتقد اولياء بنى أمية انه لو مد له في العمر
لاستطاع اخماد الثورات القائمة واخضاع العصاة المتمردين
في المناطق الجنوبية ، ومهما يكن من الامر فانه في سنة
٢٧٤ هـ (٩٨٤ م) خرج من قرطبة بجيوشه لمقاتلة عمر بن
حفصون ، وافتتح حصون برية ، ثم توجه الى قلعته في
ببشتر وحاصره بها ، وأفسد ما حواليه ، وضيق عليه ،
ثم انتقل عنه الى ارشيدونه فأقام عليها محاصرا ومضيقا على
أهلها ، الى أن نبذوا عيشونا - وهو من حلفاء ابن حفصون
- وأسلموه ، فدخلها الأمير المنذر ، وقبض على عيشون
وأصحابه ، وافتتح حصون بنى مطروح وعون وطالوت
بجبل باغة وبعث بهم الى قرطبة وأمر بقتلهم مع عيشون ،
وفي العام التالي من ولايته خرج في عديد أكثر وقصد ببشتر
وقاتل ابن حفصون أشد قتال واستولى على السهول
والأوعار المحيطة بقلعته ، ولما رأى ابن حفصون أن الأمير
المنذر قد أخذ بمخنقه ، وسد أفواه طرقه لجأ الى المخادعة ،
وأظهر الميل الى الطاعة ، على أن يكون عند الأمير من خاصة
جنده ، وأن يقيم بقرطبة بأهله وولده ، فأجابه الأمير المنذر
الى مطلبه ، وسأل الأمير مائة بغل يحمل عليها متاعه وعياله ،
فأمر الأمير البغال أن تحمل اليه ، وتوضع بين يديه ، وجعل
عليها عشرة من العرفاء ومائة وخمسين فارسا اتماما للاكرام
والانعام ، فأرسلهم ابن حفصون الى ببشتر حيث أهله
وولده ، واغتتم ابن حفصون فرصة ابتعاد جيش الأمير عن
ببشتر واقبال الليل وخف هاربا اليها مسرعا واستولى على
البغال المرسلة اليها ، وأغضب ذلك الأمير المنذر فأقسم أن
يقصده ولا يقبل منه أو يلقي بيده اليه ، واستجمع قوته
لحصار ببشتر ، وشدد الحصار ، ولكن الموت لم يمهل ،
وكان الأمير عبد الله حينذاك بقرطبة ، فأبلغه النخعيان خبر

موت أخيه فحضر إلى بيشتير ، وقفل إلى قرطبة بأخيه المنذر ميتا ، واستتم بها بيعته ، ودفن أخاه ، وكانت الجنود المحاصرة لابن حفصون قد ملت الحصار فلما بلغهم موت الأمير المنذر تفرق شملهم في أثناء العودة إلى قرطبة ، فلما وصل الأمير عبد الله إلى العاصمة لم يكن معه سوى أربعين فارسا .

واستغل زعماء القبائل العربية التصدع في بناء الدولة الأموية الذي أحدثته ثورة ابن حفصون ونزعوا إلى الاستقلال ، ورأى الأمير عبد الله أن ثورة هؤلاء الزعماء أشد خطرا على الدولة من تمرد ابن حفصون ، وخشى الأمير عبد الله العزلة ، وقدر أن عليه أن يختار أحد الفريقين ، فريق المولدين والمستعربين أو فريق زعماء العرب ، ورأى التقرب من زعماء المولدين والمستعربين ، وقبل أن يحكم ابن حفصون منطقة ريه ، على شريطة أن يعترف له بسلطته عليها ، وقبل ابن حفصون هذه المساومة ، وأرسل ابنه وبعض رجال حاشيته إلى قرطبة ليكون ذلك دليلا على إخلاصه في ولائه ، وحاول الأمير عبد الله من ناحيته تقوية صلته بابن حفصون فأكرم وفادتهم وأثقلهم بالهدايا ، ولكن بعد مضي أشهر لم يستطع ابن حفصون كبح جماح جنوده ومنعهم من الاغارة على القرى والمزارع حتى أبواب مدينة استجة واشونة ، بل اقتربت غاراتهم من أبواب قرطبة نفسها ، وحينما تغلب رجسالة على الجيش الذي أرسله عبد الله لرد تلك الغارات أعلن العصيان وطرد عمال الأمير ولم تنجح سياسة الأمير عبد الله في التقرب من المستعربين والمولدين ، ووسع ذلك شقة الخلاف بينه وبين قومه العرب ، ولم يكن من المنتظر أن يدينوا بالولاء لأمير قد أصبح العوبة في يد خصومهم من المستعربين والمولدين ، وكان العرب

المقيمون في منطقة البيرة اكثرهم من سلالة جند دمشق ،
وكانوا يؤثرون الإقامة في أرباض المدينة وضواحيها ،
ويشتمخون بأنوفهم على المولدين والمستعربين ، ولذلك
اثاروا البغضاء في نفوسهم ، وكثر الاحتكاك بين الفريقين ،
وعند ابتداء ولاية الأمير عبد الله كان الصراع بين الفريقين قد
اشتد ، وخرج أشراف العرب على الأمير عبد الله ، واختاروا
لهم زعيماً من القيسية وهو يحيى بن صقاله الذي كان من
أشجع رجال عصره ، واحتل العرب موقعا حصينا في شمال
شرقي غرناطة ، فقام المولدون والمستعربون بحصارهم في
ذلك الحصن ، وقتلوا عددا من المدافعين عنه ، واستولوا
عليه في النهاية ، واضطر ابن صقاله الى الهرب ، ولما وجد
نفسه في قلة من الاتباع القى السلاح ، وعقد صلحا مع
المولدين والمستعربين ، واشتبك بعد ذلك في مؤامرة ، وقتله
المولدون والمستعربون في ربيع سنة ٨٩٩ م (٢٧٦ هـ) وكان
سوار بن حمدون القيسي من أصحاب ابن صقاله ، فرأسه
العرب عليهم بعد مقتله ، واشتد به أمر العرب ، وكثر
أتباعه وقام مطالباً بثأر صاحبه ، وكان شجاعاً محارباً كما
يقول (١) ابن الأبار ، واعتز العرب بمكانه ، وقصد حصنا
اجتمع فيه المولدون والمستعربون وهو حصن منت شاعر
فنازلهم بالعرب حتى قهرهم ، وأخرج منه زعيمهم نابلا ،
وكان نابلا قد انتزع هذا الحصن من صقاله فاسترده سوار ،
وافتح بعد ذلك حصونا أخرى من حصون المولدين والمستعربين
وقتل من ظفر به منهم وغنم أموالهم ، ولقيه جعد بن
عبد الغافر - عامل الأمير عبد الله - فهزمه سوار وقتل من
أصحابه نحواً من سبعة آلاف ، وأسرجعدا ، ومن عليه وأطلقه
وأبلغه مأمنه .

(١) الجزء الاول من الحلة السيرة صفحة ١٤٨ .

وغلظ أمر سوار واستبق الى حصن غرناطة بالقرب
من كورة البصرة ، واتصلت عرب النواحي الى حدود قلعة
رباح وغيرها ، وصاروا معه الباء على المولدين والمستعربين
وعظم شأن سوار ، وعلت همته ، وأملته العرب ، وأكثر من
الفخار بنفسه ، وحدثت معركة بينه وبين ابن حفصسون
أوقع فيها بأصحابه ، وقتل منهم عددا كبيرا ، وتعرف هذه
المعركة « بوقية المدينة » ، وقد أشار الى هذه الوقعة
سعيد بن جودي السعدي صاحب سوار بقوله في قصيدة له :

لقد سل سوار عليكم مهندا
يجذبه الهامات جذ المفاصل

به قتل الله الذين تحزبوا
علينا وكانوا أهل افك وباطل

سما لبنى (١) الحمراء اذ حان حينهم
بجمع كمثل الطود أرعن رافل

لقيتم لنا ملمومة مستجيرة
تجيد ضراب السهم تحت العوامل

بها من بنى عدنان فتيان غارة
ومن آل قحطان كمثل الأجادل

يقودهم ليث هزير ضبارم
محش حروب ماجد غير خامل

وكان لكل فريق من الفريقين المتصارعين شاعر ينافح
عنه ويتغنى بمواقفه ويشيد بالأبطال من رجاله ، وكان شاعر

(١) كان العرب يسمون أهل منطقة رية بالحمراء لانهم من أصل

المولدين والمستعربين وهم من النصارى هو عبد الرحمن
ابن أحمد المعروف بالعبلى وكان يقابله فى الجانب العربى
محمد بن سعيد بن مخارق الاسدى ، وحيثما نظم العبلى
قصيدته فى هزيمة العرب التى اولها :

قد انقصت قناتهم وذلوا
وضضع ركن عزهم الأذل

اجابه يحيى ابن اخى يحيى بن صقالة من قصيدة
طويلة يمدح فيه سوارا ويذكر وقعة البيرة ويناقض
العبلى :

لسوار على الأعداء سيف
آباد ذوى الغواية فاضحلوا

سقامهم كأس حثف بعد حثف
بها نهل العبيد معا وعلوا

قتلت بواحد سوار ألفا
والفهم بواحدنا يقل

وأكثر قتلنا لهم حلال
بما ارتكبوه ظلما واستحلوا

فأوردنا رقابهم سيوفا
تشب النار فيها اذ تسل

ورثنا الغز عن آباء صديق
وارثكم بنى العبدان ذل

وعامل سوار المولدين والمسألة من المستعربين معاملة
شديدة قاسية فى كور جيان والبيرة وريه ، وقد دفعتهم هذه
الشدّة الى الانضمام الى عمر بن حفصون ، وآل الأمر الى أن

قتل سوار في احدى المعارك ، وقاتله حفص بن الورد قائد عمر
ابن حفصون ، ولما قتل سوار ذلت العرب بمقتله ، وكل حدها
بما نزل فيه ، على حد تعبير (١) ابن الابار ، ونصبت العرب
لرياستها بعده سعيد بن سليمان بن جودي صاحبه ، وعلقت
آمالها به ، فلم يسد مكانه ، ولا بلغ مداه في السياسة ، وكان
شجاعا بطلا وفارسا مقداما ، وشاعرا محسنا ، وهابه ابن
حفصون هيبة لم يهبها أحدا ممن مارسه ، ودعاه في بعض
أيامهم الى المبارزة ، فلم يجبه ابن حفصون اليها وحاد عنه
وواجهه يوما ، فألقى عليه ذراعه واجتذبه الى الأرض ، فما
تجاه منه الا أصحابه الذين انقضوا على سعيد فتنقنوا عمر من
يده ، وقد قتل سعيد غيلة بأيدي بعض أصحابه في سنة
٢٨٤ هـ ، وقيل ان من أقوى أسباب قتله أسياتا من الشعر قالها
في غمض أمراء بني مروان منها :

يا بني مروان جدوا في الهرب
نجم الثائر من وادي القصب
يا بني مروان خلوا ملكنا
انما الملك لأبناء العرب

وفي رواية ابن حيان ان صدر البيت الأول « قل لعبدالله
يجدد في الهرب وأضاف اليها بيتا ثالثا :

فربوا الورد المحلى بالذهب
واسرجوه ان نجمي قد غلب

ورثاه الأسدي شاعر العرب في ذلك الأوان ، وقال فيه
مقدم به معافى القبري يرثيه :

(١) الحلة السيرة لابن الابار الجزء الاول صفحة ١٥٥ .

من ذا الذى يطعم أو يكسو
وقد جوى حلف الندى رمس
لا أخضرت الأرض ولا أوراق
العود ولا أشرقت الشمس
يعد ابن جوى الذى لن ترى
أكرم منه الجن والأنس
دموع عينى فى سبيل الأسى
على سعيد أبدا حبس

وقام بأمر العرب بعده محمد بن أضحى الهمداني
صاحب حصن الحمة ، وناصر ابن حفصون الحرب ، وظفر به
ابن حفصون فى إحدى الواجهات ، وصار عنده أسيرا ، فقاده
العرب منه بمال جسيم ، وخضع بعد ذلك لطاعة الأمير .

وفى خلال الصراع بين العرب والمولدين والمستعربين فى
كورة البيرة وقعت أحداث خطيرة فى إشبيلية ، وكانت مدينة
إشبيلية منذ عهد القوط مستقر الحضارة الرومانية ومكان
إقامة أعرق الأسر وأوسعها ثراء ، ولم يغير الفتح الإسلامى
إلا القليل من نظامها الاجتماعى ، وكان أكثر سكانها من
العرب يقيمون فى الضواحي وقليل منهم من كان يؤثر السكنى
فى داخل المدينة ، ولذلك كان أغلب سكانها من سلالة الرومان
والقوط ، وقد زادت التجارة والزراعة فى ثرواتهم ، وكثير من
الإشبيليين تركوا المسيحية واعتنقوا الإسلام ، وكانوا يؤثرون
المسالمة والطاعة ، وينظرون إلى الأمير باعتباره القيم على الأمن
والنظام وحارسهما ، ولكنهم كانوا يخشون بأس العرب
المقيمين فى المناطق الزراعية حول حاضرتهم ، وكان العرب
المقيمون فى منطقة الشرف القريبة من إشبيلية أقوىاء المراس

مرهوبى الجانب ، وقد كونوا حلفا مع العرب العدنانية فى منطقة اشبيلية ومع البربر البتر فى ناحية مورور .

وكان من بين الاسر العربية البارزة فى منطقة اشبيلية اسرتان هما بنو حجاج وبنو خلدون ، وكانت أسرة بنى حجاج من قبيلة لحم اليمنية ، وكذلك كانت أسرة بنى خلدون من أصل يمنى ، وفى أول عهد الامير عبد الله كان كريب رئيس بنى خلدون ، وكان يضمر العداء لبنى أمية وكان يتطلع الى أن تسترد أسرته السيطرة التى استلبها منها الأمويون ، وحاول فى بادئ الأمر أن يدعو عرب اشبيلية الى الثورة ، ويحرك فى نفوسهم حب الحرية والانطلاق ، ولكنه لم يوفق فى ذلك لأن معظم العرب فى تلك الناحية كانوا قرشيين أو من موالى الاسرة الأموية ، وكانوا يؤثرون الإبقاء على سيطرة القانون والمحافظة على استقرار نظام الحكم ، فلم يظهروا عطفاً على ما كان يتطلع اليه كريب ، وصارحوه بأنهم لا يريدون أن يكونوا مطية لتحقيق مطامع أى زعيم ، ولما أخفق فى محاولة تحريك بواعث الثورة فى سكان اشبيلية من العرب لجأ الى الشرف ، واستطاع إثارة حماسة قبيلته . ووعده رجالها بالقيام معه بالثورة متى بدأها ، وكون حلفا من بنى حجاج وزعيمى لبلة وشنونة وزعيم البربر فى قرمونة لانتزاع اشبيلية من سيطرة بنى أمية ، وسلب المولدين والمستعربين ، وكانت الطبقة الارستقراطية فى اشبيلية تجهل ما يدبره كريب ، وتراحت الى آذان أفرادها اشاعات غامضة عن هذه المؤامرة ولكن لم تكن عندهم معلومات وافية عنها ، وأراد كريب أن يبدأ حركته بالانتقام من هؤلاء الذين أحجموا عن الاستجابة لرغبته ، ولكى يريهم أن الامير عبد الله لا يستطيع حمايتهم أسر الى بربر فريدلة وميدلين أن مقاطعة اشبيلية تكاد تكون خالية من الجيوش ، وانهم اذا

كانوا يريدون الحصول على الغنائم الضخمة فانها هناك في
متناول أيديهم ، ولما كانوا مستعدين على اللوام لشن الغارات
فإنهم هاجموا طلياطة الواقعة على مسافة نصف فرسخ من
اشبيلية ، وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والأطفال ، فجنّد
حاكم اشبيلية كل من يستطيع حمل السلاح ، وتقدم لمهاجمة
البربر ، ولما علم أنهم قد استولوا على طلياطة نصب معسكره
على مرتفع يعرف بجبل الزيتون ، ولم يكن بينه وبين العدو
سوى ثلاثة أميال ، واستعد الفريقان للمعركة التي ستقع في
اليوم التالي ، وكان كريب قد ضم رجاله الى جند الوالى مثل
سائر الطبقة الارستقراطية فى اشبيلية ، ولكنه فى أثناء
الليل أخبر البربر بأنه سيأمر رجاله بالانسحاب فى أثناء
المعركة ، وبذلك يجعل انتصارهم سهلا ، وفى بوعده ، وعند
انسحابه من المعركة تبعه سائر الجيش ، وطاردت البربر
الوالى الذى ظل يتراجع حتى قرية وبرة الواقعة على مسافة
خمس فراسخ من اشبيلية وهناك أقام معسكره وجمع
أطرافه ، ولم يحاول البربر زحزحته ، وعادوا الى طلياطة
وعسكروا بها ثلاثة أيام عاثوا فيها فسادا واتلافا فى النواحي
المجاورة ثم حملوا غنائمهم وعادوا الى منازلهم .

وقد أضرت هذه الغارة الرهيبة بالكثيرين من ملاك الضياع
فى اشبيلية ، وتبعتها نكبة أخرى لم يكن سببها كريب ، فان
الثائر الخطير ابن مروان الجليقى الذى استولى على بطليوس
حينما علم بالغنائم التى ظفر بها البربر المقيمون فى ناحية
مريّة رأى أن يقوم بغارة مماثلة ، وتقدم الى مسافة عشرة أميال
من اشبيلية ، وجد فى السلب والنهب وعاد محملا بالغنائم
وأغضب موقف الوالى السلبى أهل اشبيلية ، وأثار حنقهم
عليه ، واستجابة لشكواهم من تقاعده عزله الأمير ، وكان الوالى
الذى خلفه تقي السمعة ، ولكنه عجز عن مقاومة المغيرين ،

والمحافظة على الأمن والنظام ، حتى كثرت الغارات ، وعم النهب والسلب ، وكان أشد اللصوص وقطاع الطرق وطأة تماشكا من برايرة قرمونة ، وكان يسطو على المسافرين في الطريق بين اشبيلية وقرطبة ، ولم يستطع الوالي أن يتخذ أى إجراء لمقاومته ، وأخيرا تقدم أحد المولدين الشجعان وهو محمد بن غالب ووعد الأمير عبد الله بالقضاء على طغيان اللصوص إذا سمح له ببناء قلعة في قرية سيتاتوريس الواقعة في حدود اشبيلية واستجة ، وقبل الأمير هذا العرض ، وأقيمت القلعة ، وشحنها ابن غالب بعدد من المولدين وموالي بنى أمية ، وسرعان ما أدرك اللصوص أنه قد ظهر في الميدان من يستطيع رد عدوانهم ، وتوطد الأمن واستقر النظام ، وفي ذات يوم عند شروق الشمس ذاع في اشبيلية أنه حدث في أثناء الليل صراع بين حرس قلعة ابن غالب وقبيلتي بنى خلدون وبنى حجاج ، وإن أحد أفراد قبيلة بنى حجاج قتل في المعركة وحملت جثته الى المدينة ، وأشيع أن بنى حجاج قد تقدموا الى الوالي يطلبون العدالة ، ولكنه رفض أن يتحمل التبعة ، وأحالهم على أمير قرطبة ليتولى بنفسه الفصل في الموضوع ، والحكم في هذه القضية ، وفي الوقت الذي أثارت فيه هذه الأنباء اشبيلية كان يؤم قرطبة وفدان : أحدهما وقد يمثل العرب وعلى رأسهم ممثلون لأسرتى بنى خلدون وبنى حجاج للشكوى من سلوك ابن غالب والوفد الآخر يمثل المولدين والمستعربين لبيان حقيقة ما حدث والدفاع عن موقف ابن غالب ، ورمى وفد العرب ابن غالب بأنه خائن ، وإن رجاله عصابة من اللصوص والسفاحين وإن الذين أشاروا على الأمير عبد الله بوضع ثقته في ابن غالب قد غشوه ، واتهموه بأنه على اتصال خفى بالثائر الكبير ابن حفصون ، وجاء بعدهم وفد المولدين والمستعربين فذكروا للأمير أن بنى خلدون

وبنى حجاج قد دبرا مفاجأة القلعة في أثناء الليل وأن ابن غالب كان قد احتاط للأمر ورد عن قلعته الهجوم المفاجيء ، فاذا كان أحد المهاجمين قد قتل فان وزر قتله لا يقع على ابن غالب الذي قام بما يلزمه به الدفاع المشروع عن النفس ، ونصحوا الأمير بالألا يصدق أكاذيب العرب المشاغبيين ، وأن ابن غالب من أصدق الناس اخلاصا له وأشدهم ولاء للبيت الأموي ، وأنه بتطهيره المدينة والكورة من اللصوص قد أدى للدولة خدمة جليلة ، ولم يقدم الأمير عبد الله على الفصل في الموضوع خشية أن يفضب أحد الطرفين ، ورأى أن يوفد ابنه محمد الى اشبيلية للتحقيق في هذه القضية ، ولما وصل الأمير محمد - وكان ولي عهد أبيه - الى اشبيلية استدعى ابن غالب وبني حجاج لسماع أقوالهم ، وتبادل الفريقان التهم ، فلم يستطع محمد البت في الموضوع لعدم وجود الشهود العدول ، وأدى هذا التردد من ناحية الأمير ونجله الى اثاره الخواطر في اشبيلية واضطرام الفتنة ، وأعلن الأمير محمد أنه سيرجيء الحكم ، وسمح لابن غالب بأن يعود الى قلعته . وعد المولدون والمستعربون هذا انتصارا لهم ، وأعلنوا أن الأمير في جانبهم وأنه أمسك عن المصارحة برأيه واصدار حكمه تحاشيا لاثارة مشاعر العرب ، وكان هذا كذلك رأى بنى خلدون وبني حجاج ؛ ولذلك صمموا على الانتقام واحداث الشعب ، واتفقوا على أن يقوم كريب بالاستيلاء على حصن قورية ، وأن يتولى عبد الله زعيم بنى حجاج الهجوم على قرمونة ، واستولى كريب على حصن قورية ، وغنم ما به واستعان عبد الله بن حجاج بجنيد وهو من البربر في امتلاك قرمونة ، وهرب واليها قاصدا اشبيلية ، وأخافت جراءة العرب سكان المدينة ، فأرسل الأمير محمد رسالة عاجلة الى والده يطلب النجدة والرأى في مواجهة الموقف ، وحينما تلقى الأمير عبد الله هذه الرسالة شاور

وزراءه فى الأمر فأشار عليه أحدهم بعد طلب الخلوة به بأن يأخذ جانب العرب ويقتل ابن غالب ، وأن ذلك سيكون كفيلاً بعودة قورية وقرمونة الى سيطرته وتهدة خواطر العرب ، ومال الأمير عبد الله الى الأخذ بهذا الرأى برغم ما فيه من التضحية برجل أعلن ولاءه للدولة وأعانها فى قطع دابر اللصوص وقطاع الطرق ، واستعادة الأمن والنظام ، واستدعى قائده جعدا وأمره بالمسير مع بعض الفرق الى قرمونة ، ويعلن أنه فى جانب متهمى ابن غالب ، ويقتله ، ويبذل كل جهده فى اقناع العرب بالعودة الى مسالته ، ولا يلجأ الى استعمال القوة الا بعد أن يبذل أقصى ما عنده فى حملهم على الطاعة ، وسار جعد فى طريقه ومع أنه لم يعلن ما كانت تستهدفه حملته الا أن المولدين والمستعربين أدركوا أن المقصود القضاء على ابن غالب واحتاط ابن غالب لنفسه ، واحتمى بالثائر ابن حفصون ، وتلقى بعد ذلك رسالة من القائد جعد يقول له فيها : ان هدف الحملة معاقبة العرب لما أظهروا من قسوة واخلالهم بالأمن ، وانه يريد الاستعانة به فى تحقيق ذلك ، وخدع ابن غالب بهذه الدعوة الغادرة ، فلما اقترب جعد من قلعته انضم له ومع كتيبة من رجاله ، وتظاهر جعد بالاستعداد لمحاصرة المدينة ، ولكنه فى الوقت نفسه كتب الى ابن حجاج يخبره بأنه سيضحي بابن غالب على شريطة أن يخضع للأمير عبد الله ، وتمت الصفقة وقتل ابن غالب ، وترك ابن حجاج قرمونة ، ولما علم المولدون والمستعربون بمصرع ابن غالب أثار ذلك الغدر حنقهم ، واشتدت نقيمتهم على الأمير عبد الله ، وصمموا على قتل أمية أخى جعد وكان حينذاك والى اشبيلية ، ولكنهم وجدوا أنهم لا يستطيعون ذلك الا اذا تمت لهم السيطرة على المدينة ، فتقدموا الى الأمير محمد بالشكوى من جعد وغدره بابن غالب ، وذكروا له أنه يعتزم مهاجمة

المدينة ، وأنه اذا أراد أن يكسب ولائهم ويجعلهم مدينين له بالشكر فان عليه أن يسلمهم مفاتيح المدينة حتى تنجلي الأزمة ، ولم يكن الأمير محمد على وفاق مع العرب وليس معه سوى القليل من الحرس فلم ير بدا من تسليمهم المفاتيح المطلوبة ، وأخذ جانب المولدين والمستعربين حلفاءهم من العرب العدنانية والبربر البتر الذين وصلوا الى المدينة في ٩ سبتمبر سنة ٨٨٩ م (٢٧٦ هجرية) وهاجمت جموع غفيرة قصر أمية ، وكان الهجوم مفاجئا الى حد أنه لم يتمكن من أن يحتذى حذاه ، وأسرع ممتطيا جواده الى قصر الأمير وبعد أن نهب الثائرون قصر الحاكم تدفقت جموعهم على قصر الأمير وقد ارتفعت صيحاتهم ، وأحاطوا به وقد انضم الى الجمع الحاشد التجار والعمال والصناع ، وتوالت رسل الأمير الى أعيان المدينة لتحذير الحواطر وانقاذ الموقف ، وفي اللحظة التي اشتد فيها الخطر أقبل جعد ومعه عدد من الفرسان ، وشق طريقه شاهرا سيفه ، وأنقذ الأمير محمدا وأخاه بعد صراع عنيف سقط فيه الكثير من القتلى ، وعاد الأمير محمد وجعد الى قرطبة ، وجاء بعد ذهابهما ابن حفصون مطالباً برأس جعد ؛ لأنه قتل حليفه ابن غالب ، وبرغم أن جعدا قتل ابن غالب بإيعاء من الأمير عبد الله الا أنه كان يعرف سطوة ابن حفصون وما يشيره من الرعب في النفوس ، وخشى أن يضحي به استرضاء لابن حفصون ودفعاً لشربه ، ورأى أن الهرب هو الفرصة الوحيدة لاتقاء هذا الخطر ؛ ولذلك غادر العاصمة سرا في جنح الليل لاجئا الى أخيه حاكم اشبيلية ، وصحبه أخواه الآخرون هاشم وعبد الغافر وقليل من الأصدقاء ، وشاء سوء الحظ أن يلقيهم في الطريق تاماشكا البربري الذي كان يرتاد تلك الأنحاء ومعه عصابته ، وكان في العصابة اثنان من اخوة ابن غالب ، وعرفا جعدا ،

وهاجمت العصابة جعدا وأخويه وأصدقاءه ، وقتلت جعدا وأخويه وأحد القرشيين ، وكان هذا العدوان كارثة للمولدين والمستعربين في اشبيلية فان أمية الذي عجز عن الانتقام من القتلة صب غضبه ونقمته على المولدين والمستعربين في اشبيلية ، وسلمهم الى أيدي بني خلدون وبني حجاج ، وحدثت مجزرة مروعة قتل فيها ألوف من المولدين والمستعربين والذين حاولوا الهرب غرقوا في نهر الوادي الكبير ، وساءت حالة الباقين على قيد الحياة منهم وتعرضوا للبؤس والفقر ، ولم يستفد الأمير عبد الله من اخماد هذه الثورة والقضاء على هذا الاضطراب ، وانما الذي أفاد منه وازداد سطوة هي القبائل العربية اليمنية ، وحاول أمية إيقاع الشقاق بين جنيد البربري وعبد الله بن حجاج ، وكانا قد اقتسما السلطة في قرمونة ، كما حاول أن يحدث شقاقا بين كريب وحزبه ، ولكنه لم يوفق في مسعاه ، وقد أغرى جنيدا بقتل عبد الله بن حجاج ، ولكن مقتل عبد الله أضرب به أكثر مما نفعه ، فقد خلف عبد الله في زعامة بني حجاج ابنه ابراهيم ، وكان رجلا موهوبا ويخشى جانبه أكثر من أبيه ، وكان كريب زعيم بني خلدون أدهى من أن يخدعه أمية ؛ ولذلك عجز عن النيل من اليمنية ، وقد اضطر أمية الى أن يدافع عن سيطرته على المدينة حتى خر قتيلا بعد أن قتل زوجاته وحرق كل ما يملك وعقر جياده ، وكتب اليمنيون الى الأمير عبد الله يخبرونه بمقتل أمية وأنه كان يضمر الثورة ، ولم يكن في وسع الأمير أن ينزل بهم العقوبة فقبل قولهم وأرسل لهم واليا جديدا ، ولكن هذا الوالي الجديد لم يكن له من الأمر شيء وكان العوبة في يد ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون ، وظن الأمير عبد الله أنه قد يستطيع تحسين الموقف بتغيير الحاكم الجديد فأرسل واليا آخر على المدينة ومعه عمه هشام بن محمد

ولم يكن في صحبتها جيش ؛ ولذلك ظلت السيطرة على المدينة في يد اليمنية ، وهكذا كان الموقف في أشبيلية سنة ٨٩١ م (٢٧٨ هـ) وهي السنة الرابعة من حكم الأمير عبد الله ، وفي هذا التاريخ كانت معظم اسبانيا الاسلامية قد نبذت الولاء للأمير عبد الله ، واستحوذ كل من العرب والبربر وسلالة الأسبانيين على التركة الأموية ، وكان العرب أقلهم نصيبا ، ولم تكن لهم سيطرة إلا في أشبيلية ، أما في غيرها فكانوا يجدون صعوبة في الاحتفاظ بسلطانهم ، وكثير منهم مثل ابن عطف صاحب منتيشة ، وابن السليم صاحب مدينة ابن السليم في كورة شنونة وابن وضاح صاحب لورقة والانقر صاحب سرقسطة كانوا ينفذون أوامر الأمير عبد الله حينما يروقههم ذلك ، ولم يقطعوا صلتهم بقرطبة لأنهم لم يكونوا واثقين من رسوخ أقدامهم في تلك الولايات المعرضة للهجوم من شتى النواحي .

وكان البربر قد ارتدوا الى الحكم القبلي وقبول زعامة رئيس القبيلة ، وكانوا أقوىاء المراس وأقل من غيرهم ميلا الى الطاعة وسلاسة القياد ، وقد استولى الملاحى - وهو عمر بن مضم البنزوتى على حصن جيان وكان جنديا متدربا واستولى الأخوان خليل وسعيد على قلعتين في كورة البيرة ، وهما من أسرة قديمة ، وكانت مقاطعة استراما دورا والنتيجة جميعهما على وجه التقريب في يد البربر ، وكان ابن تاكيت البربرى من قبيلة مصمودة قد استولى على مريدة ، وقد طرد العرب وبربر قبيلة كتامة منها ، وكانت لا تهدأ الحرب بينه وبين ابن مروان الجليقى صاحب بطليوس فانه لم ينس له مساعدته للأمير محمد حينما حاصر مريدة ، ولكن أقوى قبائل البربر جميعا كانت قبيلة بنى ذى النون ، وكان زعيمها موسى من الشخصيات البغيضة المأكرة ، وكان أولاده الثلاثة يشبهونه

فى قوة البنية وشدة المراس والميل الى العدوان وهم : الفتح
صاحب أقليش ومطرف صاحب وبذة ويحيى وهو أشدهم
ضرواة وأشدهم فتكا ، وكانوا يقودون عصابات اللصوص
ولا ينفكون عن السطو والنهب والقتل ، وفى مقاطعة أكشونية
فى الجنوب الغربى كان يسيطر بكر ، وقد استقل أبوه يحيى
فى أواخر حكم الأمير محمد واستولى فى أول أمره على حصن
شنت مارية واستطاع بذلك السيطرة على المنطقة ، وبكر نفسه
كان يقيم فى مدينة شلب ، وله جيش منظم ومجلس
استشارى وكان يحكم رعيته فى رفق ولين ، وزاد مركزه قوة
بتحالفه مع ابن حفصون وابن مروان الجليقى صاحب بطليوس
وغيرهما من المولدين ، وكان جاره وحليفه فى الشمال عبد الملك
ابن أبى الجماعة الذى اقتعد مدينة باجة ، وتحصن بحصن
مارتلة ، وأبعد من ذلك فى الناحية الشرقية فى جبال كان
يسيطر عليها ابن مستنة وكان أكثر حلفاء ابن حفصون نشاطا
وكانت قلعته المسماة قرقبولة تعد من أشد القلاع مناعة ،
وكان جميع سادة كورة جيان حلفاء لابن حفصون أو من
أتباعه ، وهم خير بن شاكر صاحب حصن شوذر ، وسعيد
ابن هذيل الذى امتلك حصن المنتلون وبنى قصبته وحصنها
وأعلن بالخلاف ، وبنو هابل وهم أربعة أخوة خلعوا طاعة الأمير
عبد الله واستولوا على بعض الحصون وأطلقوا الغارات ، منها
حصن شان انتبن وابن الشالية وكان يملك عدة حصون منها
قلعة ابن عمر وقلعة قزلونة وكان واسع الثراء يمنح الشعراء
فى سخاء وملك ناحية جبل شمنتان وما يليها فى كورة جيان ،
وامتد الى حصن قسطلونة وغيره وقد بنى المباني الفخمة
واسمه لب بن عبد الله بن أمية ، وقد زوج ابنته لجعفر بن
عمر بن حفصون فاعتز جانبه ، وكان الشاعر عبيدیس بن
محمود كاتبه ومتصرفا فى خدمته مكثرا من مديحه واصفا

لمغازيه ومبائيه ، وكان يجزل عطيته ، ومن شعر عبيديس في وصف قصره :

قصر الأمير أبي مروان منتسج
من جنة الخلد بالسراء معمور
فيه مجالس قد شيدت على عمد
بنيانها مرمر بالتير مطرور

ومن الثائرين في هذه الفترة ديسم بن اسحاق الذي بسط سلطانه على مرسية ولورقة ومعظم كورة تدمير وكان له جيش وكان كريما محبوبا من رعيته .

وقد ظل ابن حفصون أقوى خصوم الأمير عبد الله ، وقد ازدادت سيطرته واتسع نفوذه وقويت سطوته في عهد الأمير عبد الله وقد حاول الأمير مهاجمة ببشتر في ربيع سنة ٨٨٩م (٢٧٦هـ) وفي طريقه اليها استولى على بعض الدساكرة ، وأتلف بعض الحقول ولم يكد يرجع بجيشه الى قرطبة حتى كان ابن حفصون قد استولى على اسطبة وأوشونة ، وسارع أهل استجة الى الاعتراف بسلطته ، وسألوه أن يحتل المدينة بجيشه ، وراع هذا النجاح السريع الأمير عبد الله فحشد ما استطاع حشده من الجيوش وعاد الى مهاجمة ابن حفصون ، ورأى ابن حفصون الاكتفاء بما في سيطرته وقبل أن يعقد صلحا مع الأمير عبد الله مشترطا أن يظل مستوليا على ما في حوزته من المدن والقلاع ، وقبل الأمير عبد الله هذا الشرط ، ولم يعبأ ابن حفصون بالصلح المعقود بينه وبين الأمير واستولى على بيانة وصارت القلاع والحصون الواقعة جنوب نهر الوادي الكبير جميعها في حوزته ، ووثق من أن قرطبة ستسقط في يده بعد قليل من الزمن ، ورأى أن عرب الأندلس لا يأنفون من قبول ولايته اذا حصل من خليفة بغداد على ذلك ، وأن هذه

الموافقة على مكانته ، وتوطد نفوذه ، ولما استقر عزمه على ذلك كتب الى ابن الأغلب حاكم أفريقية من قبل الخليفة العباسي وبعث بهدية مع الرسالة ، ورحب ابن الأغلب بهذا التقرب ، وأرسل هدية لابن حفصون ، وشجع اتجاهه ، ووعد بأنه سيعمل على تحقيق رغبته عند الخليفة العباسي ، وفي انتظاره للوقت الذي يستطيع فيه أن يرفع العلم العباسي اقتراب من قرطبة ، واتخذ له معسكرا في استجة ، وعم الخوف أهل قرطبة واقتربت الغارات من أحواز المدينة ، وتوالت النكبات على أهلها ، وكثر التفر من حوادث السرقة والنهب وسبي النساء والأطفال ، وظهر عجز الأمير عبد الله ، وخلت خزينة الدولة من المال الذي يكفي لدفع مرتبات الجند فاشتدت نعمتهم واضطر الأمير الى الاقتراض ، ولكن المبالغ القليلة من المال الذي اقترضه كانت تدفع لبعض العرب الذين ظلوا على ولائهم له في الأقاليم ، وكسدت التجارة ، وساءت الحالة الاقتصادية وصارت الناس تنظر الى المستقبل نظرة تشاؤمية وغلب على نفوسهم الهم والأسى ، وكان أشدهم هما الأمير عبد الله نفسه ، فالعرش الذي وصل اليه على جثة أخيه قد أصبح عرضة للسقوط ، وسياسة المواربة التي اتبعها لم تجده نفعا ، وزادت المشكلات تعقيدا ، وحاول أن يستصلح الثائر ابن حفصون ولكن ابن حفصون كان متأكدا من أنه سينتصر في النهاية فلم يعبأ به ، ويثس الأمير عبد الله من التقرب منه واستدراجه الى الطاعة ، واستشعر الزهد في الحياة ، ولعله قد نظم أبياته الآتية وهو يعاني هذه الحالة النفسية :

يا من يراوغي الأجل
 حتام يلهيك الأمل
 حتام لا تخشى الردى
 وكأنه بك قد نزل

أغفلت عن طلب النجاة
ولا نجاة لمن غفل
هيهات يشغلك الرجا
ولا يدوم لك الشغل
فكان يومك لم يكن
وكان نعيمك قد نزل
ويبدو أن هذه الحالة النفسية قد ألحت عليه فرفه عن
نفسه بهذه المقطوعة :

أرى الدنيا تصير الى فناء
وما فيها لشيء من بقاء
فيبادر بالانابة غير وان
على شيء يصير الى فناء
كأنك قد حملت على سرير
وصار جديد حسنك للبلاء
فنافس في التقى واجنح اليه
لعلك ترضين رب السماء
ونفسك فابكها أو نح عليها
فربتما رحمت على البكاء

ولكنه استنجد عزمه وبذل جهدا في التغلب على هذه
الحالة النفسية ، واتفق في ذلك الوقت أن ابن حفصون أرسل
اليه برأس خير بن شاكر صاحب حصن شوذر الذي سبق
أن ثار عليه ، وظاهر ابن حفصون ، ورأى في ذلك دليلا
على أن ابن حفصون قد بدا له مسالته والتقرب منه ، ولكن
ابن حفصون سرعان ما خيب ظنه بمحاصرته لحصون كورة
قبرة التي كانت لا تزال خاضعة للأمير عبد الله ، ولم يعد هناك
بد بعد ذلك من أن يخوض معركة حياة أو موت مع هذا الثائر

العنيد؛ فأخبر وزراءه أنه قد عقد العزم على مهاجمة ابن حفصون فخوفه وزراءه عاقبة الاقدام على ذلك ، وذكروا له أن جيشه أقل عددا من جيش ابن حفصون ، وأنه سيتأوم عدوا قوى الشكيمة ، ولكنه أصر على رأيه ، وكأنه صمم على أن يموت ميتة كريمة .

ورحب ابن حفصون باقدام الأمير عبد الله على منازلته ، وسمع وهو في استجة أن الأمير عبد الله قد أخرج السراشق الى فحش الريض بشقندة ، فلما اشتدت أطنابه ، ومدت حباله بعث ابن حفصون خيلا الى شقندة لتأخذ السراشق، وتهاجم البلد ، وتحيط بأطرافه ، وبرغم أن حراس السراشق كانوا قلة فانهم أجادوا الدفاع ، وردوا الغارة ، ولما رأى ابن حفصون أن خطته لم تنجح لاذ بحصن بلى بقبرة ، وكان لهذه الواقعة الصغيرة تأثير حسن في استعادة أهل قرطبة الثقة بأنفسهم ، وبرغم أن جيش ابن حفصون كان أكثر عددا وأقدر على ممارسة الحرب وأحسن تدريباً فقد استطاع الأمير عبد الله أن ينتصر عليه ويفرق جمعه ويسترد الكثير من القلاع الثائرة ولذا ابن حفصون بحصنه المنيع في ببشتر وحاصره جيش الأمير عبد الله على غير جدوى ، لمناعة الحصن واكتفى الأمير عبد الله بما أحرز من انتصار وعاد بجيشه الى قرطبة ، ونظم ابن عبد ربه صاحب « العقد » قصيدة يذكر فيها انتصار الأمير عبد الله وهزيمة ابن حفصون منها قوله :

رام ابن حفصون النجاة فلم يسر

والسيف يطلبه فليس بناج

ما زال يلقح كل حرب حائل

فالآن أنتجها بشر نتاج

ولم تقض هنم الهزيمة على ابن حفصون ، فقد عاد بعدها

الى بغية وافساده وتحديه لسلطة الأمير عبد الله وانتصار الأمير عبد الله في معركة بلي مكنه من استرداد استجة وأرشدونة وجيان والبيرة ، وذاعت أخباره في أنحاء العالم الأندلسي والعالم العربي وبعد أن كان ابن الأغلب يرحب بوفود ابن حفصون صار يتلقاها في فتور لأنه لم ير فائدة من تزكية الثائر الذي هزم، ويثس ابن حفصون من الحصول من خليفة بغداد على اقرار ولايته على الأندلس ، ولكن هذه الهزيمة لم تنل من قوته كل النيل ورأى من الحزم أن يسعى في طلب الصلح ، وقبل ذلك الأمير عبد الله ولكنه اشترط أن يكون أحد أبناء ابن حفصون رهينة عنده ، وقبل ابن حفصون هذا الشرط ، ولما كان ينوى العودة الى الحرب فانه أرسل الى الأمير ابن أحد رجاله ، وكان قد تبناه على أنه من أبنائه ، وحينما عرف الأمير عبد الله ذلك فسد ما بينه وبين ابن حفصون ، واضطربت الحرب بينهما ، واسترد ابن حفصون القلاع التي فقدوها واستعاد سيطرته على أرشدونة في سنة ٨٩٢م (٢٨٠هجرية) وبعد ذلك استرد البيرة وجيان ولكن السكان لم يلبثوا أن عادوا الى ولائهم لحكومة قرطبة ، ولم ير الأمير فائدة في محاولة التغلب على ابن حفصون ، فوجه همه الى محاربة الثائرين الآخرين الأقل منه قوة ، ولم يكن يقصد القضاء عليهم فقد كان يكفيه منهم الاعتراف بسلطته ودفع الجزية للخزينة ، وقد أفاده ذلك من الناحية المالية ، أما في اشبيلية فقد ظل بها عمه هشام والياصوريا واقتسم السلطة فيها بنو حجاج وبنو خلدون ، وكان اقتسام السلطة بينهما مدة لوقوع الخلاف والتنافس ، وحاول الأمير عبد الله توسيع شقة هذا الخلاف والايقاع بين ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون ، وقد أسفر هذا الخلاف عن قتل كريب وخالد ابني خلدون ، وأصبح ابراهيم بن حجاج منفردا بالسلطة في اشبيلية ، وسعى ابراهيم في التقرب من الأمير عبد الله ، ولكن

الأمير عبد الله أرسل حاكما لأشبيلية من قبله ليحكم المدينة مع ابراهيم بن حجاج ، ولكن ابراهيم كان يريد الانفراد بالسلطة فضاق ذرعا بوجود الحاكم الذي أرسل لمشاركته في الحكم فأخبره بعد مضي أشهر أن المدينة ليست في حاجة اليه ، وأرسل الى الأمير يطلب إعادة ابنه اليه ، وكان رهينة عند الأمير عبد الله ، ولكنه رفض اجابة هذا الطلب ، وأراد ابراهيم أن يخيف الأمير عبد الله فرفض دفع الجزية ونبتذ الطاعة ، وظاهر ابن حفصون ، وكان ابن حفصون حينذاك قد ارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية ، وفقد بذلك أنصاره من المسلمين ، ولذلك رحب بتقرب ابراهيم بن حجاج منه ، وكان يلتبس الحلفاء من شتى الأنحاء ، فاتصل ببني قسي وملك ليون ، وساء موقف الأمير عبد الله وشرع في اجراء مفاوضات مع ابن حفصون وعقد معه صلحا لم تطل مدته ، وتجددت الحرب بينهما في سنة ٩٠٢ م (٢٩٠ هجرية) وأشار بدر القائد الصقلي على الأمير عبد الله باطلاق سراح عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج وأيده في ذلك سائر الوزراء واستجاب الأمير عبد الله لنصيحتهم ، وسر بذلك ابراهيم بن حجاج ولم يقطع صلته بابن حفصون ، ولكنه توقف عن مساعدته وامداده بالجند ، وقبل الخضوع للأمير عبد الله ولكنه ظل محتفظا بالسيطرة على اشبيلية ، وكان له بها جيش خاص وحرس من الفرسان ، وصار يرسل للأمير الجزية السنوية ، وكان ابراهيم بن حجاج جوادا ممدحا يرتاح للثناء ويغلق على الشعراء وقصده ابن عبد ربه فأفضل عليه ومدحه ابن عبد ربه بأماديح مشهورة ومن قوله فيه يصف تنقله بين اشبيلية وقرمونة قوله :

الا أن ابراهيم لجة ساحل
من الجود أرسى فوقه لجة ساحل

فاشبيلية الزهراء تزهو بوجهه
وقرمونة الغراء ذات الفضائل
إذا ما تخلت تلك من نور وجهه
غدت هذه للناس في زى عاطل
وان حل هنى فهو يوحش هذه
فتهدى برسل نحوه ورسائل

وله فيه أشعار كثيرة ، وعظم شأن ابراهيم وتوطدت
مكانته ويقول عنه ابن عذارى (١) « لم يلحقه في ذلك
أحد في وقته ولا قدر على نيل مرتبته ، الى أن وافته منيته
فجأة » وكان ذلك في سنة ٢٨٨ هجرية (٩٠٠ ميلادية) وولى
بعده ابنه عبد الرحمن اشبيلية كما ولى ابنه محمد قرمونة (٢)
وكانت له بها دولة حسنة وأيام صالحة ، كما يقول ابن عذارى
وكان لتحسن العلاقات بين الأمير عبد الله و ابراهيم بن حجاج
أثر طيب في استعادة سيطرة الأمير عبد الله على الأندلس
فقد كانت اشبيلية على الدوام مصدراً للثورات في الناحية
الغربية ، وحينما اعترفت بولائها للأمير عبد الله دانت له
بالطاعة الجزيرة الخضراء ولبلبة واستطاع بذلك أن يوجه
جهوده الى إعادة سلطته في الجنوب ، وقد أفاد الأمير عبد الله
في ذلك من نصائح بدر قائده وحسن سياسته ، وفي سنة
٩٠٣ م (٢٩١ هـ) استرد جيشه جيان وفي سنة ٩٠٥ م
(٢٩٢ هـ) انتصر جيشه على ابن حفصون في معركة وادي
بلون في كورة جيان ، وفي السنة التالية استولى جيشه على
حصن قنيط من تاكرنا واستنزل من فيه من بني الخليع ،
وفي سنة ٩٠٧ م (٢٩٥ هـ) أرغم أرشبنونة على دفع الجزية
السنوية وفي سنة ٩٠٩ م (٢٩٧ هـ) أرغم ابن مستنة على

(١) ، (٢) ابن عذارى ! الجزء الثاني من البيان المغرب صفحة

التنازل عن حصن لك وفي سنة ٩١٠ م (٢٩٨ هجرية) استولى على بياسة ، وفي السنة التالية ثار أهل حصن أشر على فضل ابن سلمة ختن سعيد بن مستنة وقتلوه وأرسلوا رأسه الى الأمير عبد الله ، وفي الشمال كان هناك تحسن واضح ، فقد حدث في سنة ٨٩٨ م (٢٨٥ هـ) أن وعد محمد بن لب - من أسرة بني قسي - بزيارة جيان لاجراء مفاوضة مع ابن حفصون ، وأخاف الاتفاق بين مولدي الشمال الاقوياء ومولدي الجنوب الخارجين على السلطان أمير قرطبة ، وحدثت حرب بين الأنقر حاكم سرقسطة وبين محمد بن لب حالت دون انتقاله الى جيان ، وأرسل ابنه بدلا منه ، ولما وصل ابنه لب الى جيان وانتظر حضور ابن حفصون تلقى خبر وفاة والده الذي قتل وهو يحاصر سرقسطة ، فبادر بالعودة دون أن يلقي ابن حفصون ، ولم يسمع بعد ذلك شيء عن الاتفاق بين ابن حفصون وبني قسي ، وعمل لوب على التقرب من الأمير عبد الله فوافق الأمير على جعله حاكما لتطيلة وطرسونة ، وقد استعمل لب جيشه في حرب متصلة أعلنها على جيرانه مثل صاحب وشقة ، وملك ليون ، وصاحب برشلونة ، وقد قتل في معركة بينه وبين الأخير في سنة ٩٠٧ م (٢٩٥ هـ) وخلفه أخوه عبد الله ، ولم يخرج على طاعة الأمير عبد الله وإنما حارب ملك نافار ، وبذلك لم يصبح بنو قسي مصدر خطر على سيادة بني أمية ، وتقشعت غيوم كثيرة من سماء حكومة قرطبة لكنها مع ذلك لم تكن صافية جلواء ، وحينما قضى الأمير عبد الله نحبه في سنة ٩١٢ م (٣٠٠ هـ) كانت سلطة أمير قرطبة متقلصة في بعض المدن الهامة وأقرب الى أن تكون اسمية وصورية في سائر أنحاء الأندلس ، وكان على الشاب الذي خلفه في الولاية وهو عبد الرحمن الناصر أن يجاهد جهادا طويلا شاقا ، ويخوض معارك طاحنة ، ويريق دماء كثيرة

لاسترداد السلطة الحقيقية لامارة قرطبة ، ويوطد أركانها ،
ويقضى على التأثيرين والمنافسين والمتمردين من اللصوص وقطاع
الطرق ، ولذلك عاش نصف القرن - وهو مدة ولايته - وسيفه
دون ملكه مسلول ، وكانت حياته أقرب شيها بحياة أبطال
الباذة هوميروس منها بحياة الملوك والأمراء الوادعين المرفهين
المنغمسين في المتع الدنيوية والملذات الحسية .

سياسة عبد الرحمن في استرداد سيطرة الدولة الأموية بالأندلس

حينما تقلد عبد الرحمن إمارة الدولة الأموية في الأندلس شرع في اتباع سياسة مبتكرة مخالفة لسياسة جده ، فقد كانت سياسة الأمير عبد الله تعتمد على المواربة والمداواة ، ويشوبها التردد والالتواء ، أما عبد الرحمن فقد اتخذ من باديء أمره سياسة واضحة صريحة ليس فيها تردد ولا تراجع ، قوامها التفكير والاعتزام والتنفيذ . وعالن المستأثرين بالسلطة في الولايات ، والمعتصمين في القلاع والحصون ، والخارجين على النظام وطاعة القانون ، أنه لا يقنع بدفع الجزية ، ولا يقبل نزاعا على السلطة ، ولا يصبر لخروج على القانون ، وتمرد على الطاعة ، وعيى بالأمن والنظام ، وأن الذين يردون إليه السلطة في الكور والأقاليم والمدن ، ويسلمون له القلاع والحصون ، ويمسكون عن الخروج على النظام والتمرد على الأوضاع القائمة سيظفرون بالعفو والرعاية ، أما الذين يستمرون في عصيانهم وينضمون للطاعة فانهم سيجدون مقاومة لا تهمد ، ويصلون حربا مدمرة ، وقد يبدو لأول وهلة أن الكشف عن مثل هذا الاعتزام ربما كان سياسة أملت عليها رغبة الشباب واندفاعه ، والرغبة العارمة في تأكيد شخصيته

وفرض ارادته ، وانها ربما كانت مدعاة لاغراء خصومه وأعدائه
بحشد جموعهم ، وتوحيد جبهتهم ، في مقاومته ، ولكن أمرا من
ذلك لم يحدث فالواقع أن سياسة عبد الرحمن كانت سياسة
موفقة ، وثمره فهم دقيق مستوعب لطبيعة الموقف الذي واجهه
والطب لعلاج أدوائه ، وتفريغ أزماته ، بل كانت السياسة
التي تتطلبها روح العصر واتجاهاته ، فقد كان الزعماء الجبابرة
البارزون من أمثال سعيد بن جودي وكريب بن خللون وإبراهيم
ابن حجاج وأضرابهم قد طواهم الموت ، وغيبهم القبر ، ولم يبق
بعدهم من يسد مسدهم ، وكان زعماء المولدين من أمثال
ابن حفصون وابن مستنة وغيرهما قد علت أسنانهم ، ونالت من
قوتهم ومضاء عزمهم الشيخوخة ، وفترت الحماسة للثورة ،
وأعقب جيل الثورة والعصيان جيل جديد لم يعرف سطوة التوالي
ولا عسفه ، ولم يجرب تحكمه واستبداده ، وإنما عانى في مرارة
عهد الثورة وما سببته من الحروب التي أفنت الحرث والنسل ،
وأتلقت الحالة الاقتصادية ، وروعت النفوس وحالت بينها وبين
الشعور بالأمن والطمأنينة ، وكان الشعب قد مل الفوضى
والاضطراب ، وضاق ذرعا بمثيرى الشغب واللصوص وقطاع
الطرق ، ولم يسفر أحياء النزعة القومية عن طرد العرب المغيرين
والبربر ، وإنما وسع شقة الخلاف بين المسيحيين والمسلمين
وكان سكان المدن بوجه خاص يتطلعون الى عهد يصفو فيه الجو
وتنقشع الغيوم ، ويستطيعون فيه مباشرة أعمالهم ، دون أن
يمسهم سوء ، أو ينال أسراتهم مكروه ، وكان في سلوك
الأمير عبد الرحمن ومواقفه وكلماته وملامح وجهه وسماته ما يدفع
الى الثقة به ، ويغري بتصديق وعوده ، والعطف على آرائه
وترجيحها .

وكان ابن حفصون كبير التأثيرين والذي أتعب الأمراء
السابقين قد نبذ الاسلام وعاد الى مسيحية أجداده ، وبذلك

فقدت ثورته ناحية هامة من طابعها القومى ، وفارقه كثير من المولدين ، وهم الذين اعتنقوا الاسلام من سلالة الاسبانيين ، وانفضوا من تحت رايته والاسبانيون سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين معروفون بشدة تمسكهم بالعقيدة التى يدينون بها .

ولم تمض أسابيع قليلة على توليه الامارة حتى بعث حملته الأولى الى المناطق الثائرة بقيادة حاجبه بدر ، فاستخلصت استجة فى ٣١ ديسمبر سنة ٩١٢ م (٣٠٠هـ) ودخلها الحاجب بدر والوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وكان أول موضع افتتح فى عهده ، وضبطت المدينة وهدم سورها ، وبقي أحمد بن محمد الوزير بها ، ومسكنا لأهلها ، وولى عمالتها حمدون بن بسيل .

فى شهر شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٢ م) خرج عبد الرحمن للغزو ، وكانت قد مضت سنوات لم ير الجند فى أثنائها أميرا يتصدى للقيادة ، فلما برز أمامهم الأمير عبد الرحمن كان لظهوره أثر محمود فى إثارة الحماسة وجلب الثقة ، واتجه عبد الرحمن بالجيش الى كورة جيان فى جنوب غربى الأندلس حيث كانت الثورة مشبوبة باللهيب وحيث كان نفوذ الثائر العنيد ابن حفصون سائدا ، وحيث كانت المدن والحصون فيما بين رندة ومالقه خاضعة لسيطرته ، وأرسل عبد الرحمن بعض قواته لانقاذ مدينة رية التى كان يهددها ابن حفصون ، وكان قد بلغ عبد الرحمن أنه قد طمع فى الاستيلاء عليها ، فاستولت عليها وأمنتها ، وقصد عبد الرحمن الى الحصون والقواعد الثائرة فاحتل حصن المنتلون وحارب فيه سعيد بن هذيل حتى افتتحه وأنزل سعيد من الحصن وأمنه وولى الحصن من رجاله محمد بن عبد الوهاب وتقدم الى حصن شمنتان فاستأنه عبيد الله بن أمية المعروف

بابن الشالية واسحق بن ابراهيم صاحب حصن منتيشسة وعكاشة بن محصن صاحب وادي بني عبد الله وسلمة بن عرام صاحب بجيلة ، ومنذر بن حزم صاحب بختوبرة ، وأفلح بن عروس صاحب بكور ، وفحلون بن عبد الله صاحب سسانة ، وكلهم نزلوا عن معقلهم اليه ، وأذعنوا له بالطاعة فعفا عنهم وأخلى منهم تلك المعقل والقلاع ، وقدم أولادهم ونساءهم الى قرطبة ، واستعمل في الحصون ثقات رجاله ، واستنزل عبد العزيز بن عبد الأعلى من حصن الشارة ، ودحون بن هشام .

ثم انتقل الى كورة البيرة ، فلما احتلها تداعى أهل حصون تاجلة وبسطة ومريبط والبراجلة والاسناد الى النزول والطاعة ، وأخلوا حصونهم ، فأحكم الناصر أمر ذلك الجانب كله ، وضبط المعقل برجاله ، ثم انتقل الى حصن وادي آش فأخلى أكثرها رهبة منه ، ثم نزل على حصن فنيابة بقرب وادي آش ، وكان فيه شيعة ابن حفصون ، فامتنعوا من النزول ورجوا الاعتصام بوعورة الحصن ، فأحاطت العساكر بهم ، وأضرمت أرباضهم نارا ، فضرعوا في قبول الانابة على أن يسلموا من كان عندهم من شيعة ابن حفصون ، فأجيبوا الى ذلك ، وقبض على أصحاب ابن حفصون وشد وثاقهم .

وتوغل عبد الرحمن بعد ذلك في شعب جبل الثلج (سيارانقادا) وهو وعر يلقي السائر فيه مشقة وعناء ، فجازه مع جيشه وافتتح ما هنالك من المعقل والحصون التي تدين بالطاعة لابن حفصون ، واتصل به أن ابن حفصون أقبل في جماعة من أصحابه الى حاضرة البيرة طامعا في انتهاز الفرصة فأخرج الناصر قائده عباس بن عبد العزيز نحوه ، فلما قرب من مدينة غرناطة أقبل ابن حفصون لما كان رجاء وطمع فيه ، فخرج

أهل البيرة واثقين بالمدد الذي وردهم والقائد الذي جاء للدفاع عنهم ، وقتلوا جماعة من رجال ابن حفصون وأسروا عمر بن أيوب حفيده ، وجرح أحد أولاده جراحا أثخنه .

وتقصى الناصر ما كان بقي من معاقل تلك الجهة حتى احتل حصن شبيلش ، وكان من أعظم حصون ابن حفصون منعة وأصعبها مراسا وأوعرها مكانا ، وكان قد لجأ إليه الذين فروا من الحصون المتقدمة ، قد حاصرهم عبد الرحمن حتى نادوا بالطاعة ، وضرعوا في قبول الانابة ، وأسلموا أصحاب ابن حفصون الذين كانوا عندهم فأمر بضرب أعناقهم .

تم أم مدينة شلوبينية ، وفعل فيها مثل ما فعل في المدن التي تقدم ذكرها ، وضبط برجاله كل حصن افتتحه ، وانحسم الداء في كورة البيرة ، وتألقت الكلمة ، واستقامت الطاعة .

وصدر قافلا عن طريق حصن شنت اشتيبن وحصن ابنة فراطة ، وكانا قد أضرا بأهل غرناطة ، وحاضرة البيرة ، وهما في غاية الحصانة والمنعة ، فنزلت الجيوش عليهما وأحدثت بهما ، وحوربا أشد محاربة وأنكاهما ، وبعد الاستيلاء عليهما شحنهما برجاله ، وقفل راجعا الى قرطبة بعد أن استوفى اصلاح أمور كورة جيان والبيرة وماوالاهما ، وقضى في هذه الغزوة اثنين وتسعين يوما . وهكذا كانت هذه الأشهر الثلاثة كافية لاعادة السلام والهدوء والاستقرار الى كورتي البيرة وجيان ، وتطهيرهما من اللصوص وقطاع الطرق العابثين بالأمن والمتحدين لسلطة الدولة .

واجتذبت اشبيلية بعد ذلك اهتمامه ، وكان عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج قد خلف أباه ابراهيم بعد وفاته في اشبيلية واستولى أخوه محمد على قرمونة ، ومات عبد الرحمن

فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) فاجتمع أهل اشبيلية على تقديم ابن عمه أحمد بن مسلمة وكان من الشجعان المقادير ، وكان محمد قد تطلع الى الاستيلاء على الحكم فى اشبيلية ، ولكنه أخفق فى ذلك فقد أظهر ميلا الى الاستبداد والتحكم وأهل قرطبة كانوا يريدون أن يكونوا أحرارا ، وفضلا على ذلك فانه كان قد اتهم بدس السم لأخيه عبد الرحمن ، وعز عليه أن تفلت من يده حيازة اشبيلية وفى الوقت نفسه لم يكن عبد الرحمن راضيا عن حكم أحمد بن مسلمة لمدينة اشبيلية ؛ لأنه لا يتفق مع أهدافه وخطته ، فأخرج إليها جيشا يقوده الوزير أحمد ابن محمد ابن حدير فحاصرها حصارا شديدا ، ووجد أحمد ابن مسلمة أنه مضطر الى التماس نصير يعاونه فى مقاومة جيش الأمير عبد الرحمن ، وتقرب من ابن حفصون لانقاذ الموقف ، وحضر ابن حفصون ولكن الحظ كان قد تخلى عنه ، فقد حاول مهاجمة جيش الأمير عبد الرحمن الذى أقام معسكره على الشاطئ الأيمن من نهر الوادى الكبير ولكنه منى بهزيمة شديدة اضطر بها الى العودة الى بيشتر تاركا الاشبيليين ليدبروا أمورهم بأنفسهم ، وأدرك ابن مسلمة ومن معه من أعيان المدينة أنه لا فائدة من الاستمرار فى المقاومة وبدأوا مفاوضات مع القائد بدر الذى جاء لانهاء الحصار ، وحصلوا منه على وعد بأن الأحوال فى المدينة ستظل كما كانت فى عهد بنى حجاج ، وفتحوا له أبواب المدينة ، وكان محمد ابن ابراهيم بن حجاج يحرص على أن يفيد من سقوط اشبيلية ويحل فيها مكان أخيه ، وساءه أنه لم يدع الى المدينة فسار الى قرمونة متزما ناقما ، وفى طريقه اليها استولى على قطيع من الغنم لأحد رجال قرطبة ، واعتصم بقلعته معتزما أن يتحدى سلطة الأمير ، وتناول عبد الرحمن الأمر فى هدوء ورفق ، وأرسل اليه أحد رجاله ليبين له فى لين

مقترن بالحزم أن زمن استيلاء الأعيان والزعماء على ما يملك الناس قد ولى ، وأن عليه أن يرد القطيع الى صاحبه ، فأعاد القطيع لصاحبه ، ولكنه لم يستطع أن يدرك بصورة واضحة أن الزمن قد تغير وكان قد علم أن جيش عبد الرحمن قد هدم أسوار مدينة اشبيلية ، فزين له وهمه أنه يستطيع أن يهاجم المدينة بغير انذار ويستولى عليها ، ولكن هذه الخطة الرعناء لم تنجح ، ورأى عبد الرحمن أن يوفد اليه رسولا يحذره عاقبة الاسترسال فى الخلاف ويبين له أن أفكاره غير متمشية مع روح العصر ، وأختار عبد الرحمن لهذه المهمة قاسم بن وليد الكلبي ، وكان من أصدقاء محمد بن حجاج المقربين ونجح قاسم فى مهمته ، ووعد محمد بالخضوع الى قرطبة ولكنه اشترط أن يترك نائبه فى قرمونة ، وقبل عبد الرحمن هذا الشرط ، وجاء محمد الى قرطبة ، فرحب الأمير عبد الرحمن بلقائه وقدم له ولرجاله هدايا ثمينة ، ومنحه لقب وزير ودعاه الى مصاحبته فى غزوة جديدة كان يتأهب للقيام بها .

وكان عبد الرحمن قد عقد العزم على غزو كورة ريه والجزيرة ، وكان أول مقصده حصن طرش ، وحصر من كان فيه وأقام عليه خمسة أيام ، ثم أبقي عليه من يحاصره ، وتنقل الى حصون ريه ومعقل ابن حفصون يتتبعها معقلا معقلا ، وأوقع بابن حفصون والذين حشدتهم فى حصن طرش وقبعة عظيمة ، وألفيت لابن حفصون مراكب فى البحر كانت تميره من العدو فأحرقها جميعها ، وأسرع أهل فج وسيم وقليرة رسائر ما فى أحواز الجزيرة الى الدخول فى الطاعة ، فقبلهم الناصر وأمنهم ، وانتقل الى كورة شنونة ، ثم الى كورة مورور حتى أوفى على مدينة قرمونة فاحتلها ، وكان حبيب بن سودة نائب محمد بن حجاج بها قد أظهر الخلاف بعد ذهاب محمد

الى قرطبة فنازلته جيوش عبد الرحمن وحاصره عشرين يوما واضطره الى التسليم فأمّنه ، وسأله أن يمهله لانتقال أهله وثقله الى قرطبة فلم يرهقه من أمره عسرا ، وقفل الى قرطبة واستتم في غزواته اثنتين وثمانين يوما ، وكان عبد الرحمن قد علم أن محمد بن حجاج هو الذي أغرى حبيب بن مسروادة بالثورة في قرمونة فأمر بالقائه في السجن ، وجرده من الوزارة ، ولما منح حبيبا الأمان أمر بإخراج محمد بن حجاج من السجن ، ولكنه لم يستمتع بحريته طويلا فقد قضى نحبه في سنة ٩١٥ (٣٠٣) وكان آخر من ظهر على مسرح التاريخ من بني حجاج .

وفي أواخر سنة ٣٠٢ (٩١٥ م) أصاب الأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وشملت المحنة القواعد والثغور وبلغت الحاجة بالناس مبلغا لا عهد لهم بمثله ، ووقع الوباء وكثرت الموتى في الفقراء حتى كاد يعجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر على المساكين وصدقات الميسورين من رجاله ، وكان الحاجب بدر أكثرهم صدقة وأعظمهم بماله مواساة ، ولم تمكن هذه الأحوال القاسية الناصر من القيام بالغزو ، ولكنه أخذ بالجد والحزم في ضبط أطرافه ، ودفع عادية الأشقياء والمتمردين ؛ اذ كانوا مع استيلاء الجوع وشدة الحاجة يهاجمون من اقرب منهم .

ولما خفت وطأة هذه المجاعة استأنف عبد الرحمن جهاده فسير قواته الى كورة تدمير والى مدينة لبلة في سنة ٣٠٤ هـ ووطد سلطته في تلك الأنحاء بحيث استطاع بعد ذلك أن يوجه غزواته الى الشمال لمهاجمة الدول المسيحية وأراحه الموت في سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧) من أقوى أعدائه مراسا ، وأشدّهم طغيانا ، وهو عمر بن حفصون ، ويقول

عنه الأستاذ عبد الله عنان بحق « (١) كان ابن حفصون في الوقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التي تدين بالولاء لحكومة قرطبة، وفي مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى اليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الأسبان الذين أسلموا منذ الفتح وعدوا جزءا من الأمة الأندلسية ، ويقول عنه دوزي : « لم يكن من حظه أن يحرر بلاده ، أو أن يوجد أسرة ولكنه سيظل ماثلا في صورة البطل الحق الذي لم تخرج أسبانيا مثله منذ أيام قيريازاس - الراعى - الذي أقسم بأن يخلص بلاده من نير الرومان ، وكان قيريازاس هذا قد تحول من راع الى لص وقاطع طريق ، وأخيرا صار قائد جيش ظل يقاوم الرومان مقاومة عنيفة من سنة ١٤٧ الى سنة ١٣٩ قبل الميلاد ، وقد فقد ابن حفصون قبل موته الكثير من أنصاره ، وضعف شأنه وصار لا يطلب أكثر من السلامة والأمن ، وكان يخلو بنفسه بكنيسة في بيشتر وعانى كثيرا من مرض اليمفزيما أو غدد خلايا الرئتين ، ودفن حسب تقاليد أجداده ممدودا على ظهره وذراعا في صورة صليب على صدره ، ووجهه موجه نحو الشرق ، وانتشر خبر موته في كل أنحاء أسبانيا .

ويقول ابن عذارى عن موته (٢) « وفي هذه السنة هلك عمر بن حفصون عميد الكافرين ورأس المنافقين ، وموقد شعل الفتنة وملجأ أهل الخلاف والمعصية ، فقد هلكه من أسباب الاقبال وتباشير الصبح وانقطاع علق المكروه » .

وقد ترك ابن حفصون أربعة أولاد ، تولوا مكانه رئاسة القواعد الغربية ولا سيما بيشتر حيث قام ولده جعفر

(١) تراجم اسلامية شرقية واندلسية صفحة ١٤٥ .

(٢) من البيان المغرب الجزء الثاني صفحة ٢٥٦ .

وأولاده الآخرون هم سليمان وعبد الرحمن وحفص وقد
ورث جعفر وسليمان وحفص شجاعة أبيهم ولكنهم لم يرثوا
مواهبه ، أما عبد الرحمن فلم يكن ميالا الى الحرب والتمرد
وانما كان صاحب كتب وقد صار وراقا في قرطبة بعد
سقوط أسرته وذهاب سطوتها ونفوذها .

وفي سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) غزا الناصر بنفسه
مدينة بلدة من كورة رية ، وترك فريقا من رجاله في أرضها
وارتحل الى حصن دوس امانتش فنازله وحاربه حتى
افتتحه ، وعاد الى حصن بلدة وحاصرها ، وتداعى من كان
بها من المسلمين الى النزوع بأنفسهم وذرائعهم ، وذكروا له أنهم
كانوا مغلوبين على أمرهم ، فأمنهم الناصر ، وقاتل المسيحيين
في المدينة حتى ظفر بهم وقتلوا جميعا ، وملك المدينة
ونذب فيها الرجال من أتباعه ، ثم انتقل الى حصون
رية ، يتقصاها معقلا معقلا ، ويفتح ما مر به من ا ، ثم نزل
على جبل ببشتر فحاصره وشدد الحصار فسأله جعفر بن
عمر بن حفصون قبض رهائنه استيثاقا من طاعته على أن
يؤدي ما فرض عليه من الجباية ، فقبل الناصر ذلك ، وقبضت
رهائن جعفر وشيعته ، وعاد الناصر من جبل ببشتر الى قرطبة
واكتفى بذلك في هذه الغزوة لاعتقاده أن جعفر بن عمر بن
حفصون لا يزال قويا وان مناعة حصن ببشتر تجعل محاولة
الاستيلاء عليه جد شاقة ، ورأى جعفر أن ارتداد والده عن
الاسلام واعتناقه هو وأسرته المسيحية لم يكونا من حسن
السياسة ، وانه بذلك خسر ولاء المسلمين الأسبانيين له وفقد
عنصرا هاما من أنصاره ، وقد صار يعتمد بعد ذلك على
معاونة المسيحيين واخلاصهم له ، وحاول جعفر أن يسترد ولاء
المولدين المسلمين بالعودة الى اعتناق الاسلام ، وأغضب بذلك
أنصاره من مسيحيي الأسبانيين وجعلهم يأثمرون به ، وعلم

بذلك أخوه سليمان ، ولكنه تجاهل ذلك وأغضى عنه، وأسفرت المؤامرة عن اغتيال جعفر ، وخلا الجو لسليمان ليقوم مقامه فى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) وكثرت الخلافات وافتقرت الناس شيئا وأحزابا فى ببشتر ، وحدثت بها ثورة وطرد منها سليمان ، ولكنه احتال بعد ذلك للعودة إليها ، ونجح فى ذلك وانتقم من الذين عملوا على إبعاده ، ولكنه لم يعمر طويلا ، فقد قتل فى مناوشة مع جند عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م) وخلفه أخوه حفص ولكن نهاية سيطرة أبناء ابن حفصون كانت قد حانت ، وفى سنة ٣١٩ هـ (٩٢٧ م) حاصر عبد الرحمن ببشتر وعزم على ألا يرفع عنها الحصار حتى تفتح أبوابها له ، وأطبق عليها من كل ناحية ، وظل حفص يجاهد مدة ستة أشهر لم يجد بعدها متحولا عن التسليم ، واحتل جيش عبد الرحمن المدينة ونقل حفص مع باقى أفراد أسرته الى قرطبة ، ولأدت أخته أرجنتيا بالدير ، وكان يمكن أن تعيش خاملة الذكر مجهولة الشأن ، ولكنها كانت شديدة التعصب ونزاعة الى الاستشهاد ، وأثارت السلطات الحكومية بتفاجرها بأنها مسيحية ، ولكنها فى نظر القانون كانت تعد مسلمة كما كان والدها حينما ولدت ، ولذلك حكم عليها بالقتل لأنها ارتدت عن الاسلام ، ولكنها واجهت الموت فى ثبات وشجاعة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) .

وبعد مضي شهرين على تسليم ببشتر حضر عبد الرحمن الى المدينة التى تحدث هجمات الأمراء طوال نصف قرن وجال فى أقطارها (سنة ٣١٦ هـ) (٩٢٨ م) وعاین من شرفها وحصانتها وعلو مرتقاها وانقطاع جبلها من جميع جهاته ما أيقن معه ألا نظير لها فى الأرض حصانة ومنعة واتساع قرارة ، فحمد الله على ما يسر له من فتحها والاستيلاء عليها ،

والتزم الصوم أيام مقامه بها ، ثم دبر بنيان قصبتهما ،
على أحسن ما دبره وأحكمه في غيرها ، وفرق رجاله على هدم
كل حصن كان حواليتها وعلى الديارات الخارجة عنها ،
ويصف لنا الحميري في « الروض المعطار » حصن ببشتر
بقوله « حصن منيع بينه وبين قرطبة ثمانون ميلا ، وهو
حصن تزل عنه الأبصار ، فكيف الأقدام ، على صخرة صماء
منقطعة لها بابان يتوصل الى أعلاهما من شعب يسلكه
الراجل الخفيف وطريقه عند الطلوع والهبوط على النهر ،
وأعلى الصخرة سهلة مربعة ذات مياه كثيرة تقطع الحجر ،
فينبعث الماء العذب وينبط الآبار بأيسر عمل وكد ، وحصن
ببشتر كان قاعدة العجم ، كثير الديارات والكنائس
والدواميس ، ولهذا الحصن قرى كثيرة ، وحصون خطيرة ،
وما حوله كثير المياه والأشجار والثمار والكروم وشجر
التين وأصناف الفواكه والزيتون (١) » .

وما لقيه عبد الرحمن وأسلافه من شر ابن حفصون وطول
تمرده على سلطتهم بعث عبد الرحمن على أن ينبش قبره وقبر
ابنه ، وشهد ذلك عامة الفقهاء الغازين معه ، واستخرجوا من
لحودهما ، ونقلت أعظمهما الى باب السدة بقرطبة ، ورفعت
على جذوع عالية لتكون عظة للناظرين .

واستنزل الناصر أهل حصن شسنت بيطر وخطرون
وغيرهما من المعقل ولم يبق لاتباع ابن حفصون من النصاري
في تلك الناحية حصن ولا معقل ، وعادت كورة رية على كثرة
ما فيها من الحصون المانة والمعقل القائمة ليس فيها ثائر

(١) من كتاب صفة جزيرة الاندلس المنتخب من كتاب الروض المعطار

للحميري صفحة ٣٧ .

ممتنع ولا عدو محذور ، ونقل الناصر من كان يرى نفسه تائقة الى الفتنة الى قرطبة ، وقدم وزيره عبد الحميد بن بسيل الى كورة شنونة لهدم حصونها ، وأمر باستنزال من كان فيها من المقاتلة ، وافتتح قائده أحمد بن اسحق القرشي مدينة لقنت من كورة تدمير ، ومدينة قليوشة ، واستنزل الثائرين من معقل بلنسية وأخرج أحمد بن الياس القائد غازيا الى كور الغرب فافتتح مدينة ماردة ومدينة شنترين بلا حرب ، ونزلوا اليه بالأمان ، فشملمهم عفو الأمير عبد الرحمن واحسانه .

وفي سنة ٣١٧ (٩٢٩ م) سار عبد الرحمن لغزو مدينة بطليوس ومحاربة ابن مروان الجليقي الذي كان مستوليا عليها ، وبعد أن حاصرها عشرين يوما أبقي عليها قائده أحمد ابن اسحق ، وانتقل الى جهة ماردة ، فأصلح الأحوال بها وولاه من رجاله محمد بن اسحق ، وعاد الى محاصرة بطليوس ، وشدّد الحصار واستبقى أحمد بن اسحق في جيش كثيف ورجال منتقين وعدة كاملة ، وأمره بالتشدد في الحصار والاستبلاغ في مضايقة المحصورين .

وانتقل الى مدينة باجة ، وأحدثت بها عساكره ، وطلب من المستولى عليها عبد الرحمن بن سعيد بن ملك التسليم ، ودعاه الى الطاعة ، ولكنه أبى ولج في العصيان ، فنصبته عليه المجانيق وحارب أشد محاربة ، وقتل من رجاله عدد كثير ، وهدمت بعض أبراج المدينة ، ولم يجد عبد الرحمن ابن ملك مفرا من الاستسلام والخضوع لأمر عبد الرحمن والنزول على حكمه ، وأخرج هو وأسرته من المدينة ونقلوا الى قرطبة ، ودخل الناصر المدينة ، وولى عليها حاكما من قبله وأكثر له الجمع والعدة ، وأمره ببناء قصبة ينفرد بها ويسكنها .

وانتقل من باجة قاصدا مدينة اكشونية بقرب الساحل الغربي ، وافتتح في طريقه اليها حصن الوقاع وأصاب فيه لحلف بن بكر صاحب اكشونية أموالا وعدة وسلاحا لغنم ذلك جند عبد الرحمن ، وتلقى رسل خلف بن بكر مظهرا للانابة ، وملتزما للطاعة ، وأظهر أهل ناحيته رغبة شديدة في استبقائه حاكما عليهم ، والتزام دفع الجباية الكاملة ، ووصفه سكان المنطقة بالسيرة الحسنة ، فرأى أن من حسن السياسة وصواب الرأي أن يستجيب لرغبتهم ، وعهد اليه بحسن السيرة والرفق بالرعية وألا يقبل نازعا ، ولا يكتنف هاربا ، فالتزم جميع ما أمره به ، ووقف عندما حده له . وعاد الناصر من مدينة اكشونية الى قرطبة .

وفي سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) كان افتتاح مدينة بطليوس وكان صاحبها وهو من سلالة ابن مروان الجليقي قد احتمل الحصار مدة طويلة حتى فنى رجاله ورأى من عبد الرحمن عزما لا يعتريه فتور ، وجدا لا طاقة له به ، فاستأمن ، وقبل عبد الرحمن مصالحته ، ووسعه من سماحة عبد الرحمن ماوسع أمثاله ، ونقل ابن مروان وأصحاب الشوكة من أنصاره الى قرطبة مع أسرهم وأغدق عليهم عبد الرحمن وملك المدينة وولاهها عماله .

ولكى يستكمل عبد الرحمن ما كان في حيازة أسلافه كان عليه أن يعمل على استرداد طليطلة وقد كانت طليطلة دائما مصدر متاعب لأمراء الأندلس ، ورأى عبد الرحمن أن يبدأ باتباع سياسة حسن التفاهم والملاينة ، فأرسل اليها فريقا من فقهاء مصره الذين يثق بهم ليدعوا أهلها الى الطاعة ، ويحاولوا ادخالهم فيما صارت اليه الجماعة ؛ اذ كانوا لا يؤدون جباية ولا يلتزمون طاعة ولا يتناهون عن العصيان ، فلم يصلح معهم

هذا الأسلوب واستمتاعهم الطويل بالحرية جعلهم يأبون أى انتقاص لها ، فلانوا بمعاذير المخادعة ، وجاوبوا عبد الرحمن اجابة تنم على عدم استعدادهم لقبول الطاعة ، ولم يتوان الناصر - جريا على عادته - عن اعتزام غزو مدينتهم وأخذ الأهبة لمحاصرتها حتى يرجع أهلها عن غيهم ، وينزلوا على أمره ، ففي سنة ٣١٨ (٩٣٠) قدم الوزير سعيد بن المنذر فى جيش كبير الى مدينة طليطلة ، وأمره عبد الرحمن بمحاصرة المدينة حتى يلحق بجيوشه ، فخرج اليها سعيد وأغذ السير نحوها حتى نزل بساحتها وأخذ فيما حد له من محاصرتها بأبلغ عزم وأتم حزم ، وفى الشهر التالى قصد عبد الرحمن مدينة طليطلة فلما اقترب فى طريقه اليها من حصن مورة الذى اتخذه أهل طليطلة للدفاع عن مدينتهم أمر القائم بالدفاع عن الحصن بالتسليم ، وأنذره وخوفه ، فلم يجسد بدءاً من التسليم ، ونزل عن الحصن ، وأمر الناصر بضبط الحصن ، وتقدم بعد ذلك بجيوشه الى محلة جرنكش القريبة من طليطلة ، وأشرف من هذه المحلة على السهل المنبسط حول طليطلة ونهرها وكرومها ، ودبر رأيه فى أمكن المواضع من محاصرتها وأقرب الجهات الى الأخذ بمخنق أهلها ، فرأى أن انزول بمحلة المقبرة على باب المدينة أبلغ فى النكاية ، وأشد فى المضايقة ، فانتقل اليها ، وأخذ فى مضايقة العصاة والنكاية بهم بما لم يخطر لهم على بال .

وأقام بهذه المحلة سبعة وثلاثين يوما يوالى فيها النكاية بهم ، ويخرب قراهم ، وينتسف زروعهم ويقطع أشجارهم ، ثم أمر بالبنيان فى جبل جرنكش لمدينة سماها بمدينة الفتح وعهد الى الوزير سعيد بن المنذر بالاشراف على بنيانها ، وأمره بنقل الأسواق اليها والتمدين لها لتكثر مرافق أهل العسكر بها ، وعهد الى محمد بن سعيد المنذر بالاشراف على باب

القنطرة مع فرقة من الجند ، وأوصاه بالاستبلاغ في محاربة القوم .

وقدم على الناصر بمحلته على طليطلة صاحب حصن قنيلش وصاحب حصن الفهمين معتصمين بطاعته ، فأمر بنقلهما الى قرطبة والتوسع عليهما ، وقفل من طليطلة الى قرطبة .

واستمر حصار طليطلة أكثر من عامين ، وظن أهلها ان استعانتهم بملك ليون قد تنقذ الموقف ، وتساعدهم في رفع الحصار ، ولكن جيش عبد الرحمن هزم جموعه ، ورد هجومه ، وأرغمتهم المجاعة في آخر الأمر على فتح أبواب مدينتهم وعادوا بصفح عبد الرحمن ، وضرعوا إليه في اغتفار ذنوبهم فحضر في سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) لاستنزالهم وتوطيد طاعته في المدينة ، وتلقاه قبل نزوله بالمدينة ثعلبة بن محمد ابن عبد الوارث القائم بالدفاع عنها معترفا بخطئه ومستقيلا من زلته ، فعفا عنه الناصر ، وشمله عفوه ، وأمن أهل طليطلة ورفع عنهم الحصار ، فشعروا بالأمن بعد الخوف ، والسعة بعد الضيق ، وركب عبد الرحمن الى المدينة ودخلها وجال في أقطارها ، ورأى من حصانتها وامتناع قاعدتها وانتظام الجبال في داخلها وامتناعها من كل الجهات بواديتها ووعرها وكثرة سكانها جعله يشكر الأقدار التي هيأت له مغالبة كل هذه الصعاب ، واجتياز هذه العقبات ، وعلم أنه لولا ما أخذ به نفسه من الجد والعزم في أمرها لما استطاع أن يستردها مع حصانتها ومناعتها وما اعتاده أهلها من موالة الدول المسيحية المجاورة لها ، والاستعانة بهم في الخروج على طاعة أمراء الأندلس ، ودبر فيها بناء محكما متقنا ليكون مستقرا للقواد الملازمين فيها ، وملأها رجالا وعدة وسلاحا ، وأمر بهدم

ما وجب هدمه فى المدينة، وأكثر من التجوال فى أنحائها ليهذب فيها ما أرادته ، وكان سرور عبد الرحمن بالاستيلاء على المدينة عظيما كسروره يوم استيلائه على حصن بيشتر ، وكان شكره لله الذى مكنه من ذلك حارا وكثيرا .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يخضع العرب والبربر والمولدين والمستعربين ويرغمهم على الطاعة ، ويرد للدولة الأموية بالأندلس سلطتها التى عصفت بها عواصف الثورات، وكادت تقتلعها وتعفى عليها ، وعاد الأمن والاستقرار الى ربوع الأندلس ، وكان فى ضياع سلطة زعماء العرب وارغامهم على الطاعة عزاء للمولدين والمستعربين فقد رأوا فيها نوعا من الانتصار لقضيتهم ، فقد كان جانب كبير من ثورتهم لمقاومة تعالى العرب عليهم وعنهم فى بعض الأحيان بهم ، أما بعد أن استردت الدولة هيبتها ، واستعادت سيطرتها ، فقد تساوت الأقدار ، وكانت المساواة فى المعاملة مما ساعد على استعادة الدولة وحدتها وسهل امتزاج أجناس الرعية المختلفة ، وأصولها المتباينة ، ولم يكن ذلك كسبا قليلا للمولدين والمستعربين ، وكأنهم ظفروا بجانب كبير من الاستقلال الذى كانوا يطمعون فيه ، والحرية التى تطلعوا اليها فاستراحت نفوسهم وهدأت ثورتهم .

عبد الرحمن الناصر وتحويل الامارة الأندلسية الى خلافة

كان أمراء الأندلس الأمويون منذ عهد عبد الرحمن الداخل يكتفون بلقب الأمير وابن الخلائف ، ولم يقدم أحد منهم على اتخاذ لقب خليفة وأمير المؤمنين تجنباً لاثارة خلافات ومشكلات قد يجدون صعوبة في معالجتها في حين أن عندهم من المشكلات المعقدة والخلافات المتعبة ما يكفي ويزيد على الحاجة ، وماذا عليهم من فقدان لقب قد يجلب المتاعب وهم مستمتعون بالسلطة الكاملة والسيطرة التامة ، فضلاً على ذلك فانهم كانوا يرون الخليفة العباسي أولى منهم بهذا اللقب لأنه يضم في حوزته الحرمين الشريفين وبلاد العرب ولكن في سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩) م كانت الظروف قد تغيرت ، فقد استطاع عبد الرحمن منذ ولايته أن يخمد الكثير من الثورات ، ويسترد سلطة الأمراء التي انتزعها منهم الثائرون المتمردون ويعيد الى أكثر أنحاء امارته الأمن والاستقرار ، وكانت الدولة العباسية قد دب فيها الضعف واستأثر موالى الخليفة العباسي في بغداد بالسلطة حتى أصبح الخليفة العويبة في أيديهم ، وبلغ عبد الرحمن أن مؤنسا المظفر قتل مولاة الخليفة العباسي المقتدر سنة ٣٢٠ هـ وكان قد سبق خلعه وازالته عن سرير ملكه سنة ٣١٧ هـ ثم أعيد وجددت له البيعة

ولكنه قتل حينما فسدت الحال بينه وبين مؤنس الذى كان قد سعى فى اعادته الى الخلافة ، وبوجه عام لم يكن لأكثر الخلفاء العباسيين خلال القرن الثالث الهجرى سلطة مطلقة ولا مكانة ثابتة موطدة ، وعاصر هذه الفترة قيام الدولة الفاطمية وتلقب القائمون بأمرها بألقاب الخلافة وامارة المؤمنين ، ومعنى ذلك أن الخلافة تعددت فماذا يمنع من أن يكون هناك ثلاثة خلفاء ما دامت الخلافة قد صارت فى خليفتين ، وامارة الأندلس أقدم عهدا ، وأرسخ قدما ، وأدق نظاما من الخلافة الفاطمية الناشئة . فأمرها ان لم يكن أحق بلقب الخليفة وأمير المؤمنين من الخليفة الفاطمى فهو على الأقل جدير بهذا اللقب لاتساع ملكه وثبات سيطرته ، ومما زاد عبد الرحمن تعلقا بالحرص على احراز هذا اللقب التنافس الذى قام فى المغرب بينه وبين الدولة الفاطمية فان حمل لقب الخلافة له من غير شك تأثير فى نفوس قبائل البربر الذين كان عبد الرحمن يستعين بهم فى مدافعة الخطر الفاطمى ، ولم يكن من المناسب أن تظل الأندلس تنافس الخلافة الفاطمية وهى امارة ، وادراك الناصر لمدى قوة هذا اللقب فى التأثير الروحى على الجماعات يدل على بعد نظره السياسى ، وعمق فهمه لنفسية الجماعات ، ونقول المقرئ « (١) الناصر أول من تسمى بأمر المؤمنين من بنى أمية بالأندلس ؛ لأن الدولة عظمت فى أيامه ، حين اختل نظام ملك العباسيين بالمشرق وتغلبت عليه الأعاجم ، ولم يتسم أحد من سلفه بالأندلس الا بالأمير » . ويقول ابن عذارى (٢) « وفى هذه السنة ٣١٦ هـ) رأى الناصر أن تكون الدعوة له فى مخاطباته والمخاطبات عنه فى جميع ما يجرى ذكره فيه

(١) من الجزء الثانى من كتاب أزهار الرياض صفحة ٢٥٨ .

(٢) من الجزء الثانى من كتاب البيان المغرب صفحة ٢٩٧ .

بأمر المؤمنين ، ولما استحقه من هذا هو له بالحقيقة ولغيره بالانتحال والاستعارة ، فهو أبر أمراء المؤمنين ، والهداة الفاضلين ، والأبرار المتقين من كل منتخب في المشرق والمغرب وقائم بالحق ، وسالك لسبيل الهدى والرشد ، فعهد الى أحمد ابن بقي القاضي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذى الحجة بذلك ، ونفذت الكتب الى العمال فيه ، ونسخة الرسالة النافذة في ذلك تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد - فأنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه ، للذي فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولي الانعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التماذى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله ، والله المستعان . »

وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ - وبعد صدور هذا المنشور أصبح الناصر يلقب بأمر المؤمنين الناصر لدين الله .

عبد الرحمن الناصر والخطر الفاطمي

لم تكن ثورة العرب والبربر والمولدين والمستعربين هي الخطر الوحيد الذي هدد الدولة الأموية بالأندلس ، فقد كان هناك خطر مصدره آندول المسيحية في الشمال مثل دولة ليون ومملكة نافار وغيرهما من الدول والامارات المسيحية التي تكونت وتزايدت قوة وتماسكا في القرن الرابع الهجري ، وفي أواخر القرن الثالث بدأ في أفريقية والمغرب ظهور خطر آخر ، أخذ في التعاضم حتى شغل بال عبد الرحمن الناصر طوال حكمه ، واستلزم بذل جهود جبارة لدفع عاديته ، وهذا الخطر هو ظهور الدولة الفاطمية في المغرب ، وهي دولة شيعية ، مهد لظهورها وعمل على تكوينها وانشائها دعاة الشيعة الاسماعيلية ، وكان الشيعيون على اختلاف مذاهبهم وتباين أهدافهم يرون أن الامامة وهي تشمل القيادة الروحية والزعامة الدنيوية من حق أولاد علي ، وقصرها فريق منهم على أولاده من السيدة فاطمة ، والامام في رأيهم معصوم من الخطأ، والشيعة الاسماعيلية منسوبة إلى الامام اسماعيل الابن الأكبر للامام جعفر الصادق من سلالة الحسين بن علي ، وقد مات اسماعيل في حياة أبيه ؛ ولذلك ذهب فريق آخر من الشيعة إلى صرف الامامة عنه ومنحها لآخيه موسى الكاظم الذي مات بعد أبيه

الصادق ، فصار بذلك وارثا لرسالة أبيه ، وصاحب الحق في
الامامة بعده ، وقد نظم اسماعيل بن جعفر الصادق دعوته
الامامية قبل موته مستعينا برجل من أسرة فارسية الأصل
وهو عبد الله بن ميمون القداح ، وقد عمل حفيد عبد الله بن
ميمون القداح المدعو سعيد الخير على أن يستكمل تنظيم الدعوة
الاسماعيلية ويرسل الدعاة الى المغرب لنشرها ، وكان على
رأس هؤلاء الدعاة الداعية أبو عبد الله الشيعي ، وعاونه
أخوه أبو العباس ، وتسمى سعيد الخير بعبيد الله المهدي ،
وقام أبو عبد الله الشيعي بالدعوة له في المغرب وبذل في
ذلك جهدا كبيرا ، وكان أبو عبد الله رجلا واسع الحيلة ، جم
الدهاء ، طبيا بأهواء النفوس ، وفي بلاد سادها الجهل ،
وملأها استبداد الحكام وعسفهم مثل بلاد المغرب كانت دعوة
المهدي تجد أذنا صاغية ، وصدرأ رحبا ، وأدخل أبو عبد الله
في روع أتباعه من قبيلة كتامة البربرية أن الدولة العلوية
الاسماعيلية ستشرق شمسها من المغرب ، ووضع للكتاميين
أحاديث ونبوءات جذابة أشعلت حماسهم ، وشدت عزيمتهم
واستطاع بذلك أن يقاوم دولة الأغالبة ، ولما أطمأن الى نجاح
مسابجه استدعى عبيد الله المهدي من سلمية من أعمال حمص
التي كان مستترا بها ، ولقي عبيد الله في رحلته من سلمية
متاعب جمة استعان على مغالبتها باجادة التنكر والرشي ، وفر
بصعوبة من مطاردة زيادة الله الأغلبى حتى وصل الى
سجلماسة ، وكانت في حوزة اليسع بن مدرار ، وقد آكرم
وفادة عبيد الله في بادئ الأمر ، ولكنه حين علم بتزايد قوة
عبد الله الشيعي وتغلبه على الأغالبة وازالة ملكهم اعتقل
المهدي ، ولم يطلق سراح المهدي الا بعد أن قدم جيش أبي
عبد الله الشيعي ، وفر اليسع من سجلماسة ، وأسترد
المهدي حريته ، وتقلد زمام الأمر وبدأ ظهور الدولة الفاطمية

ويرى الأستاذان : حسن ابراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف
أن عبيد الله المهدى من سلالة ابن ميمون القداح ، وأن الامام
المستور الحسين الاسماعيلى عهد إليه فى القيام بالامامة على أن
يسلمها من بعده للقائم ابنه ، فالقائم هو سليل اسماعيل بن
جعفر الصادق ، وأما عبيد الله المهدى فانه من سلالة القداح ،
فالمهدى لا يمت الى الأئمة الاسماعيلية بصلة القرابة ، وانما
نهض بالامامة بتوصية من الحسين بن أحمد بن عبد الله بن
محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأن الامام الحسين
الاسماعيلى استودع سعيد الخير أو عبيد الله المهدى الامامة
ليردها الى ابنه القائم ، والدولة التى أنشأها عبيد الله المهدى
تعرف بالدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة بنت رسول الله ، أو
الدولة العلوية نسبة الى على بن أبى طالب ، وتسمى أحيانا
الدولة العبيدية نسبة الى عبيد الله المهدى ، ويبدو أنه لا
اختلاف فى أن الدولة التى أسسها عبيد الله دولة اسماعيلية ،
وانما الشك فى عبيد الله نفسه ، وهل هو اسماعيلى من
سلالة اسماعيل بن جعفر الصادق أو أنه قداحى من سلالة
ابن ميمون القداح ، والمرجح عند الباحثين أن الامام الحسين
نزل عن امامته طوعا لحجته سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله
القداح ليردها الى ابنه القاسم القائم حينما بلغ أشده ، ولما
خرج عبيد الله المهدى من السجن أعلن أبو عبد الله الشيعى
داعيته أنه الخليفة ، وأنه المهدى ، وذهب معه الى رقادة فى
آخر سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩م) وهناك تلقى يمين الولاء من أتباعه ،
وحينما صار عبيد الله خليفة أظهر شدة ، وفرض طاعة
لا تعرف اللين على أتباعه الكتامين وغيرهم من رعيته ، وساء
ظنه بداعيته أبى عبد الله ، وشك فى أمره ، واتهمه بأنه
يحاول القاء الشبهة على عصمة الامام المهدى ، ودس اليه من
قتله ، وقتل معه أخاه وذلك فى سنة ٢٩٨ هـ (٩١١م) .

وكان احتلال الفاطميين لتونس وقلبهم دولة الاغالبه
خطوة لامتداد نفوذهم شرقا وغربا ، أما فى الشرق فقد أخفقت
جهودهم فى الاستيلاء على مصر فى عهد عبيد الله المهدى ، وأما
فى الغرب فكانوا يعملون على أن تكون جميع البلاد فى قبضتهم
بحيث لا يحول شىء بينهم وبين المحيط الاطلسى . ولم يكن
هناك بد من اخضاع القبائل الكبيرة فى المغرب مثل قبيلة
زناته وغيرها من قبائل المغرب ، وبالرغم من أن عبيد الله
لم يخضع لسلطانه جميع بلاد المغرب ، إلا أنه مهد السبيل
للمعز لدين الله بعده الذى استطاع أن يوحد بلاد المغرب
جميعها تحت لوائه .

وكان على الناصر أن يحزم أمره ، ويعد الأهبة لمواجهة
الفاطميين قبل أن يستفحل أمرهم فيقدموا على غزو الأندلس،
وكان من الطبيعى أن يذكر الفاطميون أن العرب قبلهم جعلوا
الاستيلاء على المغرب معبرا الى الأندلس ، ورأى الناصر أن من
أجدى السبل فى مقاومة السيطرة الفاطمية التى اجتاحت
تونس وأخذت فى الامتداد السريع الى عدوة المغرب وهددت
شواطئ الأندلس بعث الفتن واشعال نار الخلاف بين قبائل
البربر ، ونجح فى ذلك واستولى على سبتة وطنجة ، وبدأ
انشاء أسطول ضخم ليقاوم سطوة الفاطميين ، وكان ثوار
الأندلس يتجهون بأبصارهم الى العدو ، ويفاوضون الفاطميين،
ويأترون معهم على حكومة قرطبة ، وقد استولى عبد الرحمن
على سبتة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١م) وانتزعها من يد بنى عاصم
حلفاء الفاطميين .

وقد اتخذ عبيد الله المهدى من تاهرت بالمغرب الاوسط
قاعدة لمهاجمة المغرب الاقصى ومهاجمة الادارسة والنفوذ
الاموى ، وبدأ قائده مصالة بن حبوس صراعه العنيف مع

قبائل صنهاجة ، واستولى على حاضرتهم ناكور في سنة ٢٠٥
وكان استيلاء الفاطميين على هذه المدينة بدء صراع عنيف مع
الادارسة ثم مع الصنهاجيين ، وكان وراء هذا الصراع صراع
آخر بين السياسة الاموية والسياسة الفاطمية ، وكان زعماء
قبائل صنهاجة وولايات المغرب الذين يتعرضون لهجوم
الفاطميين يستعينون بعبد الرحمن الناصر ، ويلوذون بحماه
حينما يغلبون على امرهم ، وحينما استولى القائد الفاطمي
مصاله بن حبوس على ناكور وقتل رئيسها سعيد بن صالح
فر اولاده الى الاندلس ، وأقاموا بمالقة لقربها من بلدهم
ورجائهم العودة اليها، ورحب الناصر بقدمهم، وعهد بانزالهم
والتوسع عليهم ، وبعث اليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا
اليه ، وخيرهم في القدوم الى قرطبة والمقام في مالقة ،
فاختاروا المقام بها على بره وحبائه، وكان مصالاه قد استخلف
على ناكور رجلا يقال له ذلول وانصرف الى تاهرت ، فافترق
عن ذلول من كان معه ، وبقي في قلعة من رجائه ، فقصده
صالح بن سعيد من مرسى مالقة فقتله وقتل أصحابه ، ولزم
ناكور، وهادى عبد الرحمن الناصر بالخيال والجمال، ويوضح
لنا هذا مدى مساعدة الناصر للصنهاجيين وأنه كان يهمه أن
يكون له حلفاء من المغاربة ليكونوا حاجزا يستدفع به شر
الفاطميين ، وكان الناصر يقدر أنهم أقدر على النجاح في
الاستيلاء على بلاده من أعدائه العباسيين لبعده الشقة ووعورة
الطريق بين العراق والاندلس مع قرب المسافة وسهولة
الطريق بين المغرب والاندلس ، ولذلك أمد الناصر صالحا
بالاخية والآلات والبنود والطبول ، وفي الوقت نفسه استغل
عنصر الكراهة بين الشيعة والسنية المتأصل في قلوب
الصنهاجيين ، وكان من أسباب شدة تعلقهم بالناصر خوفهم
على دولتهم وعلى مذهبهم السني في الوقت نفسه ، والادارسة

برغم كونهم من أصل علوي رأوا كذلك الاستعانة بالناصر
خشية اكتساح الفاطميين للمكهم .

وقد حاول الفاطميون في عهد عبيد الله المهدي الاستيلاء
على مصر ، ولما أخفقوا في هذه المحاولة عولوا على قصر جهودهم
على بسط سلطاتهم في المغرب ، ولذلك خرج مصالة بن
حبوس قائد جيش عبيد الله المهدي من تاهرت سنة ٣٠٨ هـ
(٩٢٠م) واسترد مدينة ناكور من الصنهاجيين ، واتجه الى
الادارسة في فاس ، وكان عليها يحيى بن ادريس وانتصرت
عليه جيوش المهدي ، وكان الجيش الفاطمي مكونا من
المكناسيين وعلى رأسهم زعيمهم ابن أبي العافية ومن الكتامين
وهم الذين أعانوا الدولة الفاطمية ، ونهضوا بها ، وصار
الادارسة في فاس تحت حماية الفاطميين يدفعون لهم الجزية،
ويدينون لهم بالطاعة ، وولى الفاطميون على تلك الناحية موسى
ابن أبي العافية صاحب مكناسة ، وفي سنة ٣٠٩ هـ فتح
الفاطيون سجلماسة وبذلك صار جزء كبير من المغرب الأقصى
خاضعا لسلطانهم ، وفسد ما بين موسى بن أبي العافية وبين
الفاطميين وانتظم له الأمر في المغربين : الأوسط والأقصى
وأصبح خطرا على الفاطميين ، ولما ولي المهدي على المغرب
الأوسط وتاهرت واليا آخر وهو حميد بن يصال عمل هذا
الوالي على أن يشعر موسى بن أبي العافية بقوة الفاطميين ،
فأرسل من قبله واليا الى فاس ، ولكن هذا الوالي قتل وحمل
رأسه الى موسى ، فأرسله موسى الى الخليفة عبد الرحمن
الناصر ، وكان قد بدأ يميل الى ناحيته ويناصره ، ويقول ابن
خلدون عن موسى : « ثم انتفض موسى بن أبي العافية عامل
فاس والمغرب وخلع طاعة الشيعة وانحرف الى الاموية من وراء
البحر وبث دعوتهم في أقطار المغرب ، وكان هذا انتصارا

واضحاً لسياسة عبد الرحمن ، ولم يكن ابن أبي العافية وحده هو الذى سلك مع الفاطميين هذا المسلك فأن أدارسة الريف حذوا حذوه ، وولوا وجوههم شطر عبد الرحمن الناصر ليستعينوا به على منافسيهم ولا سيما مع بنى عمهم الفاطميين ، وقد دعم هذا كله موقف الناصر فى المغرب .

وقد مات عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤) وخلفه القائم أبو القاسم محمد ، وقد لعبت السياسة الفاطمية دوراً هاماً فى عهد عبيد الله ، وحاول أن يحارب الدولة الاموية الاندلسية بسلاحها نفسه ، فاتصل بالثائر ابن حفصون قبل موته وحضه على الاستمرار فى الثورة ، وكان يتصل به من الحين الى الحين ، وحرضه على أن يمهد للدعوة الشيعية فى الاندلس ، وأرسل من قبله دعاة يجوبون نواحي الاندلس متنكرين فى زى تجار ؛ ويرى المؤرخ دوزى أن الرحالة ابن حوقل كان عيناً من عيون الفاطميين وداعية من دعائهم وقد استهل وصفه للاندلس بقوله : أن أشد ما يثير دهشة الزائر الغريب للاندلس هو كونها لا تزال خاضعة للحاكم المسيطر عليها ، وأن أهلها أذلاء خائرو العزم جبناء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم اذا هاجمتهم جيوش منظمة ، وفكرة ظهور المهدي المنتظر كانت شائعة فى الاندلس مثل شيوعها فى سائر أنحاء المغرب والشرق ، ويرى دوزى أنه لو كان أتيح للفاطميين الوصول الى الاندلس لكانوا وجدوا فيها أتباعاً لهم وشيعة تؤمن بمذهبهم ، ويرى دوزى انه من المحتمل أن يكون الفاطميون قد أرسلوا الفيلسوف ابن مسرة الى الاندلس لي مهد الأذهان لقبول الأيديولوجية الشيعية ، وحقيقة أنه ليس هناك ما يقطع بذلك ولكنه من المؤكد أن الفاطميين حاولوا أن يوجدوا لهم حزباً يناصرهم ويدين بتعاليمهم فى الاندلس .

ويقول (١) الذهبى ان القائل الذى خلف المهدي كان كغيره من الخلفاء الفاطميين ينقم على السنيين ، حتى انه امر بلعن انصحابه وأن ذلك آذر غضب المغاربة ، وبخاصة الخوارج الذى ثاروا فى المغرب على الفاطميين ، وكان أشد هذه الثورات خطرا وأكثرها بلاء تلك الثورة التى أشعل نيرانها أبو يزيد مخلد بن كيداد المعروف براكب الحمار وقد استمرت طوال عهد القائم ولم تخمد الا فى عهد ابنه المنصور الذى خلفه سنة ٣٤١ هـ وقد أخفى المنصور موت أبيه حتى لا يؤثر فى حماسة جيوشه التى كانت مشغولة بثورة أبي يزيد وقد قصر كل همه وانفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التى شملت كل أرجاء الدولة الفاطمية ، وكان أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة زناتة فى مدينة توزر أكبر مدن شط الجريد فى تونس ، وقد ولد فى توزر ونشأ بها وأخذ يعلم الصبية واعتنق مذهب الخوارج الاباضية ثم سار الى تاهرت وأخذ يعلم الصبية حتى خرج أبى عبد الله الشيعى الى سجلماسة لاطلاق المهدي من سجنه ، وقوى أمر أبى يزيد وراجت دعوته فى أواخر عهد المهدي وبخاصة بين قبائل الزاب والمغرب الأقصى ، وقويت شوكته فى عهد القائم الذى خلف المهدي ، وهزم قبيلة كتامة أنصار المهدي ، وانتشرت جيوشه فى كل أنحاء الدولة الفاطمية ، حتى استطاع أن يهدد مدينة المهدية نفسها مستقر الخليفة ، ولما ولى المنصور الذى خلف القائم فى سنة ٣٣٤ هـ قويت جيوشه بانضمام قبيلة صنهاجة وغيرها من قبائل البربر اليه ، واستطاع أن يهزم أبى يزيد ويقبض عليه ، وسبق أبو يزيد الى المهدية حيث مات متأثرا بجراحه

(١) الجزء الثالث من كتاب تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن

ابراهيم حسن صفحة ٢٤٩ .

سنة ٣٣٦ هـ ، وقد شغلت ثورة أبي يزيد الفاطميين سنوات طويلة وأثرت في موارد الدولة وانهكت قواها ، وكانت هناك علاقات بين أبي يزيد والخليفة الناصر وقد وصل ابنه أيوب الى قرطبة في سنة ٣٣٥ هـ رسولا من والده فاستقبله الناصر في قصر الرصافة وأكرم لقاءه ، وقد ظل أبو يزيد يرأس الناصر معترفا بإمامته ومواليا له الى حين وفاته ، واغتتم عبد الرحمن الناصر فرصة اشتغال الفاطميين بمقاومة ثورة أبي يزيد ووطد مكانته في نواحي المغرب الاوسط والاقصى ، وفي عهد الخليفة الفاطمي المعز دخل جوهر قائد جيوشه الى المغرب الاقصى واستولى على مدينة فاس ووصل الى مضيق سبتة ولم يستطع الاستيلاء عليها ، وهاجم حاكم صقلية من قبل الخليفة الفاطمي باسطوله مدينة المريه ، وحرق السفن الراسية بها واستولى على جانب منها ، وقد رد عبد الرحمن على ذلك باطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الاندلس وانفاذ كتبه بذلك الى العمال بسائر نواحي الاندلس . ثم أصدر أمره الى قائده غالب في سنة ٣٤٥ هـ بمهاجمة سواحل افريقية ، ولكن هذه الحملة لم تنجح النجاح الذي كان يأمله عبد الرحمن فان الاندلسيين بعد أن صادفوا بعض النجاح في أول الأمر اضطرتهم الجيوش المدافعة عن الشواطىء الى الجلاء ، وكان عبد الرحمن مشغولا حينذاك بمحاربة ملك ليون ، ولما كان يرغب في توجيه جيوشه جميعها الى افريقية ؛ لذلك كان من الطبيعي مسالة المسيحيين في الشمال ولذلك لم يتشدد في قبول شروط الصلح التي عرضها ملك ليون ، ولما تم الصلح وجه اهتمامه كله الى افريقية وأعد حملة ضخمة لمهاجمة الفاطميين ، ولكن العلاقات لم تلبث ان ساءت بينه وبين مملكة ليون ، فوجد نفسه مضطرا الى تحويل جيوشه اليها ، ومهما يكن من الامر فان قوة اسطول عبد الرحمن

الناصر مكنته من أن ينازع الفاطميين السيطرة في البحر الأبيض المتوسط كما أن امتلاكه لسبّته مكنه من أن تكون مقاليد موريتانيا في يده، وقد استطاع عبد الرحمن باستيلائه على سبّته وإيجاد علاقات مع زعماء قبائل المغرب وحكامه وإنشاء أسطول ضخم أن يجنب الأندلس خطر استيلاء الفاطميين عليها وانتزاعها من سيطرة الأمويين .

صراع عبد الرحمن الناصر مع الدول المسيحية في شمال اسبانيا

في الوقت الذي شرع فيه عبد الرحمن في رم بناء الدولة ولم شعثها وما تنائر من مدنھا وكورها . والقضاء على الثورات المضطربة ، والحلافات المحتدمة ويجتذب اهتمامه ظهور خطر الدولة الفاطمية الناشئة تعرضت دولته لخطر آخر غير مأمون العواقب ولا سهل المدافعة من حدودها الشمالية ، فقد كانت مملكة ليون تزداد تماسكا وقوة حتى أصبحت مرهوبة السطوة وعرة الجانب ، ونشأة هذه الدولة لا تخلو من الغرابة والعظة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر كما يقول المثل المعروف ، ففي القرن الثامن الميلادي حينما اجتاحت الجيوش الاسلامية شبه الجزيرة الاسبانية لجأ قرابة ثلاثمائة من المجاهدين الاسبانيين الى غار كبير في مقاطعة أوستريش واعتصموا به ، وكان لهم من قلة عددهم ووعورة الجبال التي نزلوها وهوان أمرهم ما أغرى الجيوش الاسلامية بالاستهانة بأمرهم وإهمال شأنهم ، وكان هذا الغار - واسمه غار دونجا - متغلغلا في شعب ضيق ملتو بين صفيين من الصخور الصلدة ، ويجد الصاعد اليه صعوبة ومشقة في الدخول اليه ، وكانت حفنة قليلة من المحاربين تستطيع في

سهولة ويسر أن تدفع عن هذا الكهف الصعب المرتقى المنيع
الناحية ، وكان زعيم هؤلاء اللاجئين يدعى بلای ، ولم يستطع
كثيرون ممن لاذوا معه بالغار ان يصبروا ويحملوا ألم الحرمان
وقسوة الحياة في ذلك المكان المنعزل الموحش فبعضهم أثر
التسليم وبعضهم قضى نحبه جوعا ولم يبق في الغار تحت
زعامة بلای سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء كان طعامهم الوحيد
العسل الذي يختزنه النحل في شقوق الصخر ، ورأى
المسلمون أنه من العبث مطاردة هذه الطغمة القليلة من الفارين
التي لا يخشى لها بأس في هذه المسالك الوعرة التي تعرض
سالكها للهلاك ، ويصف ابن حيان المؤرخ نشأة هذه الدولة
بقوله (١) « وفي ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي قام بجليقية
علج خبيث يدعى بلای فعاب على العلوج طول انقار ، وأذكى
قرائحهم ، حتى سماهم الى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ،
ومن وقته أخذ نصارى الاندلس في مدافعة المسلمين عما بقي
من أرضهم ، والحماية عن حريمهم ، وكانوا لا يطمعون في
ذلك ، وقيل انه لم يبق في أرض جليقية قرية لم تفتح
الا الصخرة التي لاذ بها هذا العلج ، ومات أصحابه جوعا الى
ان بقي في ثلاثين رجلا ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش
الا من عسل النحل في جباب معهم في خروق الصخرة ،
ومازالوا ممتنعين الى ان اعياء المسلمين أمرهم واحتقروهم ،
وقالوا ثلاثون علجا ما عسى ان يجيء منهم ، فبلغ أمرهم بعد
ذلك في القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به » ويقول مؤرخ
آخر « كم تمنينا على الله لو أن المسلمين أطفئوا دفعة واحدة

(١) العرب في اسبانيا لستائل لين بول وترجمة الأستاذ على الجارم

شرارة هذه الجذوة التي قدر لها أن تلتهم دولة الاسلام
بالأندلس .

وهذا الاهمال لشأنه، والاستهانة بأمره مكنه من أن يوطد
مركزه ، ويزداد عدد أتباعه حتى استطاع أن يهاجم المسلمين
ويشن عليهم الغارات ، فعقد مونوسا حاكم إقليم استوريش
العزم على مقاومة هذه الغارات وعهد إلى أحد رجاله ويدعى
علقمة بمهاجمتهم ودفع غاراتهم ، ولكن الحملة كانت سيئة
الحظ فقد قتل علقمة ورجاله جميعهم مما شجع أهل استوريش
وزادهم اقداًما على شن الغارات وموالات الهجمات ، ولما لم يكن
مع مونوسا ما يكفي من الجند لاختاد الثورة ومقاومة الهجوم فقد
اضطر إلى ترك مدينة جييجون الواقعة على خليج بسكاي حيث
كان مقره إلى ليون ، وهكذا استطاع سكان اوستريش أن
يسردوا أرضهم ، ويظفروا باستقلالهم ، وفي الناحية
الشرقية من مقاطعتهم كانت مقاطعة كانتابريا التي لم تخضع
لسيطرة المسلمين ، وعندما تزوج الفونسو حاكمها بابنة
بلايو وارتقى عرش استوريش تضاعفت قوة المسيحيين واشتد
بأسهم ، وصمموا على مدافعة غزاة بلادهم إلى الجنوب ، وهيات
لهم ظروف الأحوال الفرصة المناسبة ، فقد كان معظم المسلمين
في النواحي الشمالية من البربر ، وحدث خلاف بينهم وبين
العرب ، فثاروا بهم وأجلوهم من المناطق الشمالية ، ولكنهم
حينما تقدموا إلى الجنوب أصيبوا في دورهم بهزيمة وقتل
العرب منهم الكثيرين ، وحدثت مجاعة شديدة الوطأة بدأت
سنة ٧٥٠ م (١٣٣ هـ) واستمرت خمس سنوات متتالية
فصمم أكثر البربر على الهجرة من شبه الجزيرة والعودة إلى
قبائلهم في افريقية ، واغتنم الجليقيون الفرصة وقاموا بثورة
سنة ٧٥١ م (١٣٤ هـ) واعترفوا بالفونسو ملكا عليهم ،

واستطاعوا بقيادته ان يقضوا على عدد كبير من أعدائهم وان يرغموا الباقين على الانسحاب الى استرقة ، وفي سنة ٧٥٣ / ٧٥٤ (١٣٦ / ١٣٧ هـ) دفعوا بالبربر أكثر فاكثر الى الجنوب ، وأخلوا منهم برافرة والبرتغال وبازو ، وبذلك خلا لهم شاطئ نهر دويرة حتى مصبه في المحيط الأطلسي ، وتابع المسلمون ارتدادهم الى الجنوب فأخلوا استورفة وليون سمورة وليدسة وسلمنقة ، وتراجعوا الى قورية وماردة ، وفي الناحية الشرقية أخلوا شلطائية وشنت منكشوشقوبية وآبله وأوكة وأكشمة وميراندا على نهر الابرو ، وبذلك أصبحت المدن الرئيسية على الحدود الإسلامية من الغرب الى الشرق هي قلمرية على نهر مندبيجو وطلبيرة وطليلة على نهر التاجة وتطيلة وبنبلونة ، وهكذا مكنت الحرب الداخلية والمجاعة الأسبانيين من تحرير جزء كبير من بلادهم لم تكد سيطرة المسلمين عليه تتجاوز أكثر من أربعين سنة ، ولكن الفونسو لم يستفد كثيرا من هذا الفتح فقد جاب أنحاء تلك المناطق المهجورة وقتل من وجده بها من المسلمين ولكن لم يكن يملك من المال ما يكفي لاعادة بناء القلاع والحصون التي خربها المسلمون قبل أن يتركوها ولم يكن عنده كذلك عدد كاف من المزارعين يستطيعون ان يقوموا بالزراعة في هذه المناطق الشاسعة ، ولذلك قفل الى مملكته ومعه رجاله ، ولم يكن في وسعه سوى احتلال النواحي القريبة من حدود مملكته ، وظل باقي المناطق التي اكتسحها مهجورا وحاجزا طبيعيا بين المسيحيين في الشمال والمسلمين في الجنوب ، وقد استطاع خلفاء الفونسو أن يتموا ما عجز عنه ، وفي خلال حروبهم المستمرة مع العرب استطاعوا أن يعيدوا بناء المدن الهامة والحصون والقلاع ، وفي النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي الذي اشتعلت فيه الثورات في الجنوب وكاد الزمام أن

يفلت من أيدي أمراء قرطبة تمكن المسيحيون من مد حدودهم الى نهر دويرة ، وبنوا معقل منيعة في سمورة وشنت منكش وشنت اشتين دي جورماز وأكشمة ، وكانت هذه المدن الأربع تكون سدا منيعا لمواجهة هجمات مسلمي الأندلس ، وكانت المنطقة الموحشة الجذباء الشاسعة الممتدة من نهر دويرة الى نهر الوادي الكبير لا يسيطر عليها العرب ولا مملكة ليون ، أما من الناحية الغربية فقد كانت حدود مملكة ليون التي تجاوزت نهر مونديجو قريبة من حدود أعدائهم العرب ، ولكن هذه الحدود كانت كثيرا ما تخترق ، ومكن اشتغال أمراء قرطبة باخماد الثورات الداخلية في الأندلس أهل ليون من مد غاراتهم حتى نهر التاجة ونهر الوادي الكبير ، وكان معظم سكان هذه الناحية من قبائل البربر ، وكثرة الخلافات التي قامت بين هذه القبائل ومحاربتهم بعضهم لبعض لم تمكنهم من مقاومة اغارات الليونيين ، ولذلك أرغموا على دفع ضريبة للمسيحيين .

وفي سنة ٩٠١ م (٢٨٩ هـ) لاحت للمسلمين فرصة للانتقام ، فقد أعلن الأمير أحمد بن معاوية بن هشام الأموي بين البربر أنه المهدي المنتظر وكان من الطامعين في عرش الأندلس والمقبلين على دراسة علوم الغيبيات ، ودعا البربر الى الانضمام تحت لوأته لمهاجمة سمورة ، وكانت هذه المدينة منذ تجديد بنائها في سنة ٨٩٣ م (٢٨٠ هـ) قد اتخذها الفونسو الثالث قاعدة لشن الغارات على البربر بمعاونة المسيحيين في طليطلة ، وأوقع الرعب في قلوب البربر ، لذلك وجد الأمير الأموي استجابة لدعوته من جانب البربر ، فقد كانوا على جانب من الجهل يجعلهم سريعي التصديق بالغيبيات ، وكانوا في الوقت نفسه ظامئين الى الانتقام من المسيحيين الذين والوا عليهم الغارات وأقنعهم أحمد بن معاوية أن أسوار المدن ستتداعى

وتسقط عند اقترابهم منها ، وفي أشهر قلائل جمع هذا
الدعى جيشا بلغ عدده ستين ألفا من المحاربين ، وقادهم
الى ناحية نهر دويرة واشتبك مع جيش الفونسو
الثالث فى معركة هزم فيها الليسونيون وحال البربر
بينهم وبين الدخول الى سمورة ، وأرغموهم على الارتداد الى
بلادهم ، ولكن سيطرة أحمد بن معاوية على البربر أثارت
الحسد فى نفوس زعمائهم ، وخشوا أن يفقدوا نفوذهم ، ولم
يحسن أحمد بن معاوية معاملتهم ، وأطفاه الانتصار ، فاستولى
عليه الغرور وحب الاستعلاء ، وتسرب الى البربر الشك فى
رسالته ، فبدأ يفقد نفوذه وسيطرته عليهم ، ومكن ذلك زلول
ابن يحيى أقوى زعمائهم من التغلب على هذا المهدي المزعوم ،
فتخلى عنه أنصاره ، وأبى أن يموت مسريلا بالعار، فحث جواده
فى حشود الليونيين ولقى الميته التى كان ينشدها ، وسمر
رأسه على أبواب سمورة وزادت هذه المعركة الليونيين جرأة
واقداما ، وشد من عزمهم معاونة أهل طليطلة لهم ووقوفهم فى
صفهم ، وفى تلك الفترة كان على عرش نافار سانكو العظيم الذى
استطاع أن يجعل لبلاده أهمية لم تكن لها من قبل ، وصار
هذان الملكان - الفونسو الثالث ملك ليون وسانكو العظيم ملك
نافار - يعتقدان أن أسبانيا المسلمة غنيمة لا يجمل بهما أن
تقلت من أيديهما ، وكان لرجال الدين تأثير شديد على أهل
ليون ونافار ، جعلهم يعتقدون أن أبواب الجنة مفتوحة لهم اذا
حاربوا الكفار ، وكان تخلفهم الحضارى يثير فى نفوسهم الحقد
والحسد لما كان ينعم به مسلمو الاندلس من حضارة مزدهرة
وعيشة راضية رافهة ولو كان أتيح لهؤلاء الهمج المتعصبين
التغلب على حضارة الأندلس اللامعة لكان العالم قد فقد
الكثير وتخلف ركب الحضارة الانسانية ، ولذلك كان على
عبد الرحمن أن يضطلع بعبء مرهق ثقيل ، وينهض بواجب

مشرف جليل ، وليس هذا الواجب الدفاع عن بلاده فحسب بل الدفاع عن الحضارة الانسانية ذاتها ، والابقاء عليها ، وكانت المشكلات التي واجهته مشكلات شديدة معقدة مستعصية فكان عليه أن يخمد الثورات في داخل بلاده وأن يرد هجوم مسيحيي الشمال الذين زادت جرأتهم وكثر عدوانهم ، وكان عبد الرحمن من أهل القوة البالغة والبأس الشديد ، فلم يتردد عند مباشرته السلطة وتسليمه مقاليد الحكم في التشمير لمواجهة هذه الأخطار ، وقد رأينا في فصل سابق كيف تجرد للقضاء على الثورات الداخلية ، وتخضيد شوكة العصاة ، وسنرى كيف واجه تحلى مسيحيي الشمال .

ففي مستهل حكمه أرغم على الدخول في معركة مع الليونيين لم يكن هو موقد نيرانها ، فقد بدأ أردونو الثاني ملك ليون الجريء في سنة ٩١٤ م (٣٠٢ هـ) مهاجمة نواحي مدينة ماردة الواقعة على نهر الوادي الكبير ، واستولى على حصن الحنش (النجي) ووضع السيف في المدافعين عنه وسبي النساء والأطفال ، واشتد هلع أهل بطليوس لمقدمه لقربها من ماردة ، فأسرعوا بجمع المال والأسلح الثمينة ، وقدموها في ذلة وضراعة ليتقوا شره وعلى رأسهم أميرهم الذي كان لا يزال خارجا على سلطة عبد الرحمن الناصر ، وتقبل أردونو الهدية ، وعاد حاملا الغنائم ، وعبر نهر انتاجه ثم نهر دويرة ، وكان عبد الرحمن يستطيع الاغضاء عن هذا الاعتداء ؛ لأن صاحب بطليوس كان خارجا على طاعته ، ولكن ذلك لم يكن يتفق مع سياسة عبد الرحمن ، فقد أراد أن يكسب ود هؤلاء التأثيرين من رعيته ويربهم أنه قادر على حمايتهم ، ودفع الأذى عنهم ، ولذلك جرد حملة بقيادة القائد المحنك أحمد بن محمد بن أبي عبدة في سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) وضم اليه عددا من الموالي

والأجناد فجال جولته في نواحي مملكة ليون ، وغنم وسبى وعاد
برجاله سالمين غانمين ، ولكن هذه الحملة لم تكن كافية لردع
أردونو ملك ليون ، فقد شكّا سكان الحدود الى عبد الرحمن
اعتداء الليونيين على طلبيرة الواقعة على نهر التاجه وأحوازها ،
فأرسل في السنة التالية ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) جيشا يقوده
أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، وأخرج معه طبقات من
المجاهدين ، وحشد اليه رجال الثغر ؛ فدخل في حدود
مملكة ليون ، ونازل حصن فاشتر مورش ، وجد في محاربة
المدافعين عنه ، فجمع المليونيون جموعهم ، وأجلبوا عليه
بخيّلهم ورجلهم ، وكان بعض أهل الثغر الذين انضموا الى
الجيش ممن يشك في ولائهم ، فحينما أقبل اوردونو الثاني
لنجدة المدافعين عن الحصن تداعوا الى اظهار الهزيمة ، وأحدثوا
بذلك اضطرابا وفوضى في صفوف الجيش ، ولما رأى القائد
المغوار ابن أبي عبدة طلائع الهزيمة ، ثبت بنفسه وأظهر
الصبر وأبى التراجع والفرار وآثر الاستشهاد وأن يموت بين
الضرب والطعن ميتة « تقوم مقام النصر ان فاته النصر ، كما
قال أبو تمام ، وانحاز الى جانبه بعض جنوده الذين أبوا أن
يحتملوا خزي الفرار، وشاركوه مصيره ، ويقول ابن عذارى (١)
« وانعقد سائر الجيش وصاروا يدا واحدة وخرجوا الى أرض
المسلمين بدوابهم وأنقالهم وأبنيتهم » ولكن المؤرخ دوزى
يقول (٢) ان كاتبى الحوليات المسيحيين قد ذكروا أن القضاء
على جيش المسلمين كان تاما حتى ملأت جثث جنودهم التلال
والغابات والسهول من نهر دويرة الى مدينة أنتيسة .

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٢٥٦ .

(٢) من كتاب « اسبانيا الاسلامية Islam للمؤرخ دوزى

صفحة ٤١٧ .

ولم تنل هذه الهزيمة من عزيمة عبد الرحمن ، فشرع في التأهب لازالة آثارها ، ولكن بينما كان يعد العدة لارسال حملة أخرى في السنة التالية اضطر الى تحويل اهتمامه الى افريقية لتزايد الخطر الفاطمي بها ، ولم ينس عبد الرحمن مع ذلك ما حل بقائده ابن أبي عبدة الذي بعث زهو اردونو الثاني بانتصاره عليه على أن يعلق رأسه على أسوار مدينة شنت اشتيين والى جانبه خنزير برى ، ولو أنه نسي ذلك لذكره بواجبه ما أقدم عليه مسيحيو الشمال بعد ذلك ، ففي سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) هاجم اردونو الثاني وحليفه سانكو ملك نافار أحواز مدينة ناجرة ومدينة تطيلة وعائا بها نهبا وتخريبا واستولى حليفه سانكو بعد ذلك على حصن تلبيرة وأحرق المسجد الكبير الجامع المقام في هذا الحصن ، وقد أحفظت أخبار هذه الأحداث الناصر ، فأمر بالاحتفال في الحشد وجمع الرجال والتكثير من الأجناد والفرسان والأبطال ، وعهد الى حاجبه بدر بن أحمد بقيادة الجيش ، ونفذت كتبه الى أهل الأطراف والتغور بالخروج اليه والدخول في معسكره والجند في نكاية المعتدين على الأراضي الاسلامية ، وخرج الجيش من قرطبة ، واقتحم حدود مملكة ليون ، وهاجم جيشها المعتصم بالجيال ، ودارت معركتان في ناحية مطونية ، انتصر المسلمون في كليهما ، وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يثأر لهزيمة جيشه السابقة ويشعر الليونيين بقوته ويوقع في قلوبهم الرعب ، ولم يكتف عبد الرحمن بهذا الانتصار ، وأراد أن يمعن في اذلالهم ، واطهار سطوته ، فقاد الجيش بنفسه في سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) واستولى على مدينة وخشمة ، وترك المدينة بعد أن حرق حصنها ، وتقدم الى شنت اشتيين دى جورمز ، فوجد أهلها قد هجروا الحصن وأخلوه فأمر عبد الرحمن بهدم الحصن ، وتقدم منها الى قلعة القبيلة وتركها

انقاضا ، واتجه الى مدينة قلونية وهى من المدن القديمة ، وكان سكانها قد اخلوها ، فهدم بيوتها وكناثسها ، ويبدو ان الليونيين قد اخلوا له الميدان ، وأفسحوا له الطريق ، لأنهم لم يجدوا فائدة فى المقاومة .

واستجاب عبد الرحمن لتوسلات مسلمى تطيلة فوجه جيوشه الى نافار متثدا فى تقدمه حتى لا يرهق جيشه ، وطوى المسافة من قلونية الى تطيلة فى خمسة أيام ، ووضع كتيبة من الفرسان تحت قيادة محمد بن لب حاكم تطيلة وأمره بمهاجمة حصن قلهرة الذى بناه سانكو لارهاب المسلمين فى تطيلة ، فوجدوا هذا الحصن قد أخلى ، وكان سانكو قد فر هاربا مسرعا الى أرنيط من حصن قلهرة بعد أن أخلاه وكان قد اتخذ معقلا وثواه مسكنا فلما فجأته جنود عبد الرحمن أخلاه وزال عنه فغنمه المسلمون بأسره وخربوه وانتسفوا كل ما حواليه ، وحينما عبر جيش المسلمين نهر ابرو هاجم سانكو طليعة الجيش ، ولكنه هزم هزيمة ساحقة ، وتوارى هو ورجاله فى الجبال ، ولاذوا بالشعاب .

ولما وجد سانكو نفسه عاجزا عن الوقوف وحده فى مواجهة جيش عبد الرحمن وتكررت هزائمه سأل أردونو مناصرته ، وطمع الملكان فى اعتراض مقدمة الجيش أو انتهاز الفرصة فى الساقة حسبما تسمح ظروف المعركة ، وفى الوقت نفسه فإن المسيحيين الذين اعتصموا بالجبال المنيعه تعرضوا لصفوف الجيش وهى تخترق شعب الجبال والودية ، وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا من قلوب جنود عبد الرحمن ، وأنزلوا بعض الخسائر بالجيش ، ووجد عبد الرحمن أن جيشه فى موضع غير ملائم ومعرضا للخطر ، وكان عليه أن يقاوم رجالا خفاف الحركة فيهم صلابة الجبليين

وشدة صبرهم على المقاومة ، وكانت هزيمتهم لجيش شارلمان وهو يعبر ممرات رونسفال في جبال البرانس لا تزال ماثلة في ذاكرتهم ، وطمعوا في أن تلوح لهم فرصة لينزلوا بجيش عبد الرحمن كارثة مثل الكارثة التي أنزلوها بجيش شارلمان ، وأدرك عبد الرحمن الخطر الذي يتهدد جيشه ، فلما بلغ وادى القصب (وادى جانكيراس) توقف الجيش ، وأقام الخيام ، وتورط اللائذون بالجبال في خطأ فادح ، فبدلاً من أن يظلوا معتصمين بالجبل هبطوا إلى السهل ، وأقدموا على الاشتباك في معركة مع جيش عبد الرحمن ، وأصيبوا بهزيمة مروعة ، وفروا مولين ، وجند عبد الرحمن في آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى غربت الشمس وحال الظلام دون تتبعهم ، وأسر الكثير من قادتهم ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من مقاتلة الأسبانيين إلى حصن مويش ، ورجوا التمتع به ، فأمر عبد الرحمن بمحاصرة الحصن من جميع جهاته وحاربهم في داخله حتى تغلب عليهم واستخرجهم جميعهم ، وقدموا إليه ، وأمر فضربت رقابهم جميعهم بين يديه ، وأصيب في الحصن والمحلة التي كانت بقربه من الأمتعة الحلية المتقنة والآنية مالا يحصى كثرة .

واكتسح الجيش الظافر نواحي نافار هادماً لما صادفه من قلاع وحصون دون أن يلقي أى لون من ألوان المقاومة ، وغنم غنائم كثيرة ، وانتقل الناصر إلى حصن كان اتخذته سانكو على أهل بقيره ، فألقاه خالياً قد فر عنه أهله فأمر بهدمه ، واجتمع عند رجال الجيش من الحصون التي استولوا عليها الكثير من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عن حمله ، ولم يجدوا له ثمناً يباع به ، وأصدر عبد الرحمن أمره برجوع الجيش ، فلما انتهى إلى مدينة أنتيسة ودع الجنود الموكلين

بالحدود وكسأهم ووصلهم ، وأذن لهم فى الرجوع الى
 مواضعهم ، ودخل قرطبة بعد غيبة استغرقت ثلاثة أشهر .
 ودار فى خاطر عبد الرحمن بعد هذه الغزوة أن
 مسيحيى الشمال قد وهن عزمهم ، وضعفت قواهم ، وأن
 الفجائع التى منوا بها قد تكبح نزواتهم الجامحة ، وتحد من
 ميلهم الى العدوان على ثغور الأندلس الاسلامية ، ولكن القدر
 أراد لعبد الرحمن أن يحارب قوما شديدى التوثب ، لا تقل
 عزيمتهم الهزائم المتوالية ، بل تزيدهم عناداً واصراراً ، وكان
 عليه على الدوام أن يأخذ حذره ، ويحكم حراسته ، ولا يغفل
 عن المراقبة ، ومواصلة الأهبة واستعداد للحرب والنزال ،
 وفى سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) قام أردونو بغارة أخرى وتقول
 الرواية النصرانية - وربما كانت لا تخلو من المبالغة - أن
 ملك ليون تغلغل فى أراضى الأندلس الاسلامية حتى كان على
 مسيرة يوم من قرطبة ، وبعد سنتين استولى أردونو على تاجرة
 واستولى حليفه سانكو ملك نافار على حصن بقىرة ، وكان
 لسقوط هذا الحصن وقع أليم فى نفوس مسلمى أسبانيا
 فقد أذيع أن جميع المدافعين قتلوا ، وكان من بينهم أفراد من
 الأسر الاسلامية العريقة البارزة ، ولو كان عبد الرحمن تقاعد
 عن الانتقام لأرغمه على ذلك رأى العام ، ولكن عبد الرحمن لم
 يكن فى حاجة الى من يحفزه للقيام بواجبه فى الدفاع عن رعيته
 ومعاقبة من يعتدى على أتباعه ، ولم ينتظر الوقت الذى كانت
 فى العادة المتبعة تبدأ فيه الصوائف ، وفصل من قرطبة فى
 سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) وكما يقول ابن عذارى (١) « بأنفذ
 عزم وأوكد حزم وأقوى نية فى الانتقام لله عز وجل ولدينه
 من الأرجاس الكفرة الأنجاس » ، ولما اجتاز حدود نافار كان

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ٢٧٨ .

اسمه قد أثار الرعب فى قلوب النافاريين فأخلوا القلاع
وفروا هاربين ، ومر بقلقرة وكان سانكو قد أخلاها فأمر بهدم
حصنها وإحراق جميع ما فيه ، وانتقل منه الى موضع يعرف
ببيطرة ألتة وكانت حوله حصون مانعة قد أخلاها حراسها ،
وخلفوا امتعتهم واطعمتهم اذ عوجلوا عن نقلها معهم ، ولجأ
فريق منهم الى ثلاثة غيران فى شفير جرف على النهر ، فتسور
عليهم جنود عبد الرحمن ، وقتلوههم وسبوا الذرارى وغنموا
الأمته ، وهدمت الحصون التى كانت فى تلك الجهة ، ولم
تبق منها صخرة قائمة ، وانتقل عبد الرحمن من هذه المحلة
الى حصن فالجش ، وكان من الحصون المنيعه ، فانتهب
المسلمون جميع ما به ، واتحل عبد الرحمن منه الى حصن
قرقستال على وادى أرغون ، وكان رجال الجيش ينهبون
ويحرقون كل ما يجدونه فى طريقهم ، وعزم عبد الرحمن على
التوغل فى نافار قاصداً بنبلونة ، وحاول سانكو عبثاً أن يوقف
تقدمه ، ولكنه كان فى كل مرة يرتد خائباً وينكص على
عقبه ، ووصل عبد الرحمن الى العاصمة دون أن يعتاقه عائق ،
ووجد المدينة قد خلت من سكانها فخرب الكثير من منازلها ،
وهدم كنيسة كان قد بناها سانكو وانفق على بنائها ، وكان
قد هدم قبلها الكنيسة الكاتدرائية ، وحاول سانكو أن ينقذ
الكنيسة القائمة على التل المجاور للمدينة ، ولكنه عجز عن
ذلك ، وجاءه مدد من قشتالة فحاول مرتين مهاجمة الجيش
الاسلامى فى تقدمه ولكنه باء بالفشل ، وشعر بقصر حيلته
وذله ومهانتة ، ويذكرنى موقفه من عبد الرحمن بقول المتنبى
لسيف الدولة الحمدانى : -

ومن لم تعلمه لك الذل نفسه

من الناس طراً علمته المناصل

وظل سانكو طويلا عاجزا عن القيام بأى عمل خائرا
مستضعفا .

ولم يكن هناك ما يخشاه عبد الرحمن من ناحية ليون ،
فقد كان أردونو الثانى الشجاع قد مضى به الموت قبل غزو
بمبلونة ، وأخوه فرويلا الذى خلفه لم يحكم سوى سنة واحدة
وكان كل ما أسهم به فى الحرب هو ارسال بعض الامدادات
لملك نافار ، وحينما مات حدث صراع على العرش بين سانكو
والفونسو ابنى أردونو الثانى ، وساعد سانكو ملك نافار
الفونسو - الذى أصبح الفونسو الرابع - وكان قد تزوج ابنة
سانكو النافارى فنجح فى ارتقاء عرش ليون ، ولكن هذا
النجاح لم يثن عزيمة سانكو ، فجمع جيشا وتزوج فى
شنت ياقيب دى كومبوستلا ، وبعد أن استولى على ليون انتزع
العرش من أخيه ، ولكن بعد سنتين - فى سنة ٣١٦ هـ
(٩٢٨م) - استولى الفونسو على ليون بمساعدة النافارين .
ولكن سانكو تمكن من استرداد جليقية ، ولم يعبأ عبد الرحمن
بالحرب الداخلية التى نشبت بين المسيحيين فى الشمال ،
وأغتنم الفرصة لاختاد الثورات فى داخل بلاده ، واستأثرت
باهتمامه مشكلات افريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ،
واستراح من مجاهدة الدولتين المسيحيتين فى الشمال حينما
من الزمن ، وقد انتهت الحرب الداخلية الأولى فى ليون سنة
٣١٧ هـ (٩٢٩) بوفاة سانكو ، وقامت حرب أخرى سنة
٣١٩ هـ (٩٣١م) فى تلك السنة ماتت زوجة الفونسو
الرابع ، فاشتد حزنه عليها ، واعتزل الملك ، وأخل العرش
لأخيه راميرو - وهو ثانى من تسموا بهذا الاسم من ملوك
ليون - وأوى الى الدير فى سهجون ولكنه لم يبلث أن مل حياة
الدير الرتيبة ، وهجر صومعته ، وأعلن نفسه ملكا فى شنت

منكش ، ولم يرض هذا المسلك القساوسة وسائر رجال الدين
المسيحي ، وانذروه بأنه سيصلى النار الحامية ان لم يعد الى
الدير ، فخضع واستجاب لهم ، ولكنه كان كثير التردد
لا يستقر على حال ، فسرعان ما خالجه الندم ، وخلع مسح
الراهب ، واغتتم فرصة غياب راميرو الثانى - وكان قد
ذهب الى نواحي طليطلة التى كانت تحاصرها جيوش
عبد الرحمن ليساعد أهلها فى رفع الحصار عن مدينتهم -
وبادر بالاستيلاء على ليون ، ولما علم بذلك راميرو الثانى أسرع
بالعودة ، وقام فى دوره بحصار ليون ، واستولى عليها ولكى
يمنع أخاه من العودة الى المطالبة بالعرش سمل عينيه ، وفعل
مثل ذلك بأولاد عمه فرويلا الثلاثة ، وسرعان ما شعر
عبد الرحمن بالتغير الذى حدث فى مملكة ليون ، فقد انقضى
الزمن الذى هدأ فيه باله من ناحية تلك المملكة ، فقد كان
راميرو الثانى الذى ولى الحكم فى ليون محرابا شجاعا ،
ويضم كراهة صماء وعداء شديدا للمسلمين ، وكان أول
ما وجه اليه اهتمامه مساعدة طليطلة تلك المدينة المتمردة على
سلطة الأندلس الإسلامية والتي طالما تحدث جيوش الأمراء
وتأبّت على الطاعة والخضوع ، ولذلك خف الى نجدتها
والمساعدة فى رفع الحصار عنها ، وفى طريقه اليها استولى
على مدينة مدريد ، ولكنه لم ينجح فى انقاذ طليطلة ، فقد
تقدم قسم من الجيش المحاصر لملاقاته وأرغمه على الارتداد ،
وترك المدينة لمصيرها ، وخارت عزيمة سكان المدينة واستولى
عليهم اليأس فنزلوا على أمر عبد الرحمن وفتحوا أبواب المدينة
كما سبق أن ذكرت وفى السنة التالية ٣٢٢ هـ (٩٣٣م) حالفه
الحظ ، فقد علم من فرنان جوائز ليس قومس فتشتالة أن
المسلمين يهددون وخشمة ، فتقدم لمحاربتهم وهزمهم ، وانتقم
منه عبد الرحمن فى السنة التالية (٣٢٣ هـ - ٩٣٤م) وكان

يريد أن يجعل سهول وخشمة التي وقعت فيها هزيمة الجيش الاسلامي تشهد انتصار هذا الجيش وتكون مسرحا له ولذلك حاول عبد الرحمن عبثا أن يستدرج راميرو اثنائي ويفريه بالنزول من معقله ، ولكن ملك ليون وجد أن الحزم يقتضيه أن يرفض الاشتباك في معركة ، فترك عبد الرحمن جزءا من جيشه أمام وخشمة ، وتابع تقدمه الى الشمال واستولى على مدينة برعش عاصمة قشتالة وأعمل فيها الهدم والتدمير ، وهدم ودمر حصونا أخرى كثيرة ، ولكن طرأ على الموقف بعد ذلك تحول ينذر بالخطر ، فقد كانت تقيم في أرغون منذ الفتح الاسلامي أسرة بني هاشم ، وقد أدت هذه الأسرة خدمات جليلة للأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن الأوسط حينما كان بنو قسي أصحاب السيطرة في ناحية أغون ، وقد استمر حكم هذا الاقليم وراثيا في أسرة بني هاشم أكثر من أربعين سنة ، وكانت الأسرة الوحيدة التي ظلت محتفظه بمكانتها في عهد عبد الرحمن الناصر في منطقة الثغر الأعلى ، ولكن محمد بن هاشم لم يكن منطويا على الولاء للناصر، وربما كان سبب ذلك نقمته على الناصر لقضائه على نفوذ زعماء العرب ، أو ربما كان الباعث له الطموح والرغبة في الطمع في العرش لنفسه ولأبنائه من بعده ، ولذلك عمل على التقرب من راميرو ملك ليون ، ووعده بالاعتراف بسيادته في مقابل مساعدته له ضد الخليفة الناصر ، وأغار راميرو تقربه منه أذنا صاغية ، وفي سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤م) كشف القناع عن نياته برفضه الانضمام الى الجيش الاسلامي ، وبعد ذلك بثلاث سنوات اعترف بسيادة راميرو ، ورفض بعض قواده متابعتة في طريق الخيانة ، وقطعوا علاقتهم به ، فقاد راميرو جيشه الى المقاطعة ، وهدم الحصون التي كان أصحابها يدينون بالولاء للخليفة ، وأسلمهم الى محمد ، وعقد راميرو ومحمد

مخالفة مع مملكة نافار ، وكان ملكها حينذاك الشاب جارسيا الذى كان يحكمها فى ظل وصاية والدته الملكة طوطة أرملة ملك نافار السابق سانكو الكبير ، وبذلك كانت أسبانيا الشمالية جميعها متحالفة ضد عبد الرحمن ، فالخطر الذى قد كان سبق الى وهمه أنه قد تبدد وخفت وطأته، عاد قويا بحسب له حساب ويستوجب اليقظة لمقاومته ، وتلقاه عبد الرحمن برحابة صدره المعهودة وثباته الذى لم يخذله ، ففي سنة ٣٢٧هـ (٩٢٨م) خرج عبد الرحمن الناصر من قرطبة على رأس جيشه ، واتجه الى ناحية قلعة أيوب وكانت تحت سيطرة مطرف أحد أقارب ابن هاشم وكان يعاون المدافعين عن القلعة عدد من المسيحيين أرسلهم راميرو من البية ، وقد سقط مطرف قتيلًا فى أول مناوشة وقعت بين الجيش المغير والمدافعين عن القلعة ، وخلفه فى القيادة أخوه الحكم ، ولكن بعد أن طورد الحاكم من المدينة الى القلعة سعى فى طلب الصلح وسأل عبد الرحمن الناصر الأمان له ولجيشه من المسلمين ، وقبل الناصر التسليم وأمر بقتل مقاتلى البية الذين لم تشملهم شروط المصالحة .

وأتبع عبد الرحمن هذا الانتصار الأول بالاستيلاء على ثلاثين حصنا ، وحول جيشه على التوالى الى نافار وسرقسطة، وعهد فى الاشراف على حصار سرقسطة الى أحد أمراء البيت الأموى ، وهو أحمد بن اسحق ، قائد الفرسان ، وكان عبد الرحمن قد أقامه أخيرا حاكما على منطقة الثغر الأعلى ، ولكن هذا القائد سرعان ما أثار غضب عبد الرحمن وأفقده ثقته فيه ، وقد عاش بنو اسحق فى أشبيلية فى فقر وخمول ذكر ولم يخل سلوكهم من الشوائب ، وبرغم ذلك فان عبد الرحمن لم ينس لهم قرابتهم البعيدة بأسرته ولم يترفع

عن شمولهم برعايته والاغداق عليهم ، ولكنهم لم يكونوا قانعين بحالتهم ، وكان طموحهم لا يقف عند حد ، وكان أحمد رأس أسرته في ذلك الوقت قطع في أن يجعله عبد الرحمن وليا لعهد ووارثا لعرشه ، ومع أنه أظهر تراخيا وتقصيرا شديدا في الاشراف على حصار مرقسطة ، ضايق عبد الرحمن وأحنقه فانه أرسل في الوقت نفسه الى عبد الرحمن يعرض عليه طلب ولاية العهد ووراثة العرش ، ورأى عبد الرحمن في هذه الرسالة نوعا من الاجترار الوقح أحفظه وبعثه على أن يرد عليه برسالة شديدة اللهجة عيره فيها بماضى أبيه وماضيه وذكر له أيادييه عليه ، وأخذ بيده وتنكره له ، وتطاوله عليه بالمطلب الذى عرضه ، وذكر له أنه باكرامه له ومحاولة رفع مستواه وضع الصنيعة في غير مكانها . وأسبغ الرعاية على من لا يستحقها ، وختم الرسالة بلعن من أشار عليه بتقديمه واصطناعه والاحسان اليه .

وبعد أن عزل أحمد بن اسحق مذموما مدحورا بدأ ياتمر بعبد الرحمن ، واشترك معه أخوه أمين في نسج خيوط المؤامرة ، وكشف الخليفة تأمرهما ، وأمر بنفيهما ، فاستولى أمية على شنترين ورفع علم الثورة ، وأتصل بملك ليون وزودة بنصائح ثمينه ومعلومات قيمة ، ودله على بعض نواحي الضعف في أجزاء الامبراطورية الاسلامية ، وفي ذات يوم بينما كان في خارج المدينة قام أهلها برد السلطة فيها الى انخليفة ، فلاذ أمية بحمى راميرو ، وظل أخوه أحمد مقبلا على نسج خيوط التآمر بهمة لا يعثرها فتور ، ووضع خطة لضم أسبانيا للفاطمين الذين كان يرأسهم ، ووقف الناصر على هذه الخطة وأمر بالقبض عليه وحكم عليه بوصفه شيعيا وأعدم .

وانتصر عبد الرحمن في الشمال ، وسلم للناصر محمد

ابن هاشم بعد أن حوَّصر في سرقسطة ، ولما كان محمد هذا معروف المكانة في المنطقة التي حكم بها ويمكن الاعتماد عليه فقد رأى عبد الرحمن من الكياسة وحسن السياسة أن يعفو عنه ويقره في وظيفته ، وبعد أن ثقت الملكة طوطة الهزائم المتوالية عملت على استرضاء عبد الرحمن واللياذ بعطفه وتسامحه واعترفت بسيادته على نافر ، وأصبح عبد الرحمن صاحب السلطة في أسبانيا جميعها باستثناء مملكة ليون وجزء من قطلونيا .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يقضى على التحالف الخطر، ووجه اهتمامه الى تحطيم قوة خصمه الشديد الشكيمة الكثير العناد راميرو الثاني ملك ليون ، وكان هو في الواقع محور النضال الحقيقي ، ففي صيف سنة ٩٣٩م (٣٢٧ هـ) تآهب عبد الرحمن للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون وحشد جيشا ضخما بلغ تعداد رجاله زهاء مائة ألف وعهد بقيادته الى نجدة الصقليين ، وكان عبد الرحمن قد قرب الكثيرين من الصقالبة وبوأهم مراكز سامية ومناصب كبيرة في القصر وفي الجيش مما أثار حنق زعماء العرب ، وتقدم عبد الرحمن بجيشه دون أن يحسب حسابا للعوامل الخفية التي كانت تعمل على صدع وحدة هذا الجيش الضخم، وتفت في عضده ، وتآهب راميرو الثاني بكل ما وسعه من قوة للقاء عبد الرحمن ، وكانت الملكة طوطة قد نكثت العهد ، وتجاهلت مصالحها لعبد الرحمن ، وحالفت ملك ليون ، وعاد التحالف بين نافر وليون الذي ظن عبد الرحمن أنه قد قضى عليه وتخلص من شره ، واقتحم عبد الرحمن بجيشه حدود مملكة ليون وزحف على مدينة سمورة ، ويتحدث المسعودي عن هذه

الغزوة قائلا «(١) غزا عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة في أزيد من مائة ألف فارس من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهي مدينة يقال لها سمورة ، عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين ، ثم ان أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم - ممن أدرك الاحصاء ومن عرف - أربعين ألفا . وقيل خمسين ألفا ، وكانت للجلالقة والوشكند على المسلمين» .

وقيل (٢) ان الذي منع راميرو من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق ، وخوفه الكمين ، ورغبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعد والحزائن ، ولولا ذلك لآتى على جميع المسلمين ، ثم ان أمية استأمن بعد ذلك الى عبد الرحمن وتخلص من راميرو ، وقبله عبد الرحمن أحسن قبول ، .

ويرى المؤرخ دوزى أن اختيار نجده قائدا عاما لهذه الحملة جعل غضب القواد العرب يبلغ أقصى شدته وتعاهدوا في غضبهم على أن يجعلوا الخليفة يكفر عن هذه المعاملة التي تنم على احتقاره للأشراف القدامى بهزيمة شنعاء تلحق جيشه .

زيروى دوزى أن الجيش قصد شنت منقش ، وتصدى له جيش راميرو الثاني وجيش حليفته الملكة طوطة ، ونشبت بين الفريقين معركة في ٥ أغسطس سنة ٩٣٩م فأبدى رؤساء العشائر العربية فتورا في انقتال وتراجعوا أمام النصارى ولكنهم لم يتوقعوا نتائج ما حدث ، فقد طاردهم الليونيون ،

(١) الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى صفحة ١٦٢ .

(٢) الجزء الأول من نفح الطيب للمقرئ صفحة ٣٣٢ .

وحيثما وصل المسلمون الى بلدة الخندق الواقعة في جنوب شلمنقة لم المسلمون شعبتهم واستجمعوا قواهم وواجهوا العدو ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة ، ونجا الخليفة بصعوبة من سيفوف المسيحيين ، وبعد الخندق تحول الارتداد والتقهقر الى فساد واخلل واضطراب وأمعن النصارى في الجيش الاسلامي قتلا وأسرا ، وقتل نجدة الصقلي قائد الجيش ، وأسر محمد ابن هشام حاكم سرقسطة ، وكان يحارب ابي جنب عبد الرحمن في هذه الغزوة ، وحمل مصفدا الى ليون . وأثنى عبد الرحمن نفسه جراحا ، فولى شطر قرطبة في نفر من الفرسان ، ولم يحاول راميرو أن يكمل استغلال نصره بمطاردة المسلمين ، أخذا بتحذير أمية بن سحوق من ناحية وطعما فيما خلفه الجيش المنهزم من الأسلاب والغنائم الضخمة من ناحية أخرى ، ولولا ذلك لفنى الجيش الاسلامي جميعه ، وقد كانت هذه الهزيمة أشد صدمة نقيها عبد الرحمن الناصر طوال حياته ، وخاب أمله فيها خيبة لم يعهدها من قبل ، وقد سمي هذه الغزوة حينما كان يستعد للقيام بها «غزاة القدرة» لأنه عول على أن يجعلها قاضية على راميرو الثاني ملك ليون ، وفي رواية أن من أسباب الهزيمة أن معظم جيش المسلمين كان من المتطوعة والقسوات غير النظامية ، وحدث خلاف بين قادة الجيش من الأندلسيين والصقالبة ، وكانت هذه الغزوة آخر غزوة غزاها عبد الرحمن بنفسه ، ويرى المؤرخ ليفي بروفنسال أن تحليل دوزي لأسباب هزيمة عبد الرحمن في هذه الغزوة بأن مردها الى تأثير الصقالبة في بلاطه لا يخلو من الحقيقة ولكنه لا يفسر أسباب هذه الهزيمة تفسيراً كاملاً ، وأكثر اللوم في رأيه يرجع الى عبد الرحمن نفسه ، فقد بالغ في تقدير قوته ، وأنكار قوة خصمه ، وخال هذه الحملة التي سماها «غزاة القدرة» أنها ستكون حاسمة ، وأنه سيلقن بها

مسيحيي الشمال درساً لا ينسونه بعدها ، ويرهب سائر
جيرانه من المسيحيين الاسبانيين ، وكان قد تزوج أخت نجدة
الذى عهد اليه بقيادة الجيش وأسمها «أم قريش» وكان قد
شاهدها تغتسل عند جدول من الجداول فأحبها وفتنه جمالها ،
ويقول بروفنسال ان جيش عبد الرحمن في هذه الغزوة برغم
ضخامته وكثرة عدده لم يكن حسن التنظيم ، وان الظروف
كانت شديدة قاسية على جيش عبد الرحمن لشدة ثبات جيش
العدو وضراوته ، ويقول ان راميرو لحظ عند أسوار شنت
منقش أن الجند النظاميين الذين يكونون الجزء الرئيسي في
جيش عبد الرحمن كانوا لا يحاربون الا بحماسة نسبية ،
فهاجمه واضطره الى التقهقر ، وقاده بذلك نحو خندق كان قد
حفره للدفاع على مسافة من المدينة ليشتغل على الأعداء اذا
لاذوا بأذيال الفرار ونجحت حيلته ، فقد عاق هذا الخندق
تراجع الفرسان ، فقتل منهم الألوف ، وذعر عبد الرحمن من
هذه العقبة غير المنتظرة ، ولاذ بالفرار تاركاً في المعسكر
مصحفا لا تقدر قيمته كان يصحبه دائماً في غزواته ، ودرعا
من الذهب ، وقد أعيد اليه بعد ذلك وكانت هذه المعركة
صدمة شديدة لكبرياء عبد الرحمن وثقته بنفسه .

ويقول ليفي بروفنسال ان الخليفة في ذلك اليوم كان
بعيدا عن تسويغ حمله بحق لقب «الناصر» وقد عاد الى قرطبة
بعد أن تناثر جيشه وتقدمته طليعة لتعلن أنه سليم معافى ،
وتنقل أمره برفع برقع القوائم على شاطئ نهر الوادى الكبير ،
وعند وصوله أمر بإعدام ثلاثمائة من رجال جيشه متهماً إياهم
بالجبن والتخاذل ، وأمر منادياً بأن ينادى قائلاً : « هذا جزاء
الذين خانوا الاسلام ، وغشوا أهله وبذروا بذور الفرقة
والشغب في صفوف المحاربين في المعركة المقدسة . »

وسجن راميرو الثانى محمد بن هاشم حاكم سرقسطة، ولم يسس له أنه انضم إلى جيش عبد الرحمن حينما تقدم فى الثغر الأعلى لآخذ عاصمته ، ونقله فى المطبق إلى ليون ، وقد ظل فى السجن سنتين قبل أن يحصل على حريته ، وأقسم عبد الرحمن بأنه لا بد له من أن ينتقم لهزيمته ولكن على شريطة ألا يعرض نفسه لآخطار الحرب ، ومنذ هذه الهزيمة كان يعهد بقيادة الجيش لآحد قواده ، وقد كان لآنتصار راميرو فى هذه المعركة وقع عظيم فى أوروبا وفى العالم الاسلامى اكسبه شهرة بعيدة المدى جاوزت حدود أسبانيا ، ولحسن حظ عبد الرحمن لم تمكن ظروف الحرب الداخلية التى حدثت بين المسيحيين راميرو الثانى من أن يجتنى كل الثمرات التى كان ينتظر أن ينالها من وراء هذا الانتصار ، ولذلك لم تحدث هزيمة جيش عبد الرحمن أثرا بعيد المدى فى قوة الأندلس الاسلامية ومناعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عودته إلى قرطبة جهدا فى إعادة تنظيم جيشه وإصلاحه وتطهيره من العوامل الخطيرة التى أدت إلى وقوع هذه الكارثة، وتخلص أمية بن اسحاق من راميرو واستأمن عبد الرحمن فقبله عبد الرحمن أحسن قبول ، وكان عبد الرحمن يؤثر دائما أن يستميل خصومه الأقوياء الذين يرجى نفعهم ، ويستفاد من كفاياتهم ، ولا يرى بأسا فى العفو عنهم والاعضاء عن سابق هفواتهم ، ولم يغفل عبد الرحمن عن السعى لاقتداء محمد بن هشام الذى ناصره ووقف إلى جانبه ، وقبل راميرو اقتداءه بعد أن لبث فى سجن ليون زهاء ثلاث سنين .

وكانت ولاية قشتالة ترمى إلى الانفصال عن مملكة ليون ، وحتى فى عهد اردونو الثانى والد راميرو ثارت مطالبة بالاستقلال ، وأعلن الملك أنه من أجل تسوية الخلاف بطريقة

ودية سيعقد مجلسا استشاريا في تليارة الواقعة على شاطئ
نهر كارون الذي يفصل لون عن قشتالة ودعا إليه قوامس
قشتالة الأربعة ، وحينما قدموا أمر باعتقائهم والاطاحة
برؤسهم ، ولم يجادل الليونيون في أن الفصل في الموضوع
بهذه الطريقة كان لا يخلو من مخالفة للأصول المرعية والأشياء
المألوفة ، ولكنهم مع ذلك أعجبوا بحزامة ملكهم ، وبراعته
السياسية ، ولكن القشتاليين نظروا الى الأمر بطبيعة الحال
من زاوية أخرى ، وحينما حرموا من قادتهم ظلوا حينما من
الزمن حائرين خائري العزيمة يترقبون الساعة التي يقوم فيها
على رأسهم رجل مقدامة يستطيع أن ينتقم لهم من الليونيين
الحونة الغادرين ، وأخيرا حانت تلك الساعة التي كانوا
ينتظرونها بفارغ الصبر وقد وجدت قشتالة الرجل الذي
يستطيع أن تكل اليه قيادتها وينهض بالثار لكرامتها وكان
هذا الرجل الكونت فرنان جونزاليس ، الذي أصبح فيما بعد
أحد أبطال العصر الوسيط المحبوبين يشيد ببطولته الشعراء
في قصائدهم ويترنم بها المغنون في أغانيهم وما زال
القشتاليون يذكرون اسمه مقرونا بالتبجيل والاكبار حتى
اليوم ، وفي الوقت الذي كان فيه عبد الرحمن يهاجم عاصمة
بلاده ويهدم بيعها وصوامعها وقلاعها لم يكن من المنتظر أن
يعمل الكونت العظيم - كما كان يسميه القشتاليون - على
خلع نير الليونيين ، ولكنه بعد هزيمة عبد الرحمن في معركة
الخندق قدر أن العرب سيظلون حينما من الزمن غير مرهوبين
الجانب ، وأن الفرصة للخلاص من سيطرة ليون قد لاحت ،
فلم يتردد في اعلان الحرب على الملك راميرو الثاني ، أما
عبد الرحمن فقد وجد متسعا من الوقت لتنظيم جيشه
واستكمال أهبته وفي نوفمبر سنة ٩٤٠م (٣٢٩هـ) أرسل

جيشا تحت قيادة أحمد بن يعلى حاكم بطليوس فهاجم حدود مملكة ليون .

ويقول ابن عذارى : « أنه (١) قتل وسبى وأسر ، وأرسل مع كتابه الى قرطبة مائتى عالج أسراء ، وكان هذا أول فتح لابن يعلى أذل به الطاغية ردمير (راميرو الثاني) » .

وحالف الحظ الملك راميرو الثانى فى الحرب التى نشبت بينه وبين القومس فرنان جونزاليس ففاجأ عدوه وغلبه على أمره وأسره وسجنه فى ليون وأقام على حكم قشتالة اسور فرناند قومس منتشون واستبدل به بعد ذلك ابنه سانكو ، ولم يقنع راميرو بهذا الانتصار وأتبعه بمصادرة الأرض التى كانت فى حوزة فرنان جونزاليس ، ولم يستول عليها جميعها وإنما منح بعضها لفرسان قشتالة البارزين ذوى المكانة المرموقة ولرجال الدين لكى يكتسب مودتهم ويحظى بمناصرتهم له ، ولكنه أخفق فى تحقيق هذه الغاية ، فبرغم استفادة القشتاليين من هذا الكرم السياسى ظلوا شديدى التعلق ببطلهم الأسير ، وصنعوا له تمثالا كانوا يقدمون له الطاعة والولاء ، ولم يستطيعوا أن يصبروا كثيرا على بقائه فى الأسر كما تدل الأنشودة القديمة التى تعد من روائع أناشيدهم وتعبر عن اعتزامهم على صدع قيوده وإطلاق سراحه ، ومنها « لقد أقسم الجميع على أنهم لا يعودون الى قشتالة دون أن يكون معهم سيدهم الكونت ، وقد أقاموا له تمثالا فى عربة حربية وعقدوا الحناصر على ألا يرجعوا الا اذا رجع معهم ، وبعد أن قدموا الولاء وضعوا علم الكونت الى جانب تمثاله ، وقبلوا جميعا سواء الشبان والشيوخ يد التمثال ، وقد خلت برغش

- (١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٣١٥ .

وأحوازاها من سكانها ولم يبق بها سوى النساء والأطفال ، وفي
أنشودة أخرى «لقد حملوا بعيدا كونت قشتالة العظيم الى
ليون ، ثم قيدوا رجله الى يديه قيذا مؤلما ، وطار بهم الفرع ،
وأولوا الولائم لاقتناصه ، حقا أن سجن الملك راميرو يضم
أشجع بطل في آسبانيا » .

وخشى الملك راميرو عاقبة غضب القشتاليين لحبس
زعيمهم المحبوب فلم يجد بدا من الاستجابة لرغبتهم فأطلق
سراحه ، ولكن بشروط قاسية مذلّة ، فقد أرغمه على أن يقسم
يمين الولاء والطاعة له ، وأن يتنازل عن كل ما يملك وأن يعد
بتزويج ابنته لأحد أولاد راميرو ، وكان هذا هو الثمن
لنيل الكونت حريته ، ومن الطبيعي أن يمتنع بعد ذلك عن
مناصرة الملك الذي أمعن في اذلاله كما لم يرض القشتاليين
عدم رد السلطة الى هذا الرجل الذي كانوا يعدونه سيدهم غير
مدافع ، وفقد راميرو بذلك معاونة أشجع رعاياه ، ومن ثم
عجزه في مدافعة الغارة التي قام بها المسلمون سنة ٩٤٤م
(٣٣٢هـ) على جليقية (١) بقيادة القائد أحمد بن محمد بن الياس ،
وقد استطاع هذا القائد أن يغنم ويحرق جملة من حصونهم
هنالك وقفل راجعا ، واستطاع الناصر في سنة ٣٣٥هـ (٩٤٦م)
أن يعيد بناء مدينة سالم بالشغر الأوسط الشرقي وهي مواجهة
لقشتالة ، وعهد في ذلك الى قائده غالب الناصري ، وأنفذ
العهد الى قواد الشغر بالاجتماع لبنيانها ، فسارعوا الى أمره ،
وبنيت أحسن بناء ، ونزل بها المسلمون ، وأصبحت قاعدة
هامة لمهاجمة قشتالة ، ويقول ابن عذارى انه «في سنة
٣٣٦ هـ (٩٤٦م) ورد على الناصر كتاب من قند مولى الناصر
القائد يومئذ بطليطلة يذكر فيه غارته على أهل جليقية، وكان

(١) الجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ٣١٦ .

أقصى ما يستطيعه راميرو الثاني المنتصر في موقعة شنت منقش والخذق أن يقف من غارات قواد عبد الرحمن موقف المدافع، ولم ينشط الى القيام بغارة على الحدود الاسلامية الا في سنة ٩٥٠م (٣٣٩هـ) وأحرز انتصارا قرب مدينة طليبة ، وفي السنة نفسها قام القائد أحمد بن يعلى بغارة على جليقية ، وافتتح ثلاثة حصون ، وفي يناير سنة ٩٥١م انتهت حياة راميرو الثاني ، وحينما اختفى هذا الخصم اللدود من الميدان كان نفوذ عبد الرحمن قد بلغ الذروة ، وازداد اطمئنانا من ناحية مملكة ليون لوقوع الحرب بين ابني راميرو .

وكان راميرو الثاني قد تزوج مرتين ، فولدت له زوجته الأولى ، وكانت جليقية ، ابنه أردونو ، وكان له من زوجته الثانية - اوراكا أخت غرسية ملك نافار - ابن آخر هو سانكو ، ولما كان أردونو هو الابن البكر لذلك كان من الطبيعي أن يطالب بوراثة عرش أبيه ، ولكن سانكو نازعه في ذلك اعتمادا على مساعدة النافاريين له ، وقد حاول كذلك الاستعانة بتأييد فرنان جونزاليس والقشتاليين له ولم يكن من الصعب على فرنان اختيار الجانب الذي يناصره ، وحقيقة ان فرنان كان حما أردونو ولكنه لم ينس انه أرغم على قبول أردونو زوجا لابنته ، وكانت هناك روابط عائلية تربطه بسانكو فقد كان سانكو ابن أخت زوجته وكان يستطيع الاعتماد على تأييد الملكة طوطة النافارية حماة فرنان وفضلا على ذلك فان سانكو وعد فرنان وعدا خلايا لم يترك له سبيلا للتردد ، فقد وعده بأن يرد اليه أملاكه المصادرة ويقيمه حاكما على قشتالة، فدعا فرنان أعوانه الى حمل السلاح ، وصحب سانكو والجيش النافاري في الهجوم على ليون لانتزاع عرشها من قبضة أردونو الثالث ، وفي أثناء هذا الصراع على وراثة العرش كان

قواد عبد الرحمن يوالون الغارات الظافرة على الحدود ، وفي سنة (١) ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) وردت قواد الثغور على الناصر وفيهم غالب ومطرف ومحمد بن يعلى وهذيل بن هاشم التجيبي وغيرهم وذكروا له أنهم اقتحموا حدود قشتالة ، وقصدوا حصنا من حصونها وتغلبوا على أرباضه وحينما وافتهم جموع النصرانية دارت معركة قتل فيها من الاسبانيين مقدار عشرة آلاف ووردت الى قرطبة الرؤوس المحتزة في هذه الهزيمة نحو خمسة آلاف رأس ، فأمر الناصر برفعها حول سور قرطبة ، وكان معظم هؤلاء القتلى من القشتاليين ، وقد أحرز فرنان انتصارا في مناوشة عند مدينة شنت أشتيبن كما استطاع أردونو الثالث - بعد أن طرد أخاه وأرغم الجليقيين الذين نادوا به على الطاعة - أن يرد على غارات جيوش عبد الرحمن بمهاجمة لشبونة ونهبها ، ولكن هذه الهجمات كانت هينة الشأن بجانب الغارات التي قامت بها الجيوش الأندلسية على المسيحيين ، وخشى أردونو الثالث قيام ثورات أخرى في مملكته ولذلك سعى في طلب الصلح من عبد الرحمن، وأرسل رسله الى قرطبة في سنة ٩٥٥ م (٣٤٤هـ) وقبل الناصر هذه المبادرة ، وأرسل محمد بن حسين ومعه اليهودي شبروط لاجراءالمفاوضة مع أردونو الثالث ، ولم تستمر المفاوضات طويلا فقد كان أدونو مستعدا لقبول شروط عبد الرحمن - وكان أكثرها بطبيعة الحال الموافقة على تسليم بعض الحصون وهدم حصون أخرى - وتم الاتفاق على أسس المعاهدة ، وعاد الرسولان الى قرطبة ليقر عبد الرحمن الاتفاق ، وبرغم أن المعاهدة كانت مشرفة ونافعة إلا أن عبد الرحمن كان يطمع في شروط أحسن عائدة وأبقى أثرا ، ولكنه كان قد تقدمت به

(٢) الجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذاري صفحة ٣٢١

(١) البيان المغرب لابن عذاري الجزء الثاني صفحة ٣٢٨ .

السن وناهر السبعين ، ولذلك استشار ابنه وولى عهده بعده الأمير الحكم ، وكان الحكم بطبيعته ميالا إلى التسالمة فقبل المعاهدة ورضيها وأشار على الخليفة الناصر باقرارها ، فأقرها الناصر وبعد ذلك بقليل عقد الناصر اتفاقا مع فرنان جونزاليس ولم يبق بعد ذلك فى أسبانيا خصوم للمسلمين سوى النافرين ، وكان مما دعا الناصر الى قبول التساهل مع أردونو الثالث أنه كان يريد أن يوجه جيوشه الى مقاومه الفاطميين الذين كانت قوتهم فى تزايد مستمر وكان يخشى تطلعهم الى الاستيلاء على الأندلس ، وبعد اقرار المعاهدة مع أردونو الثالث أعد حملة ضخمة لمهاجمة الفاطميين ، وفى أثناء انهماكه فى استيفاء الاستعداد لتوجيه هذه الحملة بلغه خبر وفاة أردونو الثالث فى سنة ٩٥٧م (٣٤٦هـ) وقد قبل أردونو الصلح واستجاب لمطالب عبد الرحمن ، وكان فى طليعة تلك المطالب تسليم بعض القلاع وهدم قلاع أخرى ، ولكن سانكو الذى نازع أخاه على العرش والذى خلفه عليه دون أن يلقى معارضة أبى أن يجيب هذين المطلبين ؛ ولذلك اضطر عبد الرحمن أن يحتجز القوات التى كان قد أعدها للارسال الى أفريقية ويوجهها الى مملكة ليون وأرسل الأوامر التى تتضمن ذلك الى قائده الشجاع أحمد بن يعلى حاكم طليطلة ، فتولى هذا القائد المظفر قيادة الجيش وانتصر انتصارا رائعا على ملك ليون ، وكان لهذا الانتصار وقع حسن فى نفسه لأنه لم يكن يريد هذه الحرب ولكن سلوك سانكو ملك ليون هو الذى أرغمه على خوضها .

وأراد الملك سانكو أن يكسر شوكة الأشراف فى مملكته ويقضى على نفوذهم فأضمرؤا له العداة ، وامتزج هذا العداة بالاحتقار والاستخفاف به ، ومن سوء حظه أنه فقد الصفات

التي قربته في بادئ أمره من قلوب رعاياه ، فقد ازدادت بدانته وأفرطت حتى أصبح عاجزا عن امتطاء صهوة جواده ، وصار لا يقوى على المشي الا اذا كان مستندا على أحد أتباعه ، وبذلك كثر الاستهزاء به ، وبدأت تخالج نفوس رعاياه الرغبة في خلعه والخلاص منه ، وزادهم رغبة في ذلك تحريض الكونت فرنان ، ودبرت مؤامرة في الجيش لخلعه ، وفي أحد أيام الربيع سنة ٩٥٨م (٣٤٧هـ) طرد من مملكته ، وبينما كان يسير في طريقه الى بنبلونة مبتعدا محزوننا ولاجئنا الى حمى خاله غرسية عقد فرنان جونزاليس وغيره من الأعيان اجتماعا لاختيار ملك يولونه عليهم ، ووقع اختيارهم على أردونو - وهو رابع من تسموا بهذا الاسم - ابن ألفونسو الرابع - وهو ابن عم سانكو - ولم يكن له الصفات ما يؤهله لارتقاء العرش سوى انتسابه الى بيت الأسرة المالكة ، وكان أحذب أشوه وضيق النفس دنيء الطبع مطبوعا على الخبيث ولذا عرف بعد ذلك بلقبه « أردونو الخبيث » ، ولم يكن هناك أحد من أفراد الأسرة المالكة قد بلغ سن الرشيد على قيد الحياة ، ولذلك كان اختياره ضرورة لا محيد عنها ، وزوجه كونت قشتالة ابنته أوراكا أرملة أردونو الثالث وفي أثناء اجراء عملية الانتخاب كان سانكو في بنبلونة يروى ما أصابه ويبسط شكواه ، فعطفت عليه جدته الملكة طوطة ، وكانت لا تزال تحكم نافار باسم ابنها برغم أنه قد بلغ منذ سنوات طويلة السن التي تؤهله لتولى الحكم ، وأخذت على عاتقها أن تناصره وتعيده الى ملكه مهما يكلفها ذلك من الجهد والمشقة ، ولم يكن القيام بهذا العمل من هين الأمور ، فان سانكو لم يكن له أصدقاء يمكن أن يخفوا الى مناصرته في ليون ، ولم يكن لملكة نافار من القوة ما يكفي لفرض ارادتها على مملكة ليون ، ولذلك كان لزاما على طوطة أن تبحث عن

حليف قوى يستطيع أن يساعدها فى الهجوم على ليون وقشتالة
معا ، ولكى يحتفظ سانكو بعرشه اذا رد إليه وأعيد الى
جلوسه عليه فانه كان من اللازم أن تزول سمته ، ويسترد
رشاقته ، حتى لا يكون أضحوكة لرعيته ، ولم تكن هذه
البدانة المفرطة فى طبيعة بنيته ، وانما كانت علة طارئة يمكن
الطبيب الماهر أن يتولى علاجها ويبرئه من عقابيلها ، وفى
قرطبة وحدها مستقر العلم ومنزل الاستنارة يوجد مثل هذا
النطاسى البارع ، وفى قرطبة كذلك تستطيع الملكة طوطة أن
تجد الحليف القوى الذى يستطيع أن تعتمد عليه وهى واثقة
بانتصار قضيتها وتحقيق غايتها ، وموجز القول أنها صممت
على أن تلتمس عند عبد الرحمن الدواء الذى يشفى علة حفيدها
والجيش الذى يعيده الى عرشه ، وكان من الصعب على كبريائها
أن تنزل الى طلب المساعدة من هذا الملك الذى ظلت الحرب
قائمة بينه وبينها أكثر من ثلاثين عاما ، والذى لم يمر عام
دون أن يهاجم أوديتها ، ويقتحم حدودها ، ويحرق قراها
ويهدم قلاعها ، ولكن شدة تعلق الملكة طوطة بحفيدها ،
وحرصها على أن تعيد إليه عرشه ، وترد إليه ملكه ، وغضبها
للمعاملة السيئة التى عومل بها ، كل هذه العوامل تجمعت
لتقاوم نفورها من موالة عبد الرحمن والالتجاء الى حماه ولذلك
بادرت بارسال وفد من قبلها الى قرطبة مزودا برسالة منها .

وحينما علم عبد الرحمن بموضوع الرسالة وافق على
ارسال طبيب من قبله ليتولى علاج سانكو ، ووعد بارسال
المساعدة الحربية للملك المخلوع بعد قبول الشروط التى
سيتمنى عرضها أحد وزرائه على الملكة طوطة فى بنبلونة ،
وبعد أن غادر الوفد النافارى قرطبة استدعى عبد الرحمن
الناصر طبيب بلاطه اليهودى حسداى بن شبروط ، وزوده

بالتعليمات اللازمة ، وأمره بالسفر الى بلاط نافار ، وكان حسداى مستأهلا للقيام بمثل هذه السفارة فقد كان يتقن الحديث بلغة مسيحيى الشمال ، وكان يجمع بين المهارة فى الطب والبراعة فى السياسة ، وكانت شهرته برجاحة العقل ، وغزارة العلم ، وتعدد المواهب من المسائل الشائعة التى كثيرا ما تداولتها الألسنة ، وكان قبل ذلك بقليل قد قال عنه أحد السفراء الذين وفدوا من أقاصى ألمانيا على قرطبة أنه لم ير له مثيلا فى اللباقة السياسية والحنكة الدبلوماسية ، وعند وصول هذا اليهودى الى بنبلونة سرعان ما اكتسب ثقة سانكو بدأ علاجه مؤكدا له الشفاء السريع ، ثم ذكر له أن الخليفة عبد الرحمن فى مقابل هذه الخدمة التى سيقوم بها فى سبيل ابرائه من البدانة يريد أن تسلم اليه عشرة حصون ، فوعد سانكو بتسليم الحصون المطلوبة لعبد الرحمن متى رد اليه عرشه واستعاد ملكه ، ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ، فقد كان الخليفة قد أوصى حسداى بأن يعمل على اغراء الملكة طوطة على زيارة قرطبة ومعها حفيدها سانكو ، وكان الخليفة يرمى بذلك الى اشباع كبريائه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يخلب الباب رعيته ويوطد ثقتهم به واعلاءهم لشأنه واعجابهم بمواقفه بأن يعرض على أنظارهم مشهد الملكة المسيحية والملكين سانكو وغرسية وهم يقدمون له الولاء ويلتمسون مساعدته ، ولم يكن من السهل حمل الملكة طوطة على قبول ذلك ، فقد كان فى ارتحالها الى قرطبة اذلال لكبريائها أكثر وأشد على نفسها من الاذلال الذى تجرعته حينما وجدت نفسها مضطرة الى التقرب من عبد الرحمن وطلب مهادنته ونشدان مساعدته ، ولذلك كان هذا هو الجزء الشائك الدقيق العويص فى سفارته والذى يحتاج الى كل ما أوتى من حسن التأتى وسعة الحيلة ولطافة المدخل وبراعة العرض ، وقد استطاع هذا اليهودى

البارع القدير أن يبرر كل الصفات التي اتصف بها ويشبت ويؤكد ما اشتهر عنه من أنه أقدر ساسة العصر وأبرع سفرائه ، فقد تمكن بلين كلماته وعذوبتها ونضج حكمته وعمق دهائه وسعة حيلته من أن يجعل الملكة تدرك أن استعادة عرش حفيدها رهن بقبولها لهذه الرحلة المطلوبة الى قرطبة .

وحضرت الى قرطبة الملكة طوطة ومعها ابنها جارسيا وسانكو السييء الحظ وكان يمشى مستندا على حسدای لأنه لم يكن قد استعاد صحته واستكمل علاجه بعد وصحبها عدد كبير من أعيان الدولة ورجال البلاط والقساوسة ، واحتفل الخليفة عبد الرحمن بقدمهم احتفالا فخما رائعا ترك في نفوسهم أثرا عميقا وأظهر لهم عظمة ملك عبد الرحمن وروعته وضخامة ثروته وسمو حضارته ، وشعر عبد الرحمن بأنه قد أشبع طموحه وأرضى عزته وكبريائه واعتداده بنفسه حينما رأى ابن خصمه العنيد راميرو الثاني الذي أنتصر في معركة شنت منقش ومعركة الحندق والملكة طوطة الجريئة التي قادت جيوشها الى النصر في معارك لها تاريخ يقدمان له دلائل الطاعة والولاء ولكنه أخفى مشاعره وتلقى ضيوفه بكياسته المعهودة وكرم أخلاقه المعروف ، وجدد سانكو وعده بتقديم الحصون العشرة الذي سبق أن اتفق عليه مع حسدای ، واستقر الرأي على أن يهاجم جيش مملكة ليون في الوقت الذي يغزو فيه جيش نافار قشتالة ويستدرج قوات فرنان جونزاليس بعيدا عن مملكة ليون .

وتقدم بعد ذلك جيش عبد الرحمن لمهاجمة مملكة ليون وصحبه سانكو ، وكان قد أفاد من علاج حسدای فخف وزنه وزالت بدانته وأصبح نشيطا خفيف الحركة كما كان قبل أن يبتلى بالبدانة ، وكانت سمورة أول مدينة استولى عليها الجيش ، ولم يأت ابريل سنة ٩٥٩ م (٣٤٨ هـ) حتى كان

سانكو قد استرد سلطته على جزء كبير من مملكته ، وكانت العاصمة لاتزال خاضعة لأردونو الرابع ولكن في خريف سنة ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) فر من العاصمة أردونو الرابع ولجأ الى استريش ، وسلمت العاصمة لسانكو ، ولما استرد سانكو مملكته أوفد رسولا الى الخليفة يبلغه شكره له لمساعدته له في استرداد ملكه ويعلن للدول المجاورة عودته الى السيادة على مملكة ليون ، وفي الرسائل التي تضمنت هذا الاعلان اشار اشارات قاطعة الى عدم ولاء قومس قشتالة ، وهاجم النافاريون قشتالة طبقا للخطة الموضوعة وفي السنة نفسها - سنة ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) وحاربوا القومس وتمكنوا من أسره ، وتخلص الليونيون من اردونو الذي كان مكروها ومحتقرا وفرضه عليهم فرنان ، وبعد قليل طرده أهل استوريش وخضعوا لحكم سانكو واضطر أردونو الى اللياذ ببرجس ولم يزل الناصر على موالاته واعانتته لملك ليون .

وفود الأمم في بلاط عبد الرحمن الناصر

يقول الأستاذ المؤرخ ج . ب . ترند مؤلف كتاب « حضارة أسبانيا » في الفصل القيم الذي كتبه في « تاريخ العالم » الذي نشره بالانجليزية السير جون ا . هامرتن (١) ومع أن عصر أمراء قرطبة وخلفائها يعد أزهى عصور أسبانيا الإسلامية فإنه لم يبق من عمائر هذا العصر إلا المسجد الجامع إذ أن عبد الرحمن الأول أقام سنة ٧٥٦ م لبنى أمية ملكا بأسبانيا ، ولم يتوان عن العمل للوصول بمملكته الى ذرى العظمة والمجد .

وعلى الرغم من أن التاريخ السياسي لزمانه وزمن خلفائه حافل بالحروب الداخلية والثورات فلاشك أن التاريخ قد أسرف في تقدير أهميتها ، فلم يكن تاريخ أسبانيا فيما يقال سوى قصة الجريمة والعقاب المعروفة ، وترتب على ذلك أن ممتلكات الأمويين لم تتحد فعلا الا زمن أول خلفائهم عبد الرحمن الثالث (الناصر) ٩١٢ م - ٩٦١ م إذ جعل من أسبانيا الإسلامية دولة لم تلبث أن ارتفعت في سرعة في مدارج العظمة والهيبة ، وكانت وقتذاك الدولة المتحضرة

(١) العدد ٦٠ من تاريخ العالم صفحة ٧٤٦/٧٤٧ .

الوحيدة فى كل أوروبا ، اذ أن اسبانيا الاسلامية كانت الدولة الوحيدة التى لم يجر عليها ما جرى بسائر أوروبا فى القرن العاشر من مظاهر الانحطاط والهمجية ، فقرطبة وأشبيلية وسائر مدن اسبانيا الاسلامية والبرتغال كانت المصاييح الوحيدة فى تلك الدياجير الشاملة .

على أن ما اشتهرت به الحاضرة قرطبة من جمال وما تمتع به أهلها من رخاء يعتبر من أعاجيب الدنيا ، فالرحالة القادمون من الشمال كانت تستبد بهم الرهبة والدهشة كلما استمعوا الى حديث مدينة تشتمل على مائة وثلاثة عشر ألفا من المنازل وثلاثة آلاف مسجد . وتسعين مكتبة وتسعمائة من الحمامات العامة ، ومن هؤلاء الرحالة السفير الألماني الذى مثل الامبراطور أوتو الأول لدى الخليفة الأموي بقرطبة ، أما سفير الخليفة بمدينة فرانكفورت فكان مسيحيا وهو أسقف غرناطة ، واذ عرف هذا السفير الألماني شدة ميل الخليفة للاستحمام أحضر معه عند عودته من مهمة قام بها فى بيت المقدس حوض استحمام مذهب مزخرف من الداخل بالنقوش وجلب أيضا حوضا أصغر حجما مصنوعا من الرخام امتاز بما نقش بداخله من صور لأشخاص وجعل الخليفة هذا الحوض بمدينة الزهراء التى كان ينتقل اليها صيفا والتى تقع أطلالها على مسافة ثلاثة أميال من شمال غربى قرطبة الحالية ، وبلغ من رواء قصره وجماله أن ما أورده المؤرخون المسلمون من وصف له قد جعله كأنه قصر من قصور ألف ليلة وليلة .

ولم يكن الرحالة الألماني السفير الذى مثل الامبراطور أوتو أول سفير ولا آخر سفير حضر الى قرطبة ، وقد كانت العلاقات بين الدولة العباسية فى المشرق والدولة الأموية فى الأندلس تدعو - على الأقل من الناحية السياسية - الى وجود

علاقات بين العباسيين والدولة الألمانية من ناحية وبين البيزنطيين والدولة الأموية الأندلسية من ناحية أخرى في سبيل حفظ التوازن ، فقد كانت الدولة البيزنطية والدولة الألمانية والدولة العباسية والدولة الأموية الأندلسية أقوى الدول في العصر الوسيط ، ورأى العباسيون أن مصحلتهم السياسية تقتضى إقامة علاقات ودية مع الدولة الألمانية من أجل مناوأة الدولة الأموية الأندلسية ، وفرضت الاتجاهات السياسية على حكومة قرطبة أن تنشئ من ناحيتها علاقات مع الدولة البيزنطية لتتقى هجوم العباسيين على الأندلس ، وقد حاول الخليفة العباسي المنصور الاستيلاء على الأندلس حينما استطاع عبد الرحمن الداخل أن ينشئ بها إمارة أموية مستقلة تعمل على مناوأة الدولة العباسية في المشرق ، وتمكن عبد الرحمن الداخل بيقظته المستمرة وجهاده الدائب من القضاء على هذه المحاولة ، بل جعل المنصور لا يفكر في العودة لهذه المحاولة ، وآثر المنصور أن يكون له علاقات حسنة ببيبن القصير ابن شارل مارتل الذي انتصر على العرب في موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢ م (١١٤ هـ) ووالد الامبراطور شارل الأول (شارلمان) (١) وقد عقد بين القصير صلات مع خليفة بغداد وأرسل في سنة ٧٦٥ م (١٤٨ هـ) رسلا لبثوا ثلاث سنين حتى رجعوا الى فرنسا ومعهم رسل الخليفة ثم عادوا الى بغداد ومعهم الهدايا الى الخليفة ويقال ان المنصور حرض بيبين على قتال عبد الرحمن الأموي في الأندلس ، وكان خلفاء الشرق يحاسنون ملوك الفرنجة ويتبادلون واياهم الهدايا والالطاف وملوك قرطبة يرسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر ، وقد أفاد

(١) الاسلام والحضارة العربية للأستاذ كرد علي جزء ٢ صفحة

شارلمان من هذه السياسة فأنشأ علاقات مع هارون الرشيد وتبودلت الهدايا بينه وبين الرشيد ، وهذه الصداقة والعلاقات الطيبة بين شارلمان والرشيد وبين والد شارلمان والعباسيين مما شجعت شارلمان في سنة ٧٧٧ م (١٦١ هـ) على الاستجابة للاشتراك في المؤامرة التي دبرها ثلاثة من خصوم عبد الرحمن الداخل وهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي وسليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي حاكم برشلونة وأبو الأسود ابن يوسف الذي انتزع منه الداخل إمارة الأندلس ودخل شارلمان أسبانيا بجيوشه الجرارة وحاصر سرقسطة وبينما كان يتأهب لاستكمال هذا الحصار ترامت إليه الأنباء بأن الزعيم السكسوني وينكند انتهز فرصة غياب جيش شارلمان في أسبانيا وعاد إلى سكسونيا وأزكى حمية السكان فعادوا إلى الثورة ، واكتسحوا البلاد ، ووضعوا السيف والنار وتوغلوا حتى حدود الراين ، فلم يجد شارلمان إزاء تلك الأخبار المقلقة سوى أن يقوض خيامه لساعته ويبتدر العودة من شواطئ الأبره إلى شواطئ الراين ، ومر جيشه من ممرات رونسفال ، وعلمت بذلك قبائل البشكنش وكانت تكره قبائل الفرانك كراهة شديدة فاقتبأوا في الإحراج والمنعطفات المشرفة على آخر الوادي في أقصى نواحيه واغتنموا فرصة اقبال المساء وتفرقوا تحت ستار الظلام في كل ناحية من نواحي الوادي الجبلية وانقضوا على مؤخرة الجيش . وفتكوا بها فتكا ذريعا ، وكان فيمن قتل رولاند البطل المعروف والشاعر الذائع الصيت وصديق شارلمان الحميم ، فبكاه شارلمان أمر بكاء ورثاء أحر رثاء وقد كان وجود الدولة الاموية بالأندلس شوكة في جنب الخلفاء العباسيين ، وكانت فكرة غزو بلاد الأندلس وضمها إلى ملك العباسيين تشغل بال الخلفاء العباسيين الأوائل الذين جاءوا بعد أبي جعفر

المنصور كما استأثرت باهتمامه ، والنسيوطي يقول عن الخليفة المعتصم (١) « كان المعتصم قد عزم على المسير الى أقصى المغرب ليملك البلاد انتى لم تدخل فى ملك بنى العباس لاستيلاء الأموي عليها ، فروى الصولى عن أحمد بن الخطيب قال : « قال لى المعتصم ان بنى أمية ملكوا وما لأحد منا ملك ، وملكننا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموي فقدّر ما يحتاج اليه لمحاربته ، وشرع فى ذلك ، فاشتدت عليه علته ومات » .

وبدأت العلاقات الودية بين الدولة البيزنطية والدولة الأموية بالأندلس فى عهد الامبراطور البيزنطى (٢) تيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م) فقد اشتد العداء بينه وبين الخليفة المعتصم ابن هارون الرشيد ، فقد قام الامبراطور بتخريب حصن زبطرة الاسلامى ، ورد المعتصم على ذلك بهجومه على عمورية (٢٢٣ هـ ٨٣٨ م) ورأى الامبراطور البيزنطى محالفة الأمويين بالأندلس انتقاما من العباسيين ، ولذلك أرسل سفيره كرتيوس ومعه هدايا نفيسة ورسالة الى عبد الرحمن الأوسط يطلب صداقته ويناشده عقد معاهدة صداقة ويحرض على انتزاع الشام من العباسيين التى كانت مقرا للخلافة الأموية فى المشرق ويرجوه أيضا انتزاع جزيرة كريت من الأندلسيين وردها للبيزنطيين وكان ذلك سنة ٢٢٥ هـ (٣٨٩ م) فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال - كما يقول المقرئ فى النفح - فأحكم بينهما الصلة واعتذر عبد الرحمن عن عدم استطاعته اجلاء الأندلسيين من جزيرة كريت لأنهم صاروا غير تابعين له ولا سيطرة له عليهم .

وقد مهدت هذه العلاقات لتوثيق الصلات بين الأمويين والبيزنطيين فى عهد عبد الرحمن الناصر ، فقد عمل الامبراطور

(١) تاريخ الحلفاء للنسيوطي صفحة ٣٢٣/٣٢٤ .

(٢) العرب والحضارة للدكتور على حسنى الخربوطلى صفحة ٢٨٥ .

قسطنطين يورفير وجنيتس (٩١٢ - ٩٥٩ م) على توطيد تلك العلاقة وتجديد هذه الصلة ففي سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) وفدت على الناصر رسله وهديته ، واحتفل الناصر بقدومهم في يوم مشهود ويقول (١) ابن خلدون في وصف ذلك اليوم «ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكة ، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحمل السريير الخلافي بمقاعد الأبناء والاخوة والأعمام والقراية ، ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم ، ودخل الرسل فهاهم ما رأوه ، وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ، ويعظموا من الاسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازة ، وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس فوجموا وشرعوا في القول فارتج عليهم . وكان فيهم أبو علي القالي وافد العراق وكان في جملة الحكم ولي العهد وندبه لذلك استئثارا فعجز ، فلما وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطي من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشيء من ذلك فخطب واستحضر وجل في ذلك القصد وأنشد شعرا طويلا ارتجله في ذلك الغرض ففاز بفخر ذلك المجلس وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، .

ويقول المقرئ في النفح (٢) متحدثا عن استقبال الناصر لوفد امبراطور القسطنطينية « تأهب الناصر لورودهم ، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج الى لقائهم ببجاية يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق ، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج الى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبية ، فنلقوهم قائدا

(١) صفحة ٣٤١ من الجزء الأول من كتاب نفح الطيب (تحقيق

الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد) .

(٢) صفحة ٣٤٣ من الجزء الأول من كتاب نفح الطيب .

بعد قائد ، وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج اليهم
الفتيين الكبارين من الحصين ياسرا وتاما ابلاغا في الاحتفال
بهم ، فلقياهم بعد القواد ، فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم
بسط الناصر واكرامه ، لأن الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة ،
لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمة ، ويدهم القصر
السلطاني ، وأنزلوا بمنية ولي العهد الحكم المنسوبة الى
نصير بعدوة قرطبة في الريض ، ومنعوا من لقاء الخاصة
والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طرا ، ورتب لحجابتهم
رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم ، فصيروا على باب قصر
هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول ، لكل دولة أربعة منهم ،
ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لدخول
وفود الروم عليه ، فقعد لهم يوم السبت لحدى عشرة ليلة
خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة في بهو المجلس الزاهر
قعودا حسنا نبيلًا ، وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه الحكم
ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان ، وقعد عن
يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وت خلف عبد الملك
لأنه كان عليلا لم يطق الحضور ، وحضر الوزراء والموالي على
مراتبهم يمينا وشمالا ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من
أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صحن
الدار أجمع بعناق البسط وكرائم الدرائك ، وظللت أبواب الدار
وحناياها بظل الديباح ورفيع الستور ، فوصل رسل ملك
الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ،
ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين
ابن ليون ، وهو في رق مصبوغ لونا سماويا مكتوب بالذهب
بالخط الاغريقي ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضا
مكتوبة بفضة بخط اغريقي أيضا فيها وصف هديته التي
أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل

على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة
قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج
فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك
معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة
ملبسة بالديباج ، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر
منه قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح المتكاثران العظيمان ملكا
الروم ، وفي سطر آخر الى العظيم الاستحقاق ، للفخر الشريف
النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ،
أطال الله بقاءه ! ، .

وأحب الناصر أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه
ليشيدوا بجلالة مقعده ، وعظيم سلطانه ، وما تهيأ من توطيد
الخلافة في دولته . وكان قد تقدم الى ابنه الأمير الحكم ولى
عهده بأعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، ويقدمه أمام نشيد
الشعراء ، وفي رواية ان الحكم أمر الفقيه محمد بن عبد العزيز
الكشكيناني (وهو من قرية كشكينان إحدى قرى قنباية)
بالتأهب لذلك وأعداد الخطبة المناسبة ، وكان هذا الفقيه
يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره ، فلما
قام يحاول التكلم بما رأى ويصف الموقف هاله المشهد ،
وبهره هول المقام ، وأبهة الخلافة ، فلم يهتد الى لفظة ، بل
غشى عليه وسقط على الأرض ، وفي رواية أخرى أن الحكم كان
قد أوصى أبا علي البغدادى أسماعيل بن القاسم القالى صاحب
كتاب الأمالي والنوادر وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه
من العراق ، وكان يعد في عصره من كبار علماء اللغة وأمراء
البيان ، وكان مقربا من الأمير الحكم ، فلما ارتج على
الكشكيناني وأصابه البهر قيل للقالى « قم فارق هذا الوهي »
فقام القالى ، وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم

انقطع به القول ، وتوقف ساكنا مفكرا في كلام يدخل به الى ذكر ما أريد منه ، وسواء كان القالي هو المأمور بالكلام أولا والمعد لذلك أو كان الكشكيناني فان كليهما عجز عن الكلام ، ولم تحتل أعصابه روعة الموقف ، وهنا تقدم منذر بن سعيد وكان قد دعى في زمرة الفقهاء ، وأنقذ الموقف ، ويصف لنا الفتح بن خاقان في المطمح موقف منذر بن سعيد قائلا (١) : « لما رأى ذلك منذر بن سعيد قام بذاته ، بدرجة من مرقاته ، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب ، ونادى من الاحسان في ذلك المقام كل مجيب ، يسحه سحا كأنما كان يحفظ قبل ذلك بمدة ، وبدأ من المكان الذي انتهى اليه أبو علي البغدادي ، فقال :

« أما بعد فان لكل حادثة مقاما ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وأنى قد قمت في مقام كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فاصغوا الى بأسماعكم ، وأمنوا على بأفئدتكم ، معاشر الملأ ، ان من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وان الجليل تعالى في سمائه ، وتقديس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمة موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكر قومه بنعم الله جل وعز عندهم ، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، واني أذكركم بنعم الله تعالى عليكم وتلافية لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم ، وأمنت سربكم ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم ، ولاء الله رعايتكم ، وأسند اليه امامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم في مثل حدة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش

(١) مطمح الأنفس صفحة ٤٣ .

والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم
بيمن سياسته الى تمهيد كنف العاقبة بعد استيطان البلاء ،
أنشدكم الله يا معشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ،
والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ،
ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة
فحمأها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه
جمع كلمتكم بعد افتراقها بامامته ، حتى أذهب الله عنكم
غيطكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يدا على عدوكم ، بطوية
خالصة وبصيرة ثابتة وافرة ، بعد ان كان بأسكم بينكم ،
فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من
عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ،
ولم يكل ذلك الى القواد والأجناد حتى باشره بالقوة والمهجة
والاولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعة
وهي محبوبة ، وترك الركون الى الراحة وهي مطلوبة ،
بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة نافذة ثاقبة ،
وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان
قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ،
متحملا للنصب ، مستغلا لما ناله في جانب الله من التعب ،
حتى لانت الاحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند
حدتها ، ولم يبق لها غارب الا جبهه ، ولا نجم لأهلها قرن
الا جده ، فأصبحتم بنعمة الله اخوانا ، وبلم أمير المؤمنين
لشعثكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم انفتوحات ،
وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت
وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصين والأدنين
مستخدمة اليه واليسكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد
سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ليقضى الله
أمرا كان مفعولا ، ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ،

وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ،
دليلها قائم ، وجفنها غير نائم ، وعد الله الذين آمنوا منكم
وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين
من قبلهم - الآية ، وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ،
ولكل نبأ مستقر ، ولكل أجل كتاب ، فاحمدوا الله أيها
الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم
بخلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه
خالص التوفيق الى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالا ،
وأنعمهم حالا ، وأعرهم قرارا ، وأمنعهم دارا ، وأكثفهم جمعا ،
وأجملهم صنعا ، لا تهاجموني ولا تذاذوني ، وأنتم بحمد الله على
أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة
لأمامكم ، والنزام الطاعة لحليفكم وابن عم نبيكم ، صلى الله
عليه وسلم ، فإن من نزع يدا من الطاعة ، وسعى في تفريق
الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو
الخسران المبين ، وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها ، والتمسك
بعروتها ، حفظ الاموال ، وحقن الدماء ، وصلاح الخاصة
والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتوفى العهود ،
وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سد الله
الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ،
وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما
أمركم الله بالاعتصام به ، فانه تبارك وتعالى يقول « أطيعوا
الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » - الآية ، وقد علمتم
ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصوف
الملحدين ، الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملتكم ،
الآخذين في مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة
نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين

والمرسلين ، أقول هذا وأختتم بالحمد لله رب العالمين مستغفرا
الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين .

وقد أعجب الذين حضروا هذا الحفل الرائع بحسن
مقام منذر بن سعيد ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان
الخليفة الناصر نفسه أشدهم تعجبا منه ، فأقبل على ولي عهده
ابنه الحكم يسأله عنه ولم يكن يشبث معرفته ، وقد سمع
باسمه ، فقال له الحكم : هو منذر بن سعيد البلوطي ، فقال
الناصر « والله لقد أحسن ما شاءه ، فلئن كان حبر خطبته
هذه وأعدّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهي فانه لبديع
من قدرته واحتياطه ، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته ،
انه لأعجب وأغرب » ولئن أبقاني الله تعالى لأرفعن من ذكره ،
فضع يدك عليه يا حكم واستخلصه وذكروني بشأنه فما
للصنيعة عنه مذهب ، وكان ذلك سبب اتصاله بالناصر ،
واستعماله له .

وقد نظم منذر بن سعيد في هذه الواقعة أبياتا من
الشعر يقول فيها : -

مقالى كحد السيف وسط المحافل

فرقت به ما بين حق وباطل

بقلب ذكي تترتمى جمراته

كبارق رعد عند رخش الأنامل

فما دحضت رجلى ولا زل مقولى

ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل

وقد حدقت حولى عيسون اخالها

كمثل سهام أثبتت فى المقاتل

لخير امام كان أو هو كائن
 لمقتبيل أو فى العصور الأوائل
 ترى الناس أفواجا يؤمون بابه
 وكلهم ما بين راج وآمل
 وفود ملوك الروم وسط فنائه
 مخافة بأس أو رجاء لنائل
 فعش سالما أقصى حياة مؤملا
 فانت غياث كل حاف وناعل
 ستملكها ما بين شرق ومغرب
 الى درب قسطنطين أو أرض بابل
 وينقل المقرى فى النفج عن ابن سعيد صاحب «المغرب»
 انه لما فرغ منذر بن سعيد من خطبته أنشد :-
 هذا المقام الذى ما عابه فند
 لكن قائله آزرى به البلد
 لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا
 لكننى منهم فاغتالنى النكد
 لولا الخلافة أبقى الله حرمتها
 ما كنت أرضى بأرض ما بها أحد
 ويقول المقرى « كأنه عرض بأبى على القالى وتقديمهم
 اياه فى هذا المقام » .

ولما انصرف رسل الامبراطور بعث الناصر معهم سفيره
 هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ، ويوثق عرى
 التحالف بين المملكتين ، فرجع بعد سنتين وقد أدى سفارته
 خير أداء ويعلق الأستاذ عبد الله عنان على هذه السفارة

يقوله (١) « أكبر الظن أنها لم تكن الا تجديدا لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الاسلام بالاندلس ، وتوطيدا للصداقة القديمة التي رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم لتكون شبه تحالف مثالي ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة ، وربما كانت ترمى في الوقت نفسه الى تنظيم الخطط المشتركة لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية التي بدأت تزعج حكومة قرطبة بتوغلها في المغرب الأقصى » .

ويرى ليفى بروفنسال ان هناك أسبابا عدة دعت عبد الرحمن الى تجديد العلاقات مع القسطنطينية ، وكان قد مضى على انقطاعها زمن ، وفي طبيعة هذه الأسباب مكانة القسطنطينية وشهرتها في القرن العاشر الميلادي ، فقد ظلت القسطنطينية ملكة العالم المتحضر ، ووارثة العلم والفلسفة والفن اليوناني ، وكانت مكانتها وجلالها وبهاؤها يكشف أغنى بلاد الاسلام ، وكان الكثير من الآيات الفنية بها شاهدة على عبقريتها في البناء والفن والرسم والزخرفة ، ودولة معنية بالفن والثقافة مثل الدولة الأموية الأندلسية كانت لا تجد محيصا عن محاولة الاستفادة باحتكاكها بالعالم البيزنطي وبخاصة اذا كان هذا الاحتكاك يفيد كذلك من الناحية السياسية ، وكانت قرطبة تحذو حذو بغداد في بناء المساجد والقصور واتخاذ الأثاث والامتعة الفاخرة والملابس والوان الزينة ، ويستخلص من حديث ليفى بروفنسال في هذا الصدد أن عبد الرحمن أراد أن يقلل من تأثير العراق في الحضارة الأندلسية وحياة الأندلسيين ،

(١) تراجم اسلامية شرقية واندلسية للاستاذ عبد الله عنان صفحة

وكان هذا الاتجاه من بواعث ترحيبه بإقامة علاقات مع القسطنطينية ، وقد ظهر أثر ذلك فى تشييد مدينة الزهراء ، وقد استحضر عبد الرحمن عمالا يونانيين وخبراء بفن البناء من بيزانطة لتدريب البنائين الأندلسيين ، وأفاد من ذلك فى تنسيق قصور الزهراء ومبانيها .

وقد استمر تبادل السفراء بين قرطبة وبيزانطة من الحين الى الحين فى أثناء حكم الحكم الثانى وبقي الى اوائل القرن الحادى عشر الميلادى .

وكانت هناك مراسلات بين أوتو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣م) ابن الإمبراطور هنرى الأول ملك الألمان وبين عبد الرحمن الناصر ، وقد كتب أوتو يشكو الى عبد الرحمن غارات القراصنة الأندلسيين فى شواطئ البحر المتوسط وفى الطرق جنوب فرنسا وفى شمال إيطاليا وفى سويسرة نفسها ، وانه يحمل حكومة قرطبة تبعة هذه الغارات الضارة والاعتداءات المتكررة ، وقد رد الناصر على هذه الرسالة برسالة شديدة اللهجة كان لها تأثير سىء فى البلاط الإمبراطورى ، ويبدو أن العلاقات بين أوتو والناصر تحسنت بعد ذلك ، واقتنع إمبراطور ألمانيا بأن حكومة قرطبة ليست لها علاقات بالمستعمرات العربية فى بروفنس وغيرها ، وأنها لا تتحمل تبعة أعمال هؤلاء المغيرين على حدود الإمبراطورية الألمانية ولا وقف أعمال القراصنة لأنهم خارجون على طاعتها ، ويروى لنا دوزى بمناسبة هذه المراسلات والسفارات بين أوتو وعبد الرحمن الحديث الذى دار بين عبد الرحمن الناصر ورسل أوتو ، وكان عبد الرحمن حينذاك قد قضى على سيطرة الأسر الأرستقراطية ، وجرد زعماءها من النفوذ ، فقد قال لهؤلاء السفراء « انى أسلم بأن ملككم

عبد الرحمن الناصر - ١٢٩

ملك حكيم وقدير ، ولكن سمة واحدة من سمات سياسته في توجيه شئون الدولة لا أستسيغها ، فهو بدلا من أن يضع مقاليد الحكم كلها في يده فإنه يسمح لاتباعه بمشاركته فيها ، بل يسمح لهم بامتلاك مقاطعاته ظانا انه بذلك يوثق علاقتهم به ، وهذا خطأ خطير ، فان هذا التنازل للأشراف يغذى كبريائهم ونزوعهم الى الثورة ، وتكشف لنا هذه المصارحة ميل عبد الرحمن الى الاستئثار بالسلطة وجمعها في يده ، وقد يكون للرجل الذي عانى الأمرين من تمرد زعماء القبائل وثورات الأشراف في كل ناحية من نواحي دولته ان ينزع الى تركيز السلطة في يده حسما للثورات ، ومنعا لحدوث الاضطرابات ، ولاضطراره الى الاعتماد في توطيد سلطته واقرار نفوذه على صنائعه من الصقالبة الذين كان يظلمهم برعايته ويوئهم أرفع مناصب الدولة ، ويجعلهم موضع ثقته ، وحملة أمانته ، غير مبال بشعور زعماء العرب والبربر ، وكانت هذه السياسة من أسباب هزيمة الخندق .

وقد وفدت على قرطبة رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ هوتو ، والملك كلة من ملوك الفرنجة بقاصية المشرق ، وجاءت الى قرطبة رسل البابا يوحنا الثاني عشر تطلب السلم والمودة بين الاسلام والنصرانية ، فجابهم الناصر الى ما طلبوا ، وتدل هذه السفارة على الاعتراف للناصر بسمو المكانة وتراعى النفوذ في العالم الاسلامي .

وهكذا كان بلاط عبد الرحمن يأتي اليه السفراء من مختلف أوروبا ومن الولايات الافريقية والمغرب الأقصى ، وتعمل على التقرب منه ، وعقد صلات المودة بينه وبين الملوك والأمراء والقادة والزعماء .

قرطبة والزهاء

كانت قرطبة عاصمة الأندلس ، ومقر خلافة عبد الرحمن الناصر ، وقد بلغت فى عهده أوج العظمة والازدهار ، ويتبارى مؤرخو الأندلس والمغرب فى الإشادة بقرطبة ووصف قصورها ومتنزهاتها ، وروعة مناظرها وطيب هوائها فالحجارى يقول فى المسهب (١) « كانت قرطبة فى الدولة الروانية قبة الاسلام ، ومجتمع اعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة الروانية وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، واليها كانت الرحلة فى الرواية اذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنف بديباج المروج مطرز بالأزهار ، تصدح فى جنباته الأطيوار وتنعر النواعير ، ويبسم النوار ، وقرطابها الزاهرة والزهاء ، حاضرتا الملك وأفقاء النعماء والسراء ، وان كان قد أحنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلک عادته وسل الخورنق والسدير وغمدان ، وقد أعذر بانذاره ، اذ لم يزل ينادى بصروفه لا أمان لا أمان ، وقد قال الشاعر : -

ومازلت أسمع أن الملو

ك تبني على قدر أخطارها

ويرزى أن الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن قال

لأبى عمران موسى بن سعيد العنسى : -

(١) الجزء الأول من نفح الطيب صفحة ١٤٦/١٤٧ .

ما عندك فى قرطبة ؟

فقال له العنسى : - « ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع
مذهب أمير المؤمنين فيها » .

فقال يوسف : « ان ملوك بنى أمية حين اتخذوها
حاضرة ملكهم لعل بصيرة ، الديار المنفسحة الكبيرة
والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة المشيدة ، والنهر
الجارى ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحراث
العظيم ، والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس
وغربها » .

فقال العنسى « ما أبقي لى أمير المؤمنين لأقول »
وفىها يقول بعض علماء الأندلس : -

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم اعظم شىء وهو رابعها

ويقول المؤرخ الأندلسى الرازى فى قرطبة : « قرطبة (١)
أم المدائن ، وسرة الأندلس ، وقرارة الملك فى القديم والحديث
والجاهلية والاسلام ، ونهرها أعظم أنهار الأندلس ، وبها
القنطرة التى هى احدى غرائب الأرض فى الصنعة والاحكام،
والجامع الذى ليس فى بلاد الأندلس والاسلام أكبر منه » .

ويعود الحجارى الى وصفها قائلا : « حضرة قرطبة
منذ افتتحت الجزيرة هى كانت الغاية ومركز الراية ، وام

(١) الجزء الثانى من نفع الطيب صفحة ٩ .

القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام ، وحضرة الامام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب فى تبرز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط الا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب » .

ويقول المقرئ فى النفح (١) « وفى بعض التواريخ القديمة كان بقرطبة فى الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا ، وتسعمائة حمام ، وأحد عشر حماما ومائة ألف دار ، وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصا ، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها ، هكذا نقله فى المغرب » .

وقد اشتهر (٢) فى قرطبة مسجدها الجامع ، وكان الذى ابتداء بناءه عبد الرحمن الداخل ، ولم يكمل فى زمانه ، وكمله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه حتى صار يضرب به المثل ، ولم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله الى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء ، وكان هذا الثامن عبد الرحمن الناصر ، ومن حديث الفقيه الكاتب أبى محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبني فى وصف هذا الجامع « شخضت الى حضرة قرطبة منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر والجامع - قدس الله تعالى

(١) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٧٩ .

(٢) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٩٠ .

بقعته ومكانه - قد كسى ببردة الازدهاء ، وجلى فى معرض
البهاء ، كأن شرفاته فلول فى سنان ، أو أشرف فى أسنان ،
وكانما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حل .
وكانما الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره
أفياءها ، فنرى نهارة قد أحرق به ليل ، كما أحرق بربوة
سيل ، ليل دامس ونهار شامس ، وللدبال تألق كنضضة
الحيات أو إشارة السبابات فى التحيات ، قد أترعت من
السليط كثوسها ووصلت بمحاجين الحديد رموسها ،
ونيطت بسلاسل كالجدوع القائمة ، أو كالشعابين العائمة ،
عصبت بها تفاح من الصفر كاللقاح الصفر ، بولغ فى صقلها
وجلائها ، حتى بهرت بحسنها ولآئها ، كأنها جليت بالذهب ،
وأشربت ماء الذهب ، أن سممتها طولا رأيت منها سبائك
عسجد أو قلائد زبرجد ، وإن أتيتها عرضا رأيت منها أفلاكا
ولكنها غير دائرة ، ونجومها ولكنها ليست بسائرة . . . والناس
أخياف فى دواعيهم ، وأوزاع فى أغراضهم ومراميمهم ، بين
ركع وسجد ، وإيقاظ وهجد ، ومزدحم على الرقاب يتخطاها ،
ومقتحم على الظهور يتمطاها كأنهم برد خلال قطر ، أو
حروف فى عرض سطر ، حتى إذا قرعت أسماعهم روعة
التسليم ، تبادروا بالتكليم ، وتجادبوا بالاثواب ، وتساقوا
بالأكواب ، كأنهم حضور طال عليهم غياب ، أو سفر أتيح
لهم إياب ، وصفيك مع أخوان صدق ، تنسكب العلوم بينهم
انسكاب الودق ، - فاکرم بها مساع تشوق إلى جنة الخلد
ويهون فى السعى إليها انفاق الطوارف والتلد ، تعظيما
لشعائر الله ، وتنبيها لكل ساه ولاه » .

وقد أمر الناصر فى سنة ٣٤٠ هـ بهدم الصومعة الأولى
(المئذنة) وأقام صومعة بديعة بدلا منها ، فحفر فى أساسها

حتى بلغ المساء مدة من ثلاثة وأربعين يوما ، ولما كملت ركب
الناصر اليها من مدينة الزهراء ، وصعد في الصومعة من
أحد درجيتها ، ونزل من الثاني ، ثم خرج وصلى ركعتين في
المقصورة وانصرف ، وكانت الصومعة الأولى ذات مطلع واحد
فصير لها مطلعين فصل بينهما البناء فلا يلتقي الراقون فيها
الا بأعلاها .

ويقول الدكتور حسين مؤنس (١) « مسجد قرطبة
الجامع هو - دون شك - أضخم عمل معمارى قام به العرب
فى الشرق أو الغرب على السواء ، فان مساحة الصحن
المسقوف ٤٨٦٨ مترا مربعا ، أى مايزيد على الفدان ، فاذا
اضفنا الى ذلك الفناء غير المسقوف - وهو بقية صحن الجامع
يحيط به سوره - كانت مساحته ١٢١٨٩ مترا مربعا ، أى
نحو ثلاثة أفدنة ، وعدد السوارى ، أى الأعمدة ، الباقية الى
اليوم يزيد على ١٢٠٠ سارية ، ومحراب هذا المسجد أروع
محاريب الجوامع الأثرية الباقية الى اليوم ، والحلول
الهندسية التى وفق اليها المعمارى الأول الذى وضع تصميم
هذا الجامع ، والابتكارات المعمارية والزخرفية التى وصل
اليها هو ومن جاءوا بعده تقرر دون أدنى شك أن العرب كانوا
أعظم مهندسى الدنيا حتى مطلع العصر الحديث . وأنصح دليل
على عبقرية هذا الابتكار أنه لم يتكرر ، فمن المعروف أن المعمارين
ينقل بعضهم عن بعض ، اذا ابتكر واحد منهم شيئا فى الشرق
نقله الآخرون عنه فى سلسلة طويلة حتى يصل الى أقصى
الغرب ، الا أن هذا الابتكار فريد فى نوعه على طول التاريخ ،
فريد وخيد كالجامع نفسه . . والهدف الذى قصد اليه

(١) رحلة الاندلس صفحة ٧٢/٧٣ .

هذا المعمارى المبدع بهذا الابتكار يدعو الى الاعجاب .. انه هدف جمالى صرف .. ولم يجرؤ مهندس جامع آخر على تطبيق هذا الابتكار لأن أعمال العباقرة لا تتكرر ولا تقلد ..

وبعد أن أمضى عبد الرحمن الناصر أكثر من ربع قرن فى اخماد الثورات ، وهذا الزلازل والاضطرابات وجمع الشمل المبدد ، وساد الأمن ، وعم الرخاء ، كان يستطيع أن ينشئ جامعا جديدا ولكنه أثر استكمال الجامع الذى أنشأه جده العظيم عبد الرحمن الداخل ، ويعمل ذلك الدكتور حسين مؤنس قائلا « (١) كان عبد الرحمن الناصر قديرا على أن ينشئ جامعا جديدا رائعا ينسب اليه ، ولكن سلائل بنى مروان فى الأندلس كان فيهم حرص على التقاليد، واستمسك بمناهج أجيالهم الأولى ، كأنهم كانوا يجرّون فى سياستهم على الحديث النبوى الشريف الذى يقول « لا يصلح هذا الأمر الا بما صلح به اوله وكانوا يعرفون أيضا أن وحدة الدولة والوطن لا تقوم الا على أساس من وحدة التاريخ ، ومهما بلغ من رواء ملك عبد الرحمن فهو بناء على ما أسس جده عبد الرحمن الداخل ، وما دام هذا قد أنشأ ذلك المسجد ، وجعله محراب جماعة الاسلام فى الأندلس ، فليظل كذلك لا تخلع عنه هذه الصفة ، ولا ينقل عنه هذا الشرف الى غيره وليوسع هذا المسجد وليضف عليه من جمال الفن وجلال الخلافة ما شاء ابداع الفن ونمو الحضارة وما قدر جاه الخليفة » وفى تقديرى ان الدكتور حسين مؤنس قد أجاد التعليل وأصاب شاكلة الصواب ، وكان يحيط بجامع قرطبة سور يتراوح ارتفاعه بين مترين وثلاثة أمتار ، وكان يمتد فى

(١) رحلة الأندلس صفحة ٩٢ .

شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب وقد توجهت شرفات عالية ، وكان المصلون يدخلون الجامع من واحد وعشرين بابا تزان جميعها بالنحاس الأصفر المخرم ، وكانت النوافذ والكوى الموصدة التى تشبه المحاريب القائمة الى جنباتها وبغلات الحائط - الدعامات الخارجية - التى تشبه الأبراج تزين واجهة الجامع ، وخصص عدد قليل من الأبواب للنساء فهن يلجأن الى مقاصير رفعت لهن .

ولم تله مهام الحرب ومشكلات السياسة الناصر عن القيام بـعمال الانشاء والتعمير ، وقد اغتنم فرصة الاستقرار النسبى فى سنة ٣٢٥ هجرية وشرع فى بناء مدينة الزهراء اعظم قواعد الأندلس الملكية ، ويقول ابن خلدون فى تاريخه يذكر بناء الزهراء « (١) لما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمباني ، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتفلوا فى ذلك ، وبنوا قصورهم على اكمل الاتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف ، فبنى هو الى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسماه « دار الروضة » وجلب الماء الى قصورهم من الجبل ، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ فى بناء المتنزهات ، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على ابعاد مسافة ، ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها لنزله وكرسيا لملكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١١٢ .

فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك ، واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى والزينة وغير ذلك من المهن ، وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس »

ويعزو المؤرخون أسباب انشاء مدينة الزهراء الى قصة تشبه الأساطير التي كثيرا ماتروى عن بناء المدن والمنشآت العظيمة ، فهم يذكرون أن جارية من جوارى الناصر ماتت عن أموال كثيرة أوصت بها لافتداء أسرى المسلمين ببلاد الأفرنج ، ولكن الناصر لم يجد أسيرا ليفتدى ، فطلبت منه جاريته الزهراء وكانت اثيرة عنده أن يبتنى بالمال مدينة تحمل اسمها ، فاستجاب لرغبتها ، والأقرب الى المعقول والأشبه بأخلاق الناصر أن الرغبة فى انشاء مدينة ، يتخذها حاضرة لخلافته ورمزا لعهد كما فعل أبو جعفر المنصور فى انشاء بغداد وكما فعل عبيد الله المهدي فى انشاء المهديّة - أقول ان مثل هذه الرغبة كانت تختلج بنفسه جريا على طريقة أسلافه من الخلفاء الأمويين سواء فى الشرق فى سوريا أو الغرب بالأندلس ، ويبدو أن الناصر كان له شغف خاص بالعمارة والبناء ، وما زالت المباني الضخمة والمنشآت الفخمة حتى عصرنا الحاضر مظهرا من مظاهر المجد المؤئل والمكانة المرموقة ، وقد نسبت الى الناصر أبيات من الشعر تعبر عن هذه النزعة وتنم على هذا الاحساس ، وهى :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبالسنن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم

ملك محناه حوادث الأزمان

ان البناء اذا تعاضم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشأن

وفضلا على ذلك فقد كانت الحاجة ماسة الى إنشاء
مثل هذه المدينة ، فقد وجد الناصر ان قصر الامارة فى
قرطبة لم يعد يتسع لما تقتضيه المحافظة على جلال الخلافة
من فخامة المظهر التى تلائم مكانتها السماء فى النفوس ، وكثر
وفود الملوك والأمراء والسفراء على بلاطه ، وذاع شأنه فى
انحاء المشرق والمغرب ، وكانت هذه الوفود القادمة تقابل
بالحفاوة والتكريم ، وتنظم لها المواكب التى تخترق شوارع
قرطبة فتضيق حركة المرور كما يحدث فى العواصم الكبرى
عندما يكثر مرور أمثال هذه المواكب ، ويشغل الناس عن
الفراغ لأعمالهم ، لذلك اتجه تفكير الناصر الى إنشاء قصر
ملكى تتسع رحابه للوفود القادمة كما فكر فيما بعد لويس
الرابع عشر فى إنشاء قصر فرساي خارج باريس ، وكان
سكان قرطبة فى عهد الناصر قد ناهزوا نصف المليون فابتناء
مثل هذه المدينة يقلل من اشتداد ضغط تكاثر السكان ،
ويوجد مجالات أوسع لمختلف الأعمال .

ويقول ابن عذارى فى البيان المغرب (١) « ابتدئ
بنيانها من أول سنة ٣٢٥ هـ وكان يصرف فيها كل يوم من
الصخر المنجور ستة آلاف صخرة سوى التبليط فى الأسوس
وجلب اليها الرخام من قرطاجنة افريقية ومن تونس ، وكان
الأمناء الذين جلبوه عبد الله بن يونس وحسن القرطبى وعلى
ابن جعفر الاسكندراني ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة
بثلاثة دنانير ٠٠ وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية ،

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٢٤٥ .

وكان فيها من السوارى أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية
وثلاث عشرة سارية ، والمجلوبة منها من افريقية ألف سارية
وثلاث عشرة سارية ، وسائر ذلك من رخام الأندلس ، وأما
الحوض الغريب المنقوش المذهب بالتمائيل فلا قيمة له ، جلبه
ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان الى مكان حتى وصل
فى البحر ، ووضع الناصر فى بيت المنام ، فى المجلس
الشرقى المعروف بالمؤنس ، وكان عليه اثنا عشر تمثالا من
الذهب الأحمر مرصعا بالدر النفيس الغالى مما صنعه بدار
الصنعة بقصر قرطبة ، وكان المتولى لهذا البنيان المذكور
ابنه الحكم ، لم يتكل الناصر فيه على أمين غيره ، وكان يخبز
فى أيامه كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانى مائة خبزة ،
وهذا من أعظم الأشياء ، الى ما فوق ذلك وكان الناصر قد
قسم الجباية على ثلاثة أثلاث ، ثلث للجند ، وثلث للبناء ،
وثلث مدخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى
خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن
المستخلص والأسواق سبعمائة ألف دينار وخمسة وستين
ألف دينار .

وابتنى الناصر فى المدينة الجديدة جامعا كان يعمل فيه
حين شرع فى بنائه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة -
كما يروى ابن الفرضى (١) وغيره - منها ثلاثمائة بناء ومائتا
نجار وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع ، فاستتم بنيانه
واتقانه فى مدة من ثمانية وأربعين يوما ، وجاء فى غاية
الاتقان ، من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة
الى الجوف - حاشا المقصورة - ثلاثون ذراعا ، وعرض البهو

(١) الجزء الثانى من تفتح الطيب صفحة ١٠٠ .

الأوسط من أبهائه من الشرق الى الغرب ثلاث عشرة ذراعا ،
وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعا ، وطول
صحنه المكشوف من القبلة الى الجوف ثلاث وأربعون ذراعا،
وعرضه من الشرق الى الغرب احدى وأربعون ذراعا ،
وجميعه مفروش بالرخام الخمرى ، وفى وسطه فوارة يجرى
فيها الماء ، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة الى الجوف -
سوى المحراب - سبع وتسعون ذراعا ، وعرضه من الشرق
الى الغرب تسع وخمسون ذراعا ، وطول صومعته فى الهواء
أربعون ذراعا وعرضها عشر أذرع فى مثلها .

وأمر الناصر باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد ، فصنع
فى نهاية من الحسن ، ووضع فى مكان منه ، وحظرت حوله
مقصورة عجيبة الصنعة ، وكان وضع هذا المنبر فى مكانه
من هذا المسجد عند اكماله يوم الخميس لسبع بقين من
شعبان سنة ٣٢٩ .

ويقول ابن الفرضى (١) «أنه فى صدر هذه السنة - ٣٢٩
هـ - أكمل الناصر بنيان القناة الغربية الصنعة التى أجراها
وأجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة
غربى قرطبة ، فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ،
يجرى ملؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة،
عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم
يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ، مطلق
بذهب أبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد ، يجوز
هذا الماء الى عجز الأسد فيمجه فى تلك البركة من فيه ،
فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره ، وثجاجة صبه ، فتسقى
من مجاهه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستقيض على

(١) الجزء الثانى من نفع الطيب صفحة ١٠٠ .

هذه القناة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من اعظم آثار
الملوك فى غابر الدهر لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ،
وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التى يترقى الماء منها ويتصوب
من اعاليها ، وكانت مدة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل
الى أن وصلت - أعنى القناة - الى هذه البركة أربعة عشر
شهرا ، وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل
واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة ، وكانت
للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها
على عامة أهل مملكته ، ووصل المهندسين والقوام بالعمل
بصلات حسنة جليلة جزيلة (١) .

وقد استمر العمل فى مدينة الزهراء من سنة ٣٢٥ الى
آخر دولة الناصر وابنه الحكم وذلك نحو من أربعين سنة ،
ولما بنى الناصر قصر الزهراء أجمع الناس على أنه لم يبن
مثله فى الاسلام البتة ، وما دخل اليه قط أحد من سائر
البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد
وتاجر وعالم الا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيها ، بل لم يسمع
به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى انه كان أعجب ما يؤمله
القاطع الى الأندلس فى تلك العصور النظر اليه ، والتحدث
عنه ، وقيل (٢) انه لو لم يكن فيه الا السطح المرد المشرف
على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبه وعجيب ما تضمنه
من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ،
وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب مصون ،
وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، وتقوش كالرياض ، وبرك

(١) الجزء الثانى من نفع الطيب صفحة ١٠٠/١٠١ .

(٢) الجزء الثانى من نفع الطيب صفحة ١٠٢ .

عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدى الأوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها ، فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة كيما يرى الغافلون عنه من عباده مثالا لما أعدده لأهل السعادة فى دار المقامة التى لا يتسلط عليها الفناء ، ولا تحتاج الى الرم .

وفى بناية الزهراء بدأ الناصر باقامة قصر عظيم للاستقبال لتقام فيه الحفلات حين حضور السفراء والرسل والملوك الى بلاطه ، وقد أقامه على سفح جبل العروس بحيث يشرف على السهل الفسيح المنبسط أمامه (١) ، وكان بالقصر قاعة كبيرة بابها الرئيسى من ناحية الوادى ، وعن يمينها ويسارها عقود تشبه عقود الجامع الا أنها منفردة الأقواس ، وفى الصدر ثلاثة عقود كبرى ، الأوسط منها أوسع من الباقين ، وتحت هذا العقد الأوسط كان يوضع عرش الناصر وعن يمينه ويساره مقاعد الأمراء والوزراء ، وتمتد المقاعد الى الباب ليجلس عليها كبار رجال الدولة ، وخلف العقود الجانبية ممران كان يصطف فيهما جند الحرس ، فيمر الضيوف بين صفوف الجند من بعيد ثم يدخلون القاعة ليجيوا الخليفة وهم بالباب ، ويتقدمون فيحيون مرة أخرى ، حتى اذا كانوا أمام الخليفة قرأوا عليه تحية ثالثة ، ثم يأمر بجلوسهم حيث يشاء ، وينظرون الى الوالى والجند والحرس مصطفين فيه صفوفًا ، مشاة وفرسانا ، ثيابهم بيضاء وعلى مناكبهم أقبية بيض تتدلى خلف ظهورهم ، تزين رؤوسهم العمائم ، وفى أيديهم السيوف ، وبقية القصر قاعات للخليفة

(١) رحلة الاتدلس ، صفحة ١١٣/١١٤ .

والأمراء ورجال الدولة ، وأنشئت الى جوار هذا القصر قصور أخرى للأمراء والوزراء والموظفين .. وعلى درجة بعد هذه على السفح أقيمت مساكن الجند والحرس ، وأعد ميدان عظيم للعرض العسكري ، يشهده الخليفة من قصره ، ومخازن للسلاح والعتاد ودور الخيل .. وكانت المدينة تقوم على ثلاث درجات ، أعلاها قصر الخليفة وقصور الأمراء ، والدرجة الثانية كانت حدائق يقوم فيها جامع الزهراء ، والثالثة للقواد والجند وأهل البلد .

ويقول الشريف الإدريسي في حديثه عن الزهراء (١) « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأعلى يوازى الثلث الأسفل ، ولكل ثلث منها سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصورا يقصر الوصف على صفاتها ، والجزء الأوسط لبساتين وروضات ، والجزء الثالث الديار والجامع » .

ويروى المؤرخون أن جارية الناصر الزهراء التى سميت المدينة باسمها حينما نزلت بها بعد اتمام بنائها وقعدت فى مجلسها ونظرت الى بياض المدينة وحسنها فى حجر الجبل الأسود الذى اقيمت عليه قالت له « سيدى ! ألا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى ؟

فهم الناصر بالعمل على ارضاء خطيبته الاثيرة وأصدر أمرا بإزالة الجبل ، ولكن بعض جلسائه قدر صعوبة الاقدام على مثل هذا العمل التى تقرب من الاستحالة ، وكان يعرف

(١) الجزء الثالث من تاريخ الاسلام السياسى صفحة ٦٠٠/٦٠١ .

سعة صدر الخليفة الناصر ودماثة خلقه فلم يبخل عليه
بالنصيحة وصارحه قائلا :

« أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه ،
لو اجتمع الخلق ما زالوه حفرا ولا قطعا ، ولا يزيله الا من
خلقه » .

وأدرك الناصر صدق هذه النصيحة ورجحان هذا
الرأى فكبح جماح عاطفته ، وعدل عن رأيه ، وهداه تفكيره
السليم الى أن يأمر بقطع شجر الجبل وأن تغرس فيه أشجار
التين واللوز ، ولم يكن أحسن منها منظرا ولا سيما حينما
تتفتح الأشجار وتزدهر الأزهار .

ولم تنس عظمة الزهراء ومسجدها عبد الرحمن الناصر
جامع قرطبة الكبير الذى اشترك فى رفع بنيانه ، وتوطيد
جدرانته ، واعلاء شأن اجداده فكان يؤدى فيه صلاة الجمعة
والأعياد ويروى (١) أن الناصر أراد الفصد ، فقعده فى البهو
الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك
وأخذ الطبيب الموضع ، وجس عضد الناصر ، فبينما هو كذلك
اذ أطل زرزور ، فصعد على اثناء ذهب بالمجلس وأنشد :

أيها الفاصد رفقا بأمر المؤمنين
انما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة ، فاستظرف أمير
المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف ، وسر به غاية السرور
وسأل عمن اهتدى الى ذلك ، وعلم الزرزور ، فذكر له أن
السيدة الكبرى مرجانة ، أم ولده ولى عهده الحكم المستنصر

(١) الجزء الثانى من « ازهار الرياض » صفحة ٢٦٥ .

بالله ، صنعت ذلك ، وأعدته لذلك الأمر ، فوهب لها ما ينيف
على ثلاثين ألف دينار .

وقال بعض المؤرخين (١) ان عدد الفتيان بانزهراء ثلاثة
عشر ألف فنى ، وسبعمئة وخمسين فتى ، ودخالتهم من
اللحم كل يوم حاشا أنواع الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل
وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة
سته آلاف وثلاثمئة امرأة وأربع عشرة ، وفى رواية أخرى
ان عدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمئة وخمسون
وعدد النساء بقصر الزهراء مثل ما ذكر أولا .

وكلف الخليفة الناصر بعمارة الأرض ، وإقامة المعالم ،
وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك ، وعزة السلطان ،
واستفراغه وسعه فى تنميقها واتقان قصورها وزخرفة
مصانعها عرضه لنقد من ناحية القاضى مندر بن سعيد
البلوطى ، وكان المعروف عن مندر شدة الصلابة فى
أحكامه ، والمهابة فى أقضيته ، وحرصه على القيام بالحق
فى جميع ما يجرى على يده ، لا يهاب فى ذلك الأمير الأعظم
فمن دونه ، وكان الناصر قد انهمك فى الاهتمام بمبانيه
ومنشآته حتى استغرق ذلك الاهتمام معظم أوقاته فتعطل
عن شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذ ثلاث جمع
متوالية ، فأراد مندر بن سعيد أن يغض منه بما يتناوله من
الموعظة فأدخل فى خطبته فصلا مبتدئا بقوله تعالى :

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ؛ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لِعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ؛

(١) الجزء الثانى من « ازهار الرياض » صفحة ٢٦٨ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ،
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ؛ إِنْئِي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (وَلَا تَقُولُوا (سَوَاءٌ ؛ عَلَيْنَا
أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا
قَلِيلٌ ؛ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى) وَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ ؛

ومكان الجزاء

ووصل ذلك بكلام جذل ، وقول فصل ، ومضى فى ذم
تشبيد البنيان والاستغراق فى زخرفته ، والاسراف فى
الانفاق عليه ، فجرى طلقا ، وانتزع فيه قوله تعالى (أَمِنَ
أَسَسَ بِنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ) الْآيَةَ وَأَتَى بِمَا
يَشَاكِلُ الْمَعْنَى مِنَ التَّخْوِيفِ بِالْمَوْتِ ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ فِجَائِهِ ،
وَالدُّعَاءِ إِلَى الزَّهْدِ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ ، وَالْحُضْ عَلَى
اعْتِزَالِهَا ، وَالرَّفْضِ لَهَا ، وَالنَّدْبِ إِلَى الْأَعْرَاضِ عَنْهَا ،
وَالْإِقْصَارِ عَنْ طَلَبِ اللَّذَاتِ ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ اتِّبَاعِ هَوَاهَا ،
فَأَسْهَبَ فِي ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَا يَطَابِقُهُ
وَجَلِبَ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْأَثَرِ مَا يَشَاكِلُهُ ، حَتَّى أَذْكَرَ مِنْ حُضْرِهِ
مِنَ النَّاسِ . . . وَخَضَعُوا وَرَقُوا . . . وَاعْتَرَفُوا وَبَكَوْا ، وَضَجُّوا
وَدَعَوْا ، وَأَعْلَنُوا التَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ وَالتَّوْبَةَ ، وَالِابْتِهَالَ وَالْمَغْفِرَةَ ،
وَآخَذَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مِنْ ذَلِكَ بِأَوْفَرِ حَظٍّ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ
الْمَقْصُودُ ، فَبَكَى وَنَدِمَ عَلَى مَا سَلَفَ لَهُ مِنْ قَرْطِهِ ، وَاسْتَعَاذَ
بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ عَلَى مَنْدَرِ بْنِ سَعِيدٍ لَفَظًا مَا

قرعه به ، فشكا ذلك الى ولده الحكم بعد انصرافه وقال له
« والله لقد تعمدني منذر بخطبته ، وما عني بها غيرى ،
فأسرف على ، وأفرط في تقريعي ، ولم يحسن السياسة
في وعظي ، فزعزع قلبي ، وكاد بعصاه يقرعني » ، واستشاط
غيظا عليه ، فأقسم الا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة
فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة
بقرطبة ، ويجانب الصلاة بالزهراء .

فقال له الحكم « وما الذي يمنعك من عزل المنذر
من الصلاة بك والاستبدال منه اذا كرهته ؟ » .

لم يسترح الناصر لهذا الرد ، وزجر الحكم وانتهره قائلا
ان « مثل منذر بن سعيد في خيره وفضله وعلمه لا أم
لك - يعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشيد ، سالكة غير القصد؟
هذا ما لا يكون ، وانى لأستحيى من الله ألا أجعل بيني وبينه
في صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه
قد أخرجني فأقسمت ، ولوددت اني أجد سبيلا الى كفارة
يميني بملكي ، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله
تعالى » .

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي اجترأ فيها منذر
ابن سعيد على التصدي للناصر في ترامي نفوذه وضخامة
سلطانه بالوعظ الصادع ليكف من اسرافه في الاقبال على
انشاء القصور ، والمبالغة في زخرفتها وتجميلها .

فقد روى (١) القاضي النباهي أنه كان قد اتخذ لسطح
القببية التي كانت ماثلة على الصرح المرد المشهور شأنه

(١) الجزء الثاني من ازهار الرياض صفحة ٢٨٠/٢٨١ .

يقصر الزهراء قراميد مفشاة ذهباً وفضة ، أنفق عليها مالا جسيماً ، وقرمد سقفها به ، وجعل سقفها صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة ، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها ، وجلس فيها اثر تمامها يوماً لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة ، مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك « هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ » .

فقالوا « لا والله يا أمير المؤمنين ، وانك لأوحد في شأنك كله ، وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك رآيناه ، ولا انتهى إلينا خبره » .

فأبهجه قولهم وسره ،

فبينما هو كذلك اذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجماً ناكس الرأس ، فلما أخذ مجلسه ، قال له كالذي قاله لوزرائه وقرابته من ذكر السقف المذهب ، واقتداره على ابداعه ، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته .

وقال له « والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين » .

فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له « انظر ما تقول ، وكيف أنزلتني منزلتهم ؟ »

فقال له منذر « نعم اليس الله تعالى يقول « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون »

فوجم الخليفة ، واطرق مليا ، ودموعه تتساقط ،
خشوعا لله سبحانه ، ثم أقبل على منذر وقال له « جزاك
الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيرا ، وعن الدين والمسلمين
أجمل جزائه ، وكثر فى الناس أمثالك ، فالذى قلت هو
الحق » .

وقام عن مجلسه ذاك وهو يستغفر الله تعالى ، ويأمر
بنقض سقف القبية ، وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها .
وحضر منذر مع الناصر يوما فى الزهراء ، فقام
الرئيس أبو عثمان بن ادريس فانشد الناصر قصيدة منها :

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن
مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا

فيا لجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج ، واطرق منذر بن سعيد ساعة،
ثم قام منشدا :

يا باني الزهراء مستغرقا
أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها روتقا
لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر « اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ،
وسقتها مدامع الخشوع ، يا ابا الحكم لا تذبل ان شاء الله
تعالى » .

فقال منذر « اللهم اشهد أنى قد بثت ما عندى ولم
آل نصحا »

ويعلق المقرئ على ذلك فى النفح بقوله (١) « ولقد صدق
القاضى منذر رحمه الله تعالى فيما قال ، فانها ذبلت بعد
ذلك فى الفتنة ، وقلب ما كان فيها من منحة محنة »

ويروى أن بعض الأولياء فى عصر المنصور بن أبى عامر
مر بالزاهرة التى بناها المنصور كما بنى الناصر الزهراء ،
ونظر الى مصانعها السامية الفائقة ، ومبانيها العالية الرائقة
فقال « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك فى كل دار »
فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح الا أيام يسيرة حتى
نهبت ذخائرها ، وعم الخراب سائرهما ، فلم تبق دار فى
الأندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وتحقق
دعاء ذلك الرجل ، وحكى أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد
وغيرها من البلاد الشرقية ، وواضح من ذلك أن شدة ولع
الناصر باشادة المباني الفخمة ، والاكثار من التأنق فى زخرفتها
وتجميلها ، والانفاق عليها ، كان لا ينظر اليه رجال الدين نظرة
ارتياح وقبول ، وقد عبر منذر بن سعيد بصراحته المعهودة
عن وجهة نظرهم ، وقد تتعارض فى بعض الأمور وجهة نظر
اصحاب الأمزجة الفنية ووجهة نظر المطبوعين على التشدد
فى الدين ، وفى رأى كل منهم جانب من الحق وحظ من
الصدق .

وقد اشار الى الزهراء الوزير الشاعر ابن زيدون (٢)
بقوله فى قصيدة طويلة :

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١١١ .
(٢) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٥٥/١٥٦ .

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح
تقضى تنائيهما مدامعه نوحا

مقاصير ملك أشرفت جنباتها
فخلنا العشايا الجون اثناءها صباحا

يمثل قرطيهها لى الوهم جهرة
فقبتهها فالكواكب الرحب فالسطحا

محل ارتياح يذكر الخلد طينه
اذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

هناك الحمام الزرق تندى حفافها
ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا

تعوضت من شبدو القيان خلالها
صدى قلوات قد اطار الكرى صباحا

ويروى المقبرى (١) عن محيي الدين بن عربى فى
المسامرات انه قال « قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها
وصيرورتها مأوى الطير والوحش ، وبنائها عجيب فى بلاد
الأندلس ، وهى قريبة من قرطبة ، أبياتا تذكر العقل وتنبيه
الغافل ، وهى :

ديار بأكناف الملاعب تلمع
فيصمت أحيانا وحيننا يرجع

(١) الجزء الثانى من نفع الطيب صفحة ٦٤ .

ينوح عليها الطير من كل جانب
وما ان بها من ساكن وهي بلقع
فخاطبت منها طائراً متغردا
له شجن في القلب وهو مروع
فقلت : على ماذا تنوح وتشتكى ؟
فقال : على دهر مضى ليس يرجع

عبد الرحمن الناصر بين وزرائه وقضااته وقواده

كانت الوزارة فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه الحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومة لذلك، وكانت الكتابة على ضربين اعلاهما كاتب الرسائل ، وله مكانه عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب .

ويقول المقرئ ان أهل الأندلس كانوا كثيرى النقد لصاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته فان كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط اللسن فى المحافل ، والطنن عليه ، وعلى صاحبه ، والكاتب الآخر كاتب الزمام وكان أغلبهم بالأندلس وبر العدو من النصارى واليهود .

وصاحب الأشغال الخراجية فى الأندلس أعظم من الوزير وأكثر أتباعا ، وأجدى منفعة ، وكانت خطة القضاء بالأندلس أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين ، وكون السلطة لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضى ، وكان تقدير الأمراء الأمويين للقضاة من سمات الحكم الأموى المشرفة بالأندلس .

وكانت هناك خطة الشرطة ، ويعرف صاحبها بالاندلس في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، ولكن ذلك كان قليلا ، ولا يكون الا في حضرة السلطان الاعظم وهو الذي يحد على الزنى وشرب الخمر وكثير من الأمور الشرعية راجع اليه ، وقد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي ، وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

وخطة الاحتساب كانت عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن وكان صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا في الاسواق وأعوانه معه وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد أعوانه لأن الخبز عندهم كان معلوم الوزن ومعروف الثمن وكذلك اللحم كانت توضع عليه ورقة بسعره فلا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب في الورقة والذي يخالف ذلك تحل به العقوبة الشديدة الرادعة .

وقد اشتهر وبرز في عهد الناصر طائفة من الوزراء والقضاة والقواد ، وكان في طليعة هؤلاء الوزراء موسى بن محمد بن حدير وقد استعجبه الناصر واستوزر عبد الملك بن جهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد وقد أهدي له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الاصناف ، وقد عني بالتحدث عنها ابن حيان المؤرخ الاندلسي وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين والواقع أن هذه الهدية تدل على ضخامة الدولة الأموية كما قال ابن خلدون وكان تقديم هذه الهدية للناصر في سنة ٣٢٧ هـ وقد اشتهر ذكرها ، واتفق على أنه لم يهاد أحد من ملوك الاندلس بمثلها ، وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعا ، وأقروا أن نفسا لم تسمح باخراج مثلها ضربة عن

يدها ، وقد أرفق ابن شهيد رسالة يعترف فيها للناصر بالنعمة والشكر عليها ، وصادفت هذه الرسالة استحسان الناس فكتبوها ، وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأضعف له مرتب الوزارة وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وسماه ذا الوزارتين ويقول المقرئ (١) أنه أول من تسمى بذلك في الأندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بنى العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه في البيت وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول التسمية فعظم مقداره في الدولة .

وتختلف الروايات فيما اشتملت عليه هذه الهدية العظيمة ، وفي رواية ابن خلدون أنها حوت خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين وأربعمائة رطل من التبر ، ومصارفة خمسة وأربعين ألف دينار ، ومن سبائك الفضة مائتي بكرة واثني عشر رطلا من العود الهندي يختم عليه كالشمع ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ومائة رطل من العود شبه المنتقى ومائة أوقية من المسك الزكي المفضل في جنسه وخمسمائة أوقية من العنبر الأشهب الباقي على خلقته من غير صناعة ، ومنها قطعة عجين مللمة الشكل وزن مائة أوقية ، ومن اللباس ثلاثين شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع ، وعشرة أفرية من غالي جلود الفنك الحراسانية ، وستة من السراقات العراقية وثمانية وأربعين من الملاحف البغدادية لرتبة الخيل ، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول ، وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال ، ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة ، وخمسة عشر من نخاخ الخز المقطوع شطرها ، ومن

(١) الجزء الاول من نفع الطيب صفحة ٣٣٣ .

السلاح والعدة ثمانمائة من التجافيف المزينة لأيام البروز والمواكب، وألف ترس سلطانية ومائة ألف سهم من النبال البارة الصنعة ، وخمسة عشر فرسا من الحيل العرب المتخيرة ثركاب السلطان فائقة النعوت، ومائة فرس من الحيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات ، وعشرين من بغال الركاب مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خز جعفرى عراقى ، ومن الرقيق أربعين وصيفا وعشرين جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم ، ومن أصناف هذه الهدية قرية تغل آلافا من أمداد الزرع ومن الصخر للبنيان ما أنفق عليه فى عام واحد ثمانون ألف دينار وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصيله وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار .

ويضيف ابن الفرضى أشياء أخرى على ما ذكره ابن خلدون . ويقول المقرئ (١) : « ان ابن الفرضى أعرف لأنه استند الى كتاب المهدي ، وصاحب البيت أدري .

وفى آخر كتاب ابن شهيد « لما علمت تطلع مولاى - أيده الله تعالى - الى قرية كذا بالقنباية وترداده لذكرها لم أهنأ بعيش حتى أعلمت الحيلة فى ابتياعها بأجوازها واكتتبت الوثيقة فيها باسمه وضمها الى ضياعه وكذلك صنعت فى قرية شيرة فى منطقة جيان عندما اتصل بى من وصفه لها وتطلعه اليها ، فما زلت أتصدى لمسرتة بها - حتى ابتعتها الآن بأجوازها وجميع منازلها وربوعها . . . ولما علمت نافذ عزمه فى البنيان وكلفه به ، وفكرت فى اعداد الاماكن التى تتطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره فى بنيانها - مد الله تعالى فى عمره وأوفى به على أقصى أمله - علمت ان اسمه

(١) الجزء الاول من فتح الطيب صفحة ٣٣٥ .

وقوامه الصخر والاستكثار منه ، فأثارت لى همتى ونصيحتى
حكمة حيلة أحكمها سعدك وجدك اللذان يبعثان ما لا يتوهم
عليه حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدي
عبدك ابن عاصم فى عشرين عاما ، وينتهى تحصيل النفقة
فيه الى نحو الثمانين ألفا أعجل شأنه فى عام ، سوى التوفير
العظيم الذى يبدية العيان ان شاء الله تعالى ، وكذلك ما تاب
الى فى أمر الحشيب لهذه المنية المكرمة ، فان ابن خليل
عبدك المجتهد الدؤوب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج اليه
ثلاثمائة ألف عود ونيف على عشرين ألف عود ، على أنه
لا يدخل منه فى السنة الا نحو الألفى عود ، ففتح له سعدك
رأيا أقيم له بتمامه جميع هذا الحشيب العام على كماله بورود
الجليلة لوقتها ، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفا
الى الستين ألفا .

وأحمد بن عبد الملك بن شهيد مقدم هذه الهدية العظيمة
قديم الصلة بالأمويين ، ويقول (١) الرازى المؤرخ الاندلسى ان
جد أسرته مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وشهيد بن عيسى
هو الداخل الى الاندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وتصرف
بنوه للخلفاء فى الخطط السنوية من الامارة والحجابة والوزارة
والكتابة الى انقراض الدولة الأموية بالاندلس .

وتصرف أحمد هذا للناصر فى ولاية الكور والوزارة وقود
الصوائف ، وغزا البشكنس وكان من أهل الأدب البارعين ،
وهو الجند الأدنى للشاعر الأندلسى أحمد بن شهيد صاحب
رسالة التوابع والزوابع .

(١) الجزء الاول من الحلة السيرة صفحة ٢٢٨ .

ويحدثنا الفتح بن خاقان في المطمح قائلا (١) « أحمد
ابن عبد الملك بن عمر بن شهيد مفخر الامامة ، وزهر تلك
الكمامة ، وصاحب الناصر عبد الرحمن ، وحامل الوزارتين
على سموهما في ذلك الزمان ، استقل بالوزارة على ثقلها ،
وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها والتفات مقلها ، فظهر
على أولئك الوزراء ، واشتهر مع كثرة النظراء ، وكانت اماره
عبد الرحمن أسعد اماره ، بعد عنها كل نفس بالسوء اماره
فلم يطرقها صرف ، ولم يرمقها بطرف ، ففرغ الناس فيها
هضاب الأمانى ورباها ، ورتعت ظباؤها ، فى ظلال ظباها ،
وهو أسد على برائنه رابض ، وبطل أبدا على قائم سيفه قابض ،
يروع الروم طيفه ، ويجوس خلال تلك الديار خوفه ، ويروى
من نجيعهم كل آونة سيفه ، وابن شهيد ينتج الآراء ويلقحها ،
وينقد تلك الأنحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغنائه ، متجملة
بسنائه ، وكرمه منتشر على الآمال ويكثر الأولياء بذلك الاجمال
وكان له أدب تزخر لجبهه ، وتبهر حججه ، وشعر رقيق لا ينقد
ويكاد من اللطافة يعقد ، فمن ذلك قوله :

ترى البدر منها طالما فكأنما
يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى
ومفعمة الخلخال منعمة القلب
من اللائى لم يرحلن فوق رواحل
ولا سرن يوما فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المسدام لنشوة
فتشدو كما يشدو القيان على الشرب

(١) المطمح صفحة ١٠/٩ والجزء الاول من النفع صفحة ٢٥٦/٢٥٧ .

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور - متولى
الأمر معه ومشاركه فى التدبير اذا حضر مجتمعه - منافسة ،
لم تنفصل لهما بها مداخلة ولا ملابسة ، وكلاهما يتربص
بصاحبه دائره السوء ، ويفض به غصص الأفق بالنوء ، فاجتاز
يوما على ربضه ، ومال الى زيارته ولم تكن من غرضه ، فلما
استأمر عليه ، تأخر خروج ، الاذن اليه ، فثنى عنانه حنقا من
حجابه وضجرا من حجابيه ، وكتب اليه معرضا ، وكان يلقب
بالحمار :

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا
الىك ولا قلب اليك مشوق
ولكننا زرنا بفضل حلومنا
فكيف تلاقى برنا بعقوب
فراجع ابن جهور يغض منه بقوله :
حجبتناك لما زرتنا غير تائق
بقلب عدو فى ثياب صديق
وما كان بيطار الشام بموضع
يباشر فيه برنا بخلق

وكان يشاع أن جد أحمد بن شهيد وضاحا كان يعمل
ببطارا فى الشام قبل أن يخدم معاوية بن مروان بن الحسك
ويدخل فى ولائه .

ومن وزراء الناصر عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب
ابن عبد الرعوف وهو من بيت من بيوت الأندلس الكبيرة
وكان قومه من الظاهرين بين الشاميين من موالى الأمويين ، وقد
تصرف عبد الوهاب للناصر فى الولايات والأمانات ثم استوزره
وكان بصيرا بالعربية ، طالع كتاب سيبويه ونظر فيه ، وكان
لا يزال يورد على أصحابه من الوزراء مسائل من عويص النحر

حتى برموا منه ، واستعفوه من ذلك ، وله في تهنئة الناصر
بإبنه الحكم قوله :

ليهنى الناس فى ملكه
ان ابنه التاسع من بعد
يقوم فى الملك مقاماته
ويحتنى فيها على قصده
أوتى حكما فات فيه الورى
فكاد أن ينطق فى مهده
حمل أعباء العلى فاكتفى
عفوا ولم يبلغ الى جهده

ومنهم موسى بن محمد بن سعيد بن موسى ، وكان جده
موسى من موالى عبد الرحمن الداخل ، وكان موسى الوزير مع
رئاسته وجلالته ونباهة سلفه واستعمالهم فى الكور وسننات
الخطط من أهل العلم والأدب والشعر ، وأول ما تصرف فيه
للأمير عبد الله خطة القطع . ثم ولي خطة المدينة ، وعزل عنها
وأعيد إليها ، ولما أفضت الخلافة الى الناصر أقره على المدينة
واستوزره يوم استخلافه ثم استحجبه عند وفاة بدر فى سنة
٣٠٩ هـ فاضطلع وكفى .

وكان الوزير عبد الملك بن جهور يقول : « ما رأيت مثل
موسى ، لم يجمعه أمير المؤمنين مع أحد الا كان المستحوذ على
المجلس فى الجد والهزل . »

وتوفى للنصف من صفر سنة ٣٢٠ ولم يستحجب
الناصر بعده أحدا ، وكان بحجبه عند قعوده لسلام الأجناد . .
ولوفود الأطراف ، ورسل الأم وأصحاب الخيل والمدينة

والشرطة العليا والوسطى على مراتبهم مع سائر الخدمة ، ومن
شعره يمدح عبد الرحمن الناصر ويذكر هيئته :

إذا ما فرجت خلل الستور
ولاح وقد تمكن فى السرير
ترى الأملاك مائلة لديه
بأعناق الى الغبراء صور
كانهم لغيبتة قد أوفوا
من الموت الزغاف على شفير

ومن وزراء الناصر الذين كان يعتمد عليهم فى مختلف
الخطط بدر بن أحمد الصقلي ، وكان بدر وصيفاً للأمير عبد الله
جد عبد الرحمن ، فاعتقه وصرفه فى الخطط الشريفة ، وعندما
تولى عبد الرحمن الامارة رقى بدر الى الحجابة وأجرى رزقا
لولديه - أى مرتبا - عبد الرحمن وعبد الله - وبعد ذلك بقليل
ولى عبد الرحمن بن بدر خطة الخيل وفى السنة نفسها
- سنة ٣٠٠ - استخلف عبد الرحمن بن بدر مع موسى بن
محمد بن حدير صاحب المدينة على القصر عندما خرج فى
حملته الى ناحية جيان ٠٠ وفى سنة ٣٠٢ عزل عبد الرحمن
عن خطة الخيل ، ثم انتقل فى الوظائف بعد ذلك وكانت آخر
وظيفة تولها حكومة اشبيلية ، ويقول ابن عذارى عن علاقة
الناصر ببدر « وكان اصطفى مولاه بدر ، وجعله شمساً
لملكه وبدر ، وقلده خطة الحجاب ، وجعل له النفى والايجاب ،
فشده ملكه بقوة ساعده (١) » .

ومن أشهر قواده وأقدرهم أحمد بن يعلى الذى اقتحم
جليقية فى سنة ٣٣٩ هـ وكان قائداً للأسطول الذى أرسله

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٣٣٤ .

عيد الرحمن سنة ٣٤٧ هـ لمحاربة الشيعي معد بن اسماعيل صاحب افريقية ، وكان أحمد بن يعلى صاحب الشرطة فاختره الناصر لقيادة الأسطول ، وقد ولاء الناصر طليطلة فى سنة ٣٤٣ هـ ، وحين ولاء الناصر طليطلة ولى ابنه عبيد الله ما كان بيد أبيه من الاشراف على ناحية بطليوس وأعمالها ، ورفع رزقه الى أرزاق الوزراء مع مقامه على خطته فى الشرطة العليا وسمى قائد الأعنة وأغنى عبيد الله فى قتال الروم غناء أبيه ، وكان أدبيا شاعرا ، وهو القائل (١) فى أوليائه الأمويين :

ترى الأرض فينا لا يقر قرارها
إذا لم يسسها من أمية سائس

ذوو الهضبات الشم والأبحر التى
تفيض ملاء والملوك الأشاوس

هم ذهبوا بالمكرمات ولم يزل
لهم جبل العز القديم القدامس

وهم نزلوا من خندف حيث تلتقى
رعوس قصى فى الذرى والمغاطس

وهم غمסوا فى جفنة الطيب قبل أن
يرى أحد من قومهم وهو غامس

وهم أوقدوا حرب الفجار حفيظة
فقامت بها أعياصهم والعنابس

بها ليل ما ان يستضيف اليهم
بما شيدوا الا الحصال النفائس

(١) الجزء الاول من الحلة السيرة صفحة ٢٥٦/٢٥٧ .

إذا سوجلوا لم يحتملهم مساجل
وان قويسوا لم يستطعهم مقاييس

تطيف بهم ساحات مكة في العلا
وتكتفهم منها الهضاب الأمالس

ومن قواده أحمد بن محمد بن أبي عبدة الوزير القائد ،
وهو صاحب غزوة الصائفة في سنة ٣٠٥ هـ وقد أجلب فيها
مسيحيو الشمال بخيلهم ورجلهم على الجيش الاسلامي فتداعى
بعض الذين كان في قلوبهم مرض من أهل الثغور الى الهزيمة ،
وجروها على الجيش فانهزم كثير منهم ، وأبى القائد الهمام أن
يتترك ميدان القتال وثبت وأظهر الصبر ودافع مدافعة الأبطال
حتى استشهد .

ومن قواده في البر والبحر أحمد بن محمد بن الياس
وكان أحد القائدين اللذين جازا مرسى الجزيرة الخضراء
واحتلا العدو ، وحاصرا ابن أبي العيش في سنة ٣١٩ هـ وفي
سنة ٣٢٩ هـ ، كان من القواد الذين شاركوا في محاربة
راميرو .

ومن وزراء الناصر البارزين جهور بن أبي عبدة وأحمد
ابن فطيس والكاتب عبد الرحمن الزجالي ، وكان ينظر في تنفيذ
كل ما يخرج الناصر من العهود والتوقيعات وينفذ به الأمر ،
وتولى محمد بن حدير النظر في مطالب الناس وحوائجهم
وتنفيذ التوقيعات لهم ويقول ابن عذارى : أنه بذلك « (١)
اعتدل ميزان الخدمة وسهلت مطالب الرعية » .

ومنهم غالب الناصري وهو الذي قاد في سنة ٣٤٦ هـ

(١) الجزء الثاني من ابن عذارى صفحة ٣٢٩ .

الحملة الى فحص السرادق ففتح الحصون وقتل المقاتلة ، وكان
غالب يعد من أقدر قواد الأندلس وقد برز لذلك في عهد
الحكم المستنصر ، واختلف في عهد هشام الثاني حفيد الناصر
مع الحاجب المنصور وقضى نحبه في المعركة التي دارت بينه
وبين المنصور .

ومن ولاية اشبيلية اسماعيل بن بدر وكان مولى نعمة
لبنى أمية ، وعاش الى دولة الحكم المستنصر وكان أثرا عند
عبد الرحمن ، وله فيه أبيات من الشعر يقول فيها (١) :

لو كان يعبد دون الله من أحد
ما كان غيرك في الدنيا بمعبود

قد فات قدرك وصف ألواصفين
فما ذكراك الا بتحميد وتمجيد

لما ذكرتك يوما قلت من جذل
يا نعمة الله في أيامه زیدی

وكانت وظيفة القضاء عند الأندلسيين أكبر الوظائف ،
وأسماءها لصلتها بالدين وحفاظتها على أحكامه ؛ ولذلك كان
للقضاء سلطة كبيرة ، وكان القاضي يستطيع احضار الخليفة
أو الأمير ليناقشه ويقاضيه ويستمع لحجته ، وقد ذكرت في
الفصل السابق تصدى القاضي منذر بن سعيد للناصر بالانكار
واللوم الشديد لاسرافه في الاشتغال بالبناء وفرط عنايته به
فقد خشي منذر أن يصرفه ذلك عن الاهتمام بمشكلات
السياسة والنظر في ما يعود على الشعب بالخير ، ومن مشهور

(١) الجزء الأول من الحلة السيرة صفحة ٢٥٤ .

ما جرى لمنذر بن سعيد مع الناصر قصته فى أيتام (١) أخى
نجدة ، وقد رواها أهل العلم والرواية ، ومضمونها أن الخليفة
الناصر احتاج الى شراء دار بقرطبة لحظية عن نسائه لها منزلة
عالية فى نفسه فوق استحسانه لدار كانت لأولاد زكريا أخى
نجدة ، وكانت بقرب النشارين فى الرىض الشرقى لقرطبة
منفصلة عن دوره ، فأرسل الناصر من قومها له ، وأرسل
ناسا من قبله أمرهم بمداخلة وصى الأيتام فى بيعها ، فذكر
لهم الوصى أنه لا يجوز البيع الا بأمر القاضى وبعد مشورته ،
فأرسل الخليفة الى القاضى منذر بن سعيد فى بيع هذه الدار
فقال منذر لرسول الخليفة « البيع على الأيتام لا يصح الا لوجوه
منها الحاجة ، ومنها الوهى الشديد ومنها الغبطة (أى المنفعة
الظاهرة) ، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام الى البيع ، وأما
الوهى فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها ، فان أعطاهم
أمير المؤمنين فيها ما نستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع ،
والا فلا » .

ونقل جوابه الى الخليفة الناصر ، فأظهر الزهد فى شراء
الدار طمعا فى أن يعمل على توخى رغبته فيها ، وخاف منذر
أن تنبعث عزيمة عند الناصر وتشتد به رغبة يلحق الأيتام
ثورتها ، فأمر وصى الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ، ففعل
الوصى ذلك ، وباع الأنقاض ، فكانت لها قيمة أكثر مما قومت
به للسلطان .

واتصل الخبر بالناصر فعز عليه خراب الدار وهدمها ،
وأمر بتوقيف الوصى على ما أحدثه بها ، فأحال الوصى على
القاضى أنه أمره بذلك .

(١) الجزء الثانى من النسخة ٢٢٣/٢٢٤ .

فأرسل الناصر إلى القاضي منذر وقال له « أنت أمرت
بنقض دار أخى نجدة ؟ »

فقال منذر « نعم » .

فقال الناصر « وما الذى دعاك الى هذا ؟ » .

فقال منذر « أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة
فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم
ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ومقوموك لم يقوموها الا بكذا
وبذلك تعلق وهمك ، وقد نض فى أنقاضها أكثر من ذلك ،
وبقيت القاعة والحمام فضلا ونظر الله تعالى للأيتام » .

وكان عبد الرحمن يقدر نزاهة منذر ويعرف أنه لا يخاف
فى الله لومة لائم ، فكبح جماح نفسه ، وصبر على هذه
المخالفة لرغبته وقال « نحن أولى من انقاد الى الحق ، فجزاك
الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا » .

وقد روى المقري (١) أن الناصر لما أعذر لأولاد ابنه أبى
مروان عبيد الله اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء
لم يتخلف عنه أحد من أهل مملكته ، وأمر أن ينذر لشهوده
الفقهاء المشاورون ومن بينهم من العلماء والعدول ووجوه
الناس ، فتخلف من بينهم المشاور أبو ابراهيم ، وافتقد مكانه
لارتفاع منزلته ، ولحظ ذلك عبد الرحمن فسأل عنه لأنه كان
من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ، وكان المذهب المالكي
هو المذهب السائد فى الأندلس ، ووجد الناصر بسبب ذلك
على أبى ابراهيم ، وأمر ابنه وولى عهده الحكم بالكتابة

(١) الجزء الأول من فتح الطيب صفحة ٢٥٢/٢٥٣ .

اليه والتفنيده له ، فكتب اليه الحكم « رقة يقول فيها
« بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك
لما امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدى - أبقاه الله - الأولياء الذين
يستعد بهم ، وجدك متقدما فى الولاية ، متأخرا عن الصلة ،
على أنه قد أئذرك - أبقاه الله - خصوصا للمشاركة فى السرور
الذى كان عنده ، لا أعده الله توالى المسرة ، ثم أئذرت من
قبل ابلاغا فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف
ما ضاقت عليك فيه المезде ، واستبلغ أمير المؤمنين فى انكاره
ومعاتبتك عليه فأعيت على عنك الحجة ، فعرفنى - أكرمك الله -
ما العذر الذى أوجب توقفك عن اجابة دعوته ، ومشاهدة
السرور الذى سر به ورغب المشاركة فيه ، لتعرفه أبقاه الله
بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة اليه ان شاء الله تعالى » .

فأجابه أبو ابراهيم « سلام على الأمير سيدى ورحمة
الله ، قرأت أبقى الله الأمير سيدى هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن
توقفى لى نفسى ، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه
لعلمى بمذهبه ، وسكونى الى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه
الطيب رضوان الله عليهم ، فانهم يستبقون من هذه الطبقة
ببقية لا يمتهنونها بما يشينها ، ولا بما يفض منها ، ويطرق الى
تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم
ومن يفد عليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ، ولعلمى بمذهبه
توقفت أن شاء الله تعالى » .

فلما أقرأ الحكم أباه الناصر جواب أبى ابراهيم اسحاق
أعجبه ، واستحسن اعتذاره وزال ما بنفسه منه .

ويمكن أن نتبين من خلال ذلك أن الناصر كان يختار

وزراء وقضاة وقواده ومستشاريه من العلماء ومن الرجال
ذوى الكفايات والخلق المتين ولا يفسد ما بينه وبينهم اذا
صارحوه بأرائهم التى قد تختلف عن وجهة نظره ، ولا تطابق
رأيه ، وكان هذا مما أعانه على تجديد بناء دولته ، وتوطيد
مكانته •

الثقافة الأندلسية في عهد عبد الرحمن الناصر

كان عهد الناصر وابنه الحكم العصر الذهبي في تاريخ الأندلس ، فقد ازدهرت فيه الحضارة الأندلسية وبلغت الذروة ويرجع ذلك الى المجهود الضخم الذي يكاد يكون فوق طاقة البشر الذي بذله عبد الرحمن الناصر في توطيد سلطته ، وقد سار ابنه الحكم الذي أحكم الناصر تنشئته وأحسن تربيته على مثال أبيه مقتفيا آثاره مستكملا لخطاه .

وقد ولى الناصر الحكم في ظروف حرجة قاسية توزعت فيها السيطرة بين زعماء القبائل العربية والبربرية وزعماء المولدين حتى أصبح الكثير من الأقاليم مستقلا عن امارة قرطبة أو كالمستقل عنها واشتعلت الثورات في كل ناحية حتى كادت تعصف بالحكم الأموي في الأندلس أو بالحكم الاسلامي جميعه ، وبرغم ان الناصر كان في باكورة الشباب فانه استطاع بحزمه وعزمه وثبات جنانه ورجاحة تفكيره أن ينقذ الأندلس من مخالب الفوضى ويرد عليها الأمن والضائع والاستقرار المفقود ، وساعده الحظ بموت العتاة من الثائرين أمثال ابن حفصون الذي استقل بناحية ببشتر وابن

حجاج الذي استقل باشبيلية وابن جردى الذي استقل
بغرناطة

وقد استطاع الناصر أن يعيد الى الأندلس وحدتها
وينتصر على عوامل التفرقة العنصرية التي كانت ما تنفك
تعمل على صدع هذه الوحدة والقضاء عليها وبذلك استطاع
أن يمهّد السبيل لوجود « الأمة الأندلسية » ، كما استطاع
في الخارج أن يدفع خطر مملكتى ليون ونافار عن الحدود
الشمالية ويقاوم الخطر الفاطمي الذي هدد الأندلس من
الجنوب .

وفى ظل الأمن والطمأنينة أقبل الناس على مباشرة
أعمالهم في جد ونشاط فتحسنت الأحوال الاقتصادية ،
وعم الرخاء ، وساعد ذلك كله على فراغ المؤلفين للبحث
والتأليف ، وقد عرف الناصر بتشجيعه للعلماء والباحثين
في كل ناحية من نواحي العلم وجانب من جوانب الثقافة ،
ولم يبلغ أحد من الخلفاء مبلغ ابنه الحكم المستنصر في سعة
الاطلاع ، والاقبال على العلم ، وفرط العناية باقتناء الكتب ،
وكان يدفع في شرائها أغلى الأثمان كما فعل مع أبي الفرج
الأصفهاني حينما وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة
من كتاب الأغاني ، وقد حضر أبو علي القالي سنة ٣٤٠ هـ
(٩٤١ م) الى الأندلس ورحب الخليفة عبد الرحمن بقدومه
واحتفى به ، وحينما وفد على الأندلس (١) أمر الحكم بن
الناصر - وكان يتصرف عن أمر أبيه الناصر كالوزير -
عاملهم ابن رماحس أن يجيء مع أبي علي الى قرطبة ويتلقاه
في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة
تكرمة لأبي علي ، ففعل وسار معه نحو قرطبة في موكب

(١) الجزء الرابع من نفع الطيب صفحة ٧٠/٧١ .

نبيل ، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم ويتناشدون
الأشعار ، الى أن تحاورا يوما وهم سائرون حول أدب عبد الملك
ابن مروان ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل ، وأنشاده بيت
عبدة بن الطبيب :

تمت قمنا الى جرد مسومة

اعرافهن لايدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ ابا على ، فأنشد الكلمة
في البيت « اعرافها لايدينا مناديل فأنكرها ابن رفاعه
الالبيري ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفي خلقه حدة ،
فاستعاد ابا على البيت متثبتا مرتين في كليهما أنشده
« اعرافها » فلوى ابن رفاعه عنانه منصرفا وقال « مع هذا
يوجد على أمير المؤمنين ، ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو
لا يقيم وزن بيت شعر مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان
فيه ؟ والله لا تتبعته خطوة » ، فدعاه ابن رماحس وأشار عليه
بألا ينصرف ، فلم تجد فيه حيلة ، ولم يجد عن رأيه ،
فكتب ابن رماحس الى الحكم يعرفه بما حدث ، ويصف له
ما جرى ، ويشكو اليه ابن رفاعه ، فأجابه الحكم على ظهر
كتابه « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء
وافد أهل العراق اليها ، وابن رفاعه أولى بالرضا عنه من
السخط عليه فدعه لشأنه ، وأقدم بالرجل غير منتقص من
تكرمه ، فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله أو يحطه » .

وكان هذا مسلك الأندلسيين مع العلماء الوافدين عليهم
من المشرق ، فانهم كانوا يحاولون ان يكشفوا حقيقة علم
هؤلاء الوافدين ، ويختبروا مدى معرفتهم ليزنوا أقدارهم ،
ويتبينوا استحقاقهم للأخذ عنهم والثقة بعلمهم ، وقد

استطاع القالى أن يثبت لهم بعد ذلك غزارة علمه باللغة
وسعة معرفته وأمل على طلبته كتابه المشهور المسمى
« بالأعمال » وتوثقت العلاقة بينه وبين الحكم بن الناصر حتى
ندبه للخطابة فى حضرة سفراء القسطنطينية الى قرطبة وأصابه
الحصر والعى فلم يستطع المضى فى الخطبة يوم الاحتفال ، وقد
مدحه شاعر الأندلس الرمادى بقصيدة مطلعها :

من حاكم بينى وبين عواذلى
الشجو شجوى والعويل عويل

وفىها يقول فى مدحه :

قسه الى الأعراب تعلم أنه
أولى من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت
فيهم وحاز لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده وكأنما
نزل الخراب بربه المأهول
وكانه شمس بدت فى أفقنا
وتغيبت عن شرقهم بأقول
يا سيدي هذا ثناء لم أقل
زورا ولا عرضت بالتنويل
من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ
لم أرج غير القرب فى تأميلي

وكان والد (١) القالى مولى لعبد الملك بن مروان وكان
هذا من أسباب الميل اليه واستدعائه الى قرطبة ، وقد

(١) الجزء الرابع من النفع صفحة ٧٥/٧٠ .

عرف القالى بين الاندلسيين بسعة الاطلاع فى العلم والرواية
فسمع الناس منه ، وقروا عليه كتب اللغة والأخبار
والأمالى ، وله غير كتاب الأمالى كتاب « الممدود والمقصود »
وغير ذلك من الكتب القيمة ، وقد ظل فى قرطبة يبت علمه
الى وفاته فى سنة ٣٥٦ وقد حضر (١) الى قرطبة فى سنة ٣٣٠
واستوطنها وألف أكثر كتبه بها وأخذ عنه فى الأندلس
أبو بكر الزبيدى الأندلسى صاحب « مختصر العين » وكان
الزبيدى (٢) اماما فى الأدب ولكنه عرف فضل القالى فمال اليه ،
واحتفى به ، واستفاد منه ، وأقر له ، وأصله من اشبيلية ،
وسكن قرطبة فنال بها جاها عظيما ورياسة ، واستأدبه
المستنصر بالله لابنه هشام ثم قدمه الى خطة الشرطة وقد قرأ
عليه بعض كتب اللغة وبعض ما ألفه وتوفى الزبيدى سنة
٣٧٩ هـ .

ومن الاندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية
أبو بكر بن القوطية الذى ألف كتاب « تصريف الأفعال »
وكتاب المقصور والممدود ، وكان ابن القوطية من المؤرخين ، وله
فى التاريخ كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » وهو يتناول
تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية امارة الأمير عبد الله
ويرجع البحاث الأسباني الأستاذ (٣) « ريبيرا » أن هذا
الكتاب مجموعة أخبار رواها ابن القوطية وسجلها بعض
تلاميذه ، وهو حفيد لسارة القوطية حفيدة غيطشة ملك
القوط قبل لذريق وكانت سارة هذه قد لجأت الى الخليفة
الأموى سليمان بن عبد الملك فى دمشق لتشكو اليه ظلامة

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول صفحة ٢٠٤ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى صفحة ١٠/٨٩ .

(٣) الأدب الأندلسى للدكتور أحمد هيكى صفحة ٢٠٨ .

أصابتها ، فكرمها وزوجها من أحد مواليه ، وكان من سلالة هذا المولى الأموي هذا العالم اللغوي المؤرخ .

ومن المؤرخين الأندلسيين الذين ظهوروا في هذه الفترة (١) أحمد بن موسى الرازي وكان يلقب بالتاريخي لكثرة اشتغاله بالتاريخ ، وله في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وركبانهم وغزواتهم كتاب كبير ، وألف في صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها وله كتاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس .

واشتهر بكتابة التراجم في هذه الفترة (٢) أبو عبد الملك ابن عبد البر القرطبي مؤلف كتاب « فقهاء قرطبة » وهو من موالى بنى أمية ، ويقول عنه ابن الفرضي : أنه كان بصيراً بالحديث فقيها نبيلاً ، وقد توفي سنة ٣٣٨ سجيناً وكان قد اتهم بالاشتراك في المؤامرة التي دبرها عبد الله بن الخليفة الناصر .

ومنهم (٣) أبو عثمان بن عبد البر الكشكشاني وقد صنف كتاباً عن « الفقهاء والقضاة بقرطبة والأندلس » وقد توفي سنة ٣٦٣ هـ ومنهم (٤) محمد بن الحارث الحشني ، وأصله من القيروان ، ووفد على الأندلس ، وسمع عن علماء قرطبة ، وهو صاحب كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » وقد ترجم فيه لجمهرة من أهل القضاء والعلم في الأندلس حتى عصره ، وفي الكتاب معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية في

-
- (١) جلوة القنيس صفحة ١٠٤ .
 - (٢) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٢٨ .
 - (٣) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٤٩ .
 - (٤) تاريخ علماء الأندلس القسم الثاني صفحة ١١٢ .

تلك البلاد منذ الفتح الى عهد الحكم المستنصر ، وله كتاب آخر عن «أخبار الفقهاء والمحدثين» وتعتبر كتبه من المراجع الدقيقة ؛ لأنه كان يعرف الكثير من شئون القصر ويطلع على العديد من السجلات ، وكانت له صلات بالحكام والقواد والقضاة والأدباء ، وتوفى سنة ٣٦١ هـ .

وبرع في الفقه عديدون وكان أكثرهم من أعلام المذهب المالكي الذي ساد في الأندلس منهم (١) عبد الله بن محمد بن أبي دليم بن عبد الله ويقول عنه ابن الفرضي : انه كان نبيلاً في الحديث ضابطاً لما روى بصيراً بالأعراب ، وقد ولاه المستنصر قضاء البيرة وبجانة وأحكام الشرطة وكانت له منه مكانة وتوفى سنة ٣٥١ هـ .

وهناك فقهاء آخرون نبغوا في فقه غير الفقه المالكي ومما ساعد على ذلك الحرية الفكرية التي أتاحت للعلماء في عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر ، منهم عثمان بن سعيد الكناني وكان جامعاً للكتب ومعتنياً بالعلم مناظراً على مذهب الإمام الشافعي ، وألف كتاباً في شعراء الأندلس وتوفى سنة ٣٢٠ ومنهم أسلم بن عبد العزيز بن هاشم وقد ولي قضاء الجماعة بقرطبة مرتين وتوفى سنة ٣١٩ هـ .

وكانت قد ظهرت البوادر الأولى للتفكير الفلسفي على يد ابن مسرة (٢٧٠ - ٣١٩) (٨٨٣ / ٩٣١) الذي أذاع بين مسلمي أسبانيا مبادئ الفيلسوف اليوناني أنباذوقليس وقد اتهم بالالحاد ففر من البلاد مدعياً أنه يريد الحج وظل خارج أسبانيا حتى تولى عبد الرحمن الناصر الذي اشتهر بالتسامح وتأييد العلماء فعاد إليها واثراً في

(١) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٢٢٢ .

تفكير جماعة من الأندلسيين منهم طريف الروطى ورشيد بن محمد .

وكذلك أقبل نفر من الأندلسيين فى عهد الناصر على دراسة الرياضيات والفلك والطب ، وقد نبغ فيه اعلام من الأندلسيين ، وكانت دراسة الطب موضع عناية الناس فى الأندلس قبل عهد الناصر ولكنها تقلمت فى عصره .

وكان لشيوع الحرية الفكرية وتشجيع العلماء واكبارهم على اختلاف مذاهبهم تأثير كبير فى هذه النهضة الثقافية التى اتسم بها عهد الناصر وخليفته الحكم المستنصر .

وقد كان من الطبيعى أن يظهر التقدم الحضارى والتوثب الفكرى والنضج العلمى فى الحياة الأدبية بالأندلس ، لأن الأدب يتأثر بمؤثرات البيئة ويتسم بسماحتها ، وكان للأندلسيين ولح بالشعر ، وشدة تعلق به ، فالأمراء والحلفاء والقضاة والوزراء والنحاة واللغويون جميعهم كانوا ينظمون الشعر ، وتجدد به قرائحهم فى المراسلات الخاصة وفى حوار الأحاديث اليومية المألوفة وفى مواقف الجد والبطولة وكذلك فى ساعات اللهو والأخذ بنصيب من المتع الدنيوية ، وللأندلسيين أشعار كثيرة فى وصف الرياض ، والاشادة بجمال الطبيعة ، ومجالس الشراب ، ومن كبار ممثلى الدراسات الأدبية والشعر فى الأندلس فى عصر الخليفة الناصر ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) وابن هانىء الأندلسى (٣٢٦ - ٣٦٣) والرمادى (توفى سنة ٤٠٣) وقد عاش ابن عبد ربه قبل عهد الناصر فقد ولد فى قرطبة سنة ٢٤٦ هـ ونشأ بها ميالا الى العلم والأدب وبرع فى دراسة العلوم العربية ، وأجاد الشعر والكتابة ، وكان واسع الاطلاع غزير المادة سمح القريحة ، وظهرت بواذر شهرته فى عهد الأمير محمد ، وعاصر

ابنيه : الأمير المنذر والأمير عبد الله وامتد به الأجل الى عهد
الناصر حتى صار من المع شعراء القسم الأول من حياة
الناصر وأبرز أدبائه ، وقد نال جاها عريضا عند الأمراء
السابقين لعهد الناصر ومدحهم في قصائده ، وفي عهد الناصر
نضج أدبه ، وتوالت مدائحه في الناصر الى أن نظم فيه
أرجوزته المشهورة التي تناولت جميع مغازيه حتى سنة
٣٢٢ هـ ووصف فيها تاريخ كل غزوة ، وهي أشبه ما تكون
بالتاريخ المنظوم ، وهو يقول في مطلعها :

سبحان من لم تحوه أقطار
ولم تكن تدركه الأبصار
ومن عنت لوجهه الوجوه
فما له ند ولا شبيه
سبحانه من خالق قدير
وعالم بخلقه بصير
وأول ليس له ابتداء
وآخر ليس له انتهاء
أوسعنا احسانه وفضله
وعز أن يكون شيء مثله
وجل أن تدركه العيون
أو يحويه الوهم والظنون

وبعد استيفاء هذه المقدمة يتطرق الى مدح الناصر
ووصف مغازيه قائلا :

اقول في أيام خير الناس
ومن تحلى بالندى والباس

ومن أباد الكفر والنفاق
ومرد الفتنة والشقاق
ونحن في حنادس كالليل
وفتنة مثل غشاء السيل
حتى تولى عابد الرحمن
ذاك الأغر من بنى مروان
مؤيد حكم في عداته
سيفا يسيل الموت من ظبائه
وصبح الملك مع الهلال
فأصبحا ندين في الجمال
واحتمل التفوى علي جبينه
والدين والدنيا علي يمينه
قد أشرقت بنوره البلاد
وأنقطع التشغيب والفساد
هذا علي حين طفى النفاق
واستفحل النكاث والمراق
وضاقت الأرض علي سكانها
وأذكت الحرب لظى نيرانها
ونحن في عشواء مدلهمة
وظلمة ما مثلها من ظلمة
تأخذنا الصيحة كل يوم
فما تلد مقللة بنوم
وقد نصلى العيد بالنواظر
مخافة من العدو الثائر

حتى أتانا الغوث من ضياء
طبق بين الأرض والسما
خليفة الله الذي اصطفاه
على جميع الخلق واجتباه

وبعد أن ينوه بمآثر عبد الرحمن ويشيد بكرمه
وبطولته وجمعه شمل الأمة وتجديده الملك الذي أخلق ،
وتثبيته قواعده ، ينتقل الى وصف غزواته غزوة غزوة مما
يجعل لهذه الأرجوزة أهمية خاصة من الناحية التاريخية ،
وهى على سلاسة نظمها ودلالته على تمكنه اللغوى وقدرته
على النظم ينقصها روعة الشعر ، وقوة الحيال ، وطلاوة
الفن ، وفى مستهل حديثه عن عبد الرحمن الناصر فى كتابه
المشهور المسمى بالعقد الفريد يقول « ثم ولى الملك القمر
الأزهر ، الأسد الغضنفر ، الميمون النقيبة ، المحمود الطريقة
سيد الخلفاء ، وأنجب النجباء ، عبد الرحمن بن محمد أمير
المؤمنين . . . وتولى الملك والأرض جمرة تحترق ، ونارا تضطرم
شقاقا ونفاقا ، فأحمد نيرانها وسكن زلازلها ، وافتتحها
عودا كما افتتحها بدءا سمي عبد الرحمن بن معاوية ، رحمه
الله ، وقد قلت وقيل فى غزواته كلها أشعار ، قد جالت فى
الأمصار ، وشردت فى البلدان ، حتى أتهمت وأنجست
وأعرقمت ، ولولا أن الناس مكتفون بما فى أيديهم منها لأعدنا
ذكرها أو ذكر بعضها ، ولكننا سنذكر ما سبق إلينا من
مناقبه التى لم يتقدم إليها متقدم ، ولا أخت لها ولا نظير ،
فمن ذلك أول غزوة غزاها ، وهى الغزوة المعروفة بغزوة
المتلون ، افتتح بها سبعين حصنا ، كل حصن منها قد
نكلت عنه الطوائف وأعيان على الحلائف وفيها أقول :

قد أوضح الله للاسلام منهاجا
والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها
كأنما ألبست وشيا وديباجا
يا ابن الخلائف ان المزن لو علمت
نذاك ما كان منها الماء ثجاجا
والحرب لو علمت بأسا تصول به
ما هيجت من حمياك الذي اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر ذمته
وذلت الحيل الجاما واسراجا
وأصبح النصر معقودا بألوية
تطوى المراحل تهجيرا وادلاجا
أدخلت في قبة الاسلام مارقة
أخرجتهم من ديار الشرك اخراجا
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به
كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا
تروق فيه بروق الموت لامعة
وتسمعون به للرعء أهزاجا
غادرت في عقوتي جيان ملحمة
أبكيت منها بأرض الشرك أعلاجا
تملا بك الأرض عدلا مثل ماملئت
جورا وتصبح للمعروف منهاجا
يا بدر ظلمتها ويا شمس صبيحتها
يا ليث حومتها ان هائج ماجا

ان الخلافة لن ترضى ولا رضيت
حتى عقدت لها فى رأسك التاجا

ويشير الى كلف عبد الرحمن باقامة المباني والمنشآت
قائلا: «ومن مناقبه أن الملوك لم تزل تبني على أقدارها، ويقضى
عليها بآثارها ، وأنه بنى فى المدة القليلة ما لم تبين الخلفاء فى
المدة الطويلة ، نعم لم يبق فى القصر الذى فيه مصانع أجداده
ومعالم أوليته بنية الا وله فيها أثر محدث ، اما تزيين أو
تجديد ، ومن مناقبه أنه أول من سمى أمير المؤمنين من خلفاء
بنى أمية بالأندلس ، ومن مناقبه التى لا أخت لها ولا نظير ،
ما أعجز فيه من بعده ، وفات فيه من قبله ، الجود الذى لم
يعرف لأحد من أجواد الجاهلية والاسلام الا له ، وقد ذكرت
ذلك فى شعري الذى أقول فيه :

يا ابن الخلائف والعلا للمعتلى
والجود يعرف فضله للمفضل
نوهت بالخلفاء بل أهملتهم
حتى كأن نبيلهم لم ينبل
أذكرت بل أنسيت ما ذكر الالى
من فعلهم فكأنه لم يفعل
وأتييت آخرهم وشأوك فانت
للآخرين ومدرك للاول
الآن سميت الخلافة باسمها
كالبدر يقرن بالسماك الأعزل
تأبى فعالك أن تقر لآخر
منهم وجودك أن يكون لأول

ولا بن عبد ربه أشعار كثيرة سماها « المحصنات » وذلك
أنه نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في الموعظ
والزهد محصها بها كالتوبة منها والندم عليها ، مثال ذلك أنه
نظم في صباه الأبيات الآتية وكان بعض من يألفه أزمع على
الرحيل في غداة ذكرها ، فأتت السماء في تلك الغداة بمطر
حال بينه وبين الرحيل ، فكتب إليه ابن عبد ربه :

هلا اذكرت لبين أنت مبتكر
هيهات يابى عليك الله والقدر

ما زلت أبكى حذار البين ملتفها
حتى رثى لي فيك الريح والمطر
يا بردة من حيا مزن على كبد

نيرانها بقليل الشوق تستعر
آليت أن لا أرى شمساً ولا قمراً
حتى أراك فأتت الشمس والقمر
وقد محص هذه القطعة بالأبيات الآتية :

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدر
ولا يقضى له من عيشه وطر
عائن بقلبك ان العين غافلة
عن الحقيقة واعلم أنها سقر
سوداء تزفر من غيظ اذا سعرت
للظالمين فلا تبقى ولا تذر

ان الذين اشتروا دنيا بآخرة
وشقوة بنعيم ساء ما تجروا

يا من تلهى وشيب الرأس يندبه
ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر

لو لم يكن لك غير الموت موعظة
لكان فيك عن اللذات مزدجر
أنت المقبول له ما فات مبتدئا
هلا اذكرت لبين أنت مبتكر

ولابن عبد ربه في النثر كتابه الشهير المعروف « بالعقد
الفريد » جرى فيه على طريقة المشاركة في فن التأليف الأدبي ،
وقد جمع فيه الكثير من الرسائل والخطب والقصائد والقصص
والأخبار التاريخية ، وتعرض فيه للبلاغة والنقد والعروض
والموسيقى وقد قسم كتابه الى خمسة وعشرين بابا وسمى كل
باب باسم حبة من حبات العقد الحقيقي ، وجعل تلك الأبواب
في ترتيبها كحبات العقد المنظوم في ترتيبه ، والكتاب في
مجموعة مزيج من الأدب والتاريخ والأخبار والطرائف والنوادر
والشعر والنثر والحكم والأمثال وأكثر مواد الكتاب تتصل
بالمشرق وتاريخه ، ليس فيه سوى القليل من أخبار الأندلس
مما بعث الصاحب بن عباد على أن يقول حينما اطلع على
الكتاب « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ويبدو أن ابن عبد ربه
أراد أن ينقل الى مواطنه في الأندلس من انتاج الثقافة الأدبية
الشرقية ما يغنيهم عن الرجوع الى كثير من الكتب والمراجع .

ومن الشعراء المشاركة الذين أثروا في الأدب الأندلسي
أبو الطيب المتنبي وقد عاش أبو الطيب خلال عهد الناصر
(ولد سنة ٣٠٣ وتوفي قتيلا سنة ٣٥٤) وقد لقيه بمصر
الأديب الأندلسي (١) زكريا بن بكر بن أحمد الغساني
المعروف بابن الأشج ، وأخذ عنه ديوان شعره رواية واذاعه
بها ، وتأثير المتنبي ظاهر في الكثيرين من شعراء الأندلس

(١) تاريخ علماء الأندلس صفحة ١٥٢ .

المعاصرين والذين جاءوا بعد عهده مثل الرمادى وابن هانىء
الأندلسى وابن دارج القسطلى وأبى بكر بن عمار وغيرهم من
شعراء الأندلس البارزين .

وقد عاصر المتنبى وعبد الرحمن الناصر الشاعر
الأندلسى الشهير بابن هانىء (٣٢٦/٣٦٣) وهو أبو الحسن
محمد بن هانىء وكان أبوه هانىء يستوطن أولا إحدى قرى
شمال إفريقية ثم هاجر الى الأندلس حيث ولد له ابنه محمد
بمدينة أشبيلية ، وكان والده أديبا شاعرا فنشأ ابنه بين
أشبيلية وقرطبة والبيرة نشأة أدبية شعرية ودرس أدب العرب
ولغتهم وأشعارهم ونبغ فى الشعر واتصل بصاحب أشبيلية
وحظى عنده ، ويقول عنه ابن دحية فى المطرب (١) « كان قبيح
الغلو شهير الاستهتار ، ويعطل لنا الفتح بن خاقان سبب
خروجه من الأندلس بقوله : زهت به الأندلس وقاهت
وحاسنت بينائعه الأشمس وزاهت فحسد المغرب فيه المشرق ،
غير أنه ثبت به أكنافها وشمخت عليه أنافها ، وبرئت منه ،
وزوى الخير فيها عنه لأنه سلك مسلك المعرى وتجرد من
الدين وعرى وأبدى الغسلو وتعدى الحق المجلو ، فمجته
الأنفس وأزعجته الأندلس ، وساءت المقالة فى حق صاحب
أشبيلية بسببه ، واتهم بمذهبه ، وبرغم أن الأندلس فى عهد
الناصر كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية الفكرية إلا أن
أهل الأندلس بطبيعتهم كانوا أميل الى التشدد فى القضايا
التي تمس الدين ، وأشار الوالى على ابن هانىء بالغيبة عن

(١) المطرب صفحة ١٩٢ .

(٢) المطمح صفحة ٨٤ .

البلدة ريثما ينسى أمره فبرحها وعمره ٢٧ سنة الى بلاد المغرب والدولة الفاطمية تهم بالاتجاه الى فتح مصر ، ويبدو أن السبب الحقيقي لخروجه من الأندلس هو اتصاله بالدعوة الفاطمية وقد كان أكثر مدحه لجعفر ويحيى ولدى الملقب بابن الأندلسية ، وكان جعفر واليا على الزاب وكان أخوه مساعدا له وكانا في تلك الآونة موالين للفاطميين ثم اتصل بجوهر الصقلي ونمى خبره الى المعز فأعجب به وطلب أن يتوجه اليه وكانت له فيه أشعار قوبلت بالاستحسان والتقدير وانتهت حياته نهاية غامضة قبل أن يصل الى مصر .

ومن الشعراء الأندلسيين الذين عاصروا عهد الخلافة الأموية في الأندلس وتأثروا في نشأتهم بالاستقرار والأمن والرخاء الذي أوجده الناصر الرمادي وهو يوسف بن هارون الكندي ، وكان كثيرون من شيوخ الأدب في وقته يقولون «فتح الشعر بكندة وختم بكندة» يعنون امرأ القيس والمتنبى ويوسف بن هارون وكانا متعاصرين وقد مدح الرمادي الحكم المستنصر وولى عهده هشاما والرؤساء وعاش الى أيام الفتنة وكان في زمنه يعد شاعر أهل الأندلس المشهور وهكذا مكن الاستقرار الذي أحدثه عبد الرحمن الناصر بالأندلس والأمن الذي نشره في ربوعها الحياة الثقافية من التقسيم والازدهار فوجدت مواهب العلماء وملكات الفنانين والأدباء مجالا للعمل والتقدم والنماء .

عبد الرحمن الناصر في حياته الخاصة

كان الناصر في حياته الخاصة دمث الأخلاق راجح الحلم، وكان على غلاء جانبه واستيلاء هيئته يرتاح للشعر ويتبسط الى أهله ، ويراجع من خاطبه به من خاصته ، روى صاحب « كتاب الحقائق » عن أبي بكر اسماعيل بن بدر - وكان مولى نعمة لبنى أمية - وهو من أهل قرطبة وغلبت عليه صناعة الشعر ، انه خاطب الناصر في غزاة كان آلى ألا يأنس فيها بمنادمة أحد حتى يفتتح معقلا ، فافتتح معقلا بعد آخر ، وتمادى على عزمه في العزوف عن المنادمة .

فكتب اليه اسماعيل بن بدر (١) :

لقد حلت حميا الراح عندي
وطابت بعد فتحك معقلين

وأذن كل هم بانفراج
وأن يقضى غريم كل دين

فلم يحرك هذا الشعر الناصر ولم يثنه عن عزمه ، فعاوده

(١) الجزء الأول من الحلة السراء صفحة ٢٠٠/١٩٩ .

اسماعيل بن بدر بقوله :

يا ملكا رآيه ضياء
في كل خطب الم داج
من لي بيوم به فراغ
ليس أخو حربه بشاج
بكل بيضاء من رآها
يحسبها شعلة السراج
لا تنس مولاك في وغانه
واذكره في حومة الهياج
فذكر أن الناصر جاوبه بقوله :

كيف واني لمن ينجا
من لوعة الهم ما أناجى
يطمع أن يستريح وقتا
أو يقتل الراح بالمزاج
لو حمل الصخر بعض شجوى
عاد الى رقة الزجاج

كنت لما قد علمت ألهو
اذ أنا مما شكوت ناج

فصرت للبين في علاج
طم وأربى على العلاج

الورد مما يهيج حزني
ويبعث السوسن احتياجي

أرى ليالي بعد حسن
أقبح من أوجه سماج

لا ترج ممّا أردت شيئا
أو يؤذن الهم بانفراج

وقد ولى بعده الخلافة ابنه الحكم وهو ابن سبع وأربعين
سنة وقيل ابن ثمان وأربعين سنة وقد استغرقت خلافة أبيه
الطويلة عمره حتى كان يقول له فيما يحكى عنه :

« لقد طولنا عليك يا أبا العاصي ! »

وكان الحكم حسن السيرة فاضلا عادلا مشغوبا بالعلوم
حريصا على اقتناء الكتب القيمة يبعث بها الى الأقطار والبلدان
ويبذل فى أعلاقتها ودفاتها أنفس الأثمان ، وحملت اليه
الكتب من كل جهة ، قال عنه المؤرخ الأندلسى ابن حيان (١)
« كان من أهل العلم والدين ، راغبا فى جميع العلوم الشرعية
من الفقه والحديث وفنون العلم ، باحثا عن الأنساب حريصا
على تأليف قبائل العرب والحقاق من درس نسبه أو جهله
يقبيلته التى هو منها ، مستجلبا للعلماء ورواة الحديث من
جميع الآفاق ، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروى
عنهم » .

وكان الحكم هو بكر أولاد الناصر ، ولذلك رشحه
للخلافة ، وكان له أخ ، هو عبد الله مثله يميل الى العلم والعلماء
وكان من نجباء أولاد الناصر ، وله تواليف تدل على علمه
وفهمه - كما يقول ابن الأبار فى الحلة السيرة - وتشهد
بشرف ذاته وكمال أدواته ، منها كتاب « العليل والقتيل
فى أخبار ولد العباس » انتهى به الى خلافة الراضى بن المقتدر ،
ومنها « المسكتة فى فضائل بقى بن مخلد » وقال عنه ابن حزم

(١) الجزء الثانى من الحلة السيرة صفحة ٢٠١ .

« كان فقيها شافعيًا ، شاعرا أخباريا متنسكا ومن شعره .

أما فؤادي فكاتم ألمه
لو لم يبح ناظري بما كتبه
ما أوضح السقم في ملاحظ من
يهوى وإن كان كاتما سقمه
ظلمت أبكي وظل يعذلني
من لم يقاس الهوى ولا علمه
اليك عن عاشق بكى أسفا
حبيبه في الهوى وإن ظلمه
ظلت جيوش الأسي تقاتله
مذ نذرت أعين الملاح دمه

وكان ولدا الناصر هذان يتباريان في طلب العلم وجمعه
ويتبادران الى اصطناع أهله والاختصاص برجاله ، وادناء
منازلهم والاحسان اليهم ، وكان العالم الأديب الأندلسي الفقيه
أحمد بن محمد بن عبد البر وهو من الفقهاء الذين عاشوا
في عهد الناصر - من أصحاب عبد الله المختصين به حتى لا يكاد
يفارقه ، فسعى الى الخليفة الناصر بابنه عبد الله ، ورفع عليه
أنه يريد خلعه ، ويدعو الى القيام معه ، وإن جماعات من طبقات
الناس دخلوا في ذلك معه : وأمنهم على أن يشوروا به في يوم
عيد قد اقترب اليه .

ولما علم الناصر بذلك أرسل في الليل من قبض على
ولده عبد الله وجبسه ، وألقى عنده في تلك الليلة الفقيه
أحمد بن محمد بن عبد البر وفقيها آخر - وهو أحمد بن
عبد الله بن العطار كانا بائنين عنده فأخذا وحملا الى الزهراء
حاضرة الناصر بأسفل قرطبة فأمر بسجنهما ، وعرف الوزراء

بخبره ولده عبد الله ، وكشف لهم عظيم ما أراد أن يحدثه عليه وعلى المسلمين فيه وتبرأ منه ، وأعلمهم بمسارعتهم إلى القبض عليه ، ووجد أن يسلمه هذين الفقيهين النطفيين البائتين عنده ، وقال لهم « ما أعجب إلا من مكان ابن العطار عنده ! ما الذى أدخله فى هذا مع غباوته وقلة شره ؟ وأما ابن عبد البر فأنا أعلم أنه الذى زين لهذا العاق ذلك ليكون قاضى الجماعة ، ويأبى الله ذلك » .

فهناك الوزراء بالسلامة ، ودعوا الله له ، وعزم الناصر على أن يعاقب ابن عبد البر يوم العيد - عيد الأضحى - الذى كان التدبير عليه فيه ، فأصبح ابن عبد البر يوم العيد نفسه ميتا فى السجن ، وأسلم إلى أهله فدفن بمقبرة الربيض سنة ٣٣٨ ، وتانى الناصر بابنه عبد الله مديدة إلى أن قتله فى آخر سنة ٣٣٨ ، وكان عبد الله هذا يلقب بالزاهد ، وقد أبى الناصر أن يترفق بابنه فكانت خاتمة مثل خاتمة أبى الناصر نفسه ، وكانت الجرائم التى ترتكب ضد أمن الدولة لايتهاون فى أمر المقدم عليها ، وكان على الدوام جزاؤه الاعدام مهما تكن قرابته من ولي الأمر ، وقليل من الأمراء الأمويين من لم تشب ذكراهم ذكرى قتلهم لأحد أبنائهم ، ولم تكن هذه هى المؤامرة الوحيدة التى دبرت لاغتيال الناصر، فان ابن عذراى (١) يحدثنا أنه فى سنة ٣٠٩ هـ أمر الناصر بقتل العاصى بن الامام عبد الله ومحمد بن عبد الجبار بن الامام محمد اذ شهد كل واحد منهما على صاحبه بمطالبة للخلافة ونقض البيعة وكثرا فى ذلك كما (٢) يحدثنا أنه فى سنة ٣٠٧ هـ أمر بقتل موسى بن زياد الذى ولى الوزارة فى أيام الامام عبد الله وكثرت مطالبه للناس وكان يجاهر بكراهية الناصر، ويرفع عليه إلى جده

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٢٧٢ .

(٢) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٢٦٢ .

ويغرى الامام عبد الله برجاله فحبسه الناصر ولم يزل محبوسا الى أن أمر بقتله .

وكان الناصر يلين ويعفو فى الأمور التى لا تمس أمن الدولة ، ويحدثنا (١) ابن عذارى أن السيدة ابنة الامام عبد الله التى توفيت سنة ٣١٩ هـ كانت نافرت الناصر فى أيام حدائته وقبل افضاء الخلافة اليه وطالبته وأدته عند أبيها عبد الله الامير ، فلما ولى الناصر لم تشك فى معاقبته لها ومجازاته لسوء معاملتها ، فكان الأمر على خلاف ظنها ، وقرب الناصر مكانها ، ورفع منزلتها ، واختصها فى جملة من اختص من أهله وبنات أعمامه حتى صارت أقربهن محلا منه .

ومن أفضاله مع بعض عماله ما رواه المؤرخ الأندلسى حيان ابن خلف وهو أن محمدا بن سعيد المعروف بابن السليم كان قد احتجن أموالا كثيرة خلال تصرفه فى كبار الولايات فى المدة الطويلة التى عمل بها ، وعلم بذلك الناصر ، فعرض له مرارا فى أن يسهمه فيه عن طيب نفس منه ، وهو ملكه ولو شاء لأخذه منه ، ولكن أبى له ذلك كرم طبعه ، فقال فى مجلسه يوما « ما بال رجال من خاصتنا توسعوا فى دنيانا ، فطفقوا يحتجنون الأموال وهم يرون غليظ مئونتنا فى الانفاق على شئوننا التى بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم ، ورفاهية عيشهم ، ويعلمون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاسم عماله قسما من الموازين فى أرباحهم فى عمالاتهم ، فصيرها فى بيت المال وهم من هم وهو من هو ، والأسوة فى فعله » .

فسكت ابن السليم عنه ، وخالطه فى تعريضه كأنه يعنى غيره فازداد الناصر حنقا عليه وغیظا ، فقال له يوما

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٣٠٩ .

فى بعض مجالسه الخاصة معه وقد أخذ الشراب منه ، وشق
تفاحة بسكين فى يده « وددت أن أشق هكذا رأس من أعرف
له مالا كثيرا غله دوننا ، ولم يسهم لبيت المال منه » .

فطار عقل ابن السليم ، ولم يختلجه الشك فى أنه المعنى
به ، فقام بين يديه وقال « بلى ، والله ان عندى مالا كثيرا ،
وهو دون ظنك فيه ، حطته بالتقتير ، وأعددت له للدهر العثور ،
ولست والله أعطيك منه درهما فما فوقه ورأيتك فى جيل ، الا أن
تستحل ، وأعوذ بالله ان تمد يدك اليه بغير جناية منى عليك ،
فان الأنفس محضرة الشح » .

ولم يكن عند الناصر بينة يدين بها الرجل ، أو حجة
يستطيع أن يؤيد بها شبهة غامضة أو اتهام خفى ، فنجل
وأطرق وتلا قوله تعالى « ان يسألكموها فيحلفكم تبيخلوا ويخرج
أضغانكم » .

ثم أقبل على ابن السليم يؤنسه ويسكن جأشه الى أن
اعتدل مجلسه فجعل يمعن فى الشرب طلبا للسكر للذى خامره
من النعر .

فقال له الناصر « خفض عليك يا محمد فلا سبيل
اليك » .

وعمل على ازالة ما علق بنفسه وقال له « ليتنى أخرج
كفافا من شأنى معك الليلة تأنيسا باخافة والطافا بجفوة »
ثم أمر له بكسوة .

وأحدثت هذه المعاملة الكريمة والتلطف فى المواساة
أثرهما فى نفس ابن السليم ، فلم تمض أيام حتى أرسل
الى الناصر بمائة ألف ، فقبلها الناصر وشكر فضله ، وعوضه
بكبير الولاية ، وصحبته منه النعمة العريضة الى حين وفاته .

ويرى لنا (١) ابن عذارى أن الخليفة الناصر جلس يوما مع بعض خاصته وفيهم الوزير ابن جهور ووزيره أبو القاسم لب ، وأراد الناصر أن يمازحهم فقال « يا لب ، اهج الوزير عبد الملك بن جهور » .

فامتنع لب خشية أن يفسد ما بينه وبين الوزير .
فقال الناصر لابن جهور « اهجه أنت اذ أبى هو هجوك » .

فقال ابن جهور « يا أمير المؤمنين أتوقى عرضي منه وأصون نفسي » .

فقال الناصر « فأنا أهجوهُ » وأنشد :

لب أبو القاسم ذو لحية
طويلة في طولها ميل

والتفت الى ابن جهور قائلاً « لا بد لك من تذييل هذا البيت ، ودع الاعتذار »

فقال ابن جهور :

وعرضها ميلان أن كسرت
والعقل مأفون ومدخول

لو انه احتاج الى غسلها
لم يكفه في غسلها النيل

فضحك الناصر ، وقال للشاعر المهجو « انه قد سبب لك القول فقل »

(١) البيان المغرب الجزء الثاني صفحة ٣٣٩ .

فقال لب :

قال أمسين الله في خلقه
لى لحية ازرى بها الطول

وابن جهر قال قول الذى
ماكله القرطيل والفول

لولا حيائى من امام الهدى
نخست بالمنخس شو

ولما بلغ الى قوله « شو » سكت ، فقال له الناصر
« قولوا » .

فقال له لب « انت هجوته يا مولاي » .

والاضحاك عنها يأتى من استعمال (١) لفظتين رومانيتين
وهما « شو » و « قولو » واللفظة الاولى تدل على ضمير
الملك واللفظة الثانية معناها الردف .

وقد أدت الصلة اللغوية بين العنصرين : العربى
والاسبانى فى فترة الخلافة الى تسرب مثل هذه الألفاظ
الأجنبية الى لغة الشعر .

وكان الناصر مع حسن خلقه ، ومأثور حلمه ، ربما
ألمت به فى المنادمة وسوسة تكدر ما عرف عنه وما يعتاد
منه ، ولما كثرت أقلق عن المنادمة والتزم الزهد ، ومن قبيح
ما يروى عنه قصته مع الجارية التى كان يؤثرها ، وكانت
عنده بمنزلة حباية من يزيد فأسرف فى الشراب ذات ليلة
وأكثر من تقبيلها ، فأكثرت التضجر والتبرم وقبضت وجهها

(١) الأدب الأندلسى للدكتور أحمد هيكى صفحة ٢٣٦/٢٣٨ .

وساء ذلك وأغضبه ولم يستطع كبح جماح نفسه وهو تحت سلطان الشراب ، فأمر ألا يزال وجهها يلثم بالسنة الشمع وهي تستغيث فلا يرحمها حتى هلكت .

وتركت هذه الحادثة في نفسه ألما شديدا وندما فأسسك عن الشراب والمنادمة وقد استعان عبد الرحمن الناصر ببعض أقاربه من بنى أمية الذين كان يطمئن اليهم ويشق بولائهم فاختر بعضهم للوزارة وعهد الى بعضهم بقيادة الصوائف ومن هؤلاء عمه أبان ابن الأمير عبد الله فقد قاد الصائفة في سنة ٣٠٢ هـ وتردد بجيشه في كوة رية ، ونازل حصونها وحطم زروعها وقطع ثمارها ، وهكذا كان عبد الرحمن يحاول الاستفادة من أصحاب المواهب والكفايات سواء كانوا يمتنون اليه بصلة القرابة أو بصلة الولاء أو بحكم العلاقة القديمة بين أسراتهم والأسرة الأموية ومشاركتهم لها في توطيد مكانتها واعلاء شأنها ، ومن هذا القبيل تقديمه لأفراد من بنى شهيد وبنى حدير وغيرهما من الأسرات التي ارتبطت ماضيها بماضي الأسرة الأموية في الأندلس .

وفاة عبد الرحمن الناصر

فى شهر صفر سنة ٣٤٩ هـ كان ابتداء علة الناصر ، وكان سببها برد شديد أصابه ، فأرجف به ، وخيف عليه وأكبت الأطباء على معالجته حتى خفت وطأة المرض قليلا فتعامل على نفسه وتجشم القعود لخاصته فى الأيام العشرة الاولى من جمادى الاولى ، ووصل اليه أكابر الصقالبة مثل مظفر وغيره وأستبشر الناس بما بدا عليه من تحسن حالته وسألوا الله كمال عافيته ، ولبت بعد ذلك أشهرا تشتد به العلة حيناً ، وتخف وطأتها حيناً ، حتى ضعفت مقاومته ووافاه القدر المحتوم فى شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (أكتوبر ٩٦١ م) .

ووجد بخطه تاريخ قال فيه « أيام السرور التى صفت لى دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، فعدت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوما ، ويعلق ابن عذارى على ذلك بقوله (١) فاعجب أيها الغافل لهذه الدنيا ، وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها ، ان الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم يصف له من الدنيا الا أربعة عشر يوما ، فسبحان ذى العزة العالية ، والمملكة الباقية ، تبارك اسمه ، وتعالى جده ، » .

(١) الجزء الثانى من ابن عذارى صفحة ٣٤٦ .

وهكذا كانت خاتمة الناصر « حلف السعود والمضروب
به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود » كما (١) يقول المقرئ
ومما ينسب إليه من الشعر قوله :

ما كل شيء فقئت الا
عوضني الله منه شيئا
اني اذا ما منعت خيري
تباعد الخير من يديا
من كان لي نعمة عليه
فانها نعمة عليا

وقد رثاه جعفر بن عثمان المصحفي فقال :

الا ان أياما هفت بامامها
لجائرة مشتطة في احتكامها
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها
وأحداثها الا قلوب عظامها
تأمل ! فهل من طالع غير آفل
يهن وهل من قاعد لقيامها
وعاين فهل من عائش برضاها
من الناس الا ميت بظامها
كان نفوس الناس كانت بنفسه
فلما تواري أيقنت بحمامها

(١) الجزء الاول من نفع الطيب صفحة ٢٥٦ .

فطار بها بأس الأسى وتقاصرت
يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

وقد مات الناصر أعظم ما كان سلطانا ، وأعز ما كان
في الدول الإسلامية المعاصرة له مكانا ، بعد أن أتم رسالته ،
ووطد للملك بنى أمية في الأندلس اسمى مكانة .

عبد الرحمن الناصر فى الميزان

وفق الناصر فى استنقاذ الحضارة الأندلسية الإسلامية الزاهرة مما كان يتهددها من الأخطار الداخلية الماحقة ، والأخطار الخارجية الساحقة ، وذلك بفضل سياسته الحازمة ، ومثابرته الدائبة ، وجمعه بين اللين والشدة ، والرحمة والقسوة ، ولبسه لكل حالة ما يلائمها ، وحسن فهمه وتأتية فى علاج المشكلات التى واجهته ، وقد تدخل بمهارة بارعة فى الحصومات بين الليونيين والقشتاليين والنافاريين واجتهد فى إضعافهم ، ودفع أذاهم عن سلطانه ، ومكن سيطرته عليهم ، وناجز الفاطميين الذين سادوا المغرب وصقلية ، واستطاع أن يضع حدا لمطامع الشيعة الذين كانوا يتطلعون إلى إنشاء دولة إسلامية عالمية شاملة وإخضاع الناس جميعا للمهدى الظاهر أو المستتر .

وكان من أسس القوة التى اعتمد عليها الناصر فى توطيد سلطانه وتثبيت مكانته تلافيه ناحية الضعف التى كانت تؤثر فى كيان جيوش الدولة الأموية بالأندلس وهى تكوين تلك الجيوش من قبائل متنافسة تحضر رجالها بأعلامها وألويتها ويدينون بالولاء أول ما يدينون لزعماء قبائلهم وسادة بيوتاتهم ، فأنشأ طائفة جديدة من الجند ممتازة مخصصة لشخصه وفيه لعهد ،

تدين له بالولاء ، وأضاف الى عداد الجيوش جماعات من الموالى الجدد كونها من عناصر مختلفة الأصول ، وهم المسمون بالصقالبة . وكان معظمهم يجلب من أوروبا الوسطى ومن شمال اسبانيا ومن نواحي البلقان وكانوا يربون منذ نعومة اظفارهم في قصر الخلافة ، وتبذل العناية في تأهيلهم وتعليمهم وتمهد لهم السبل لاعتلاء المناصب السامية حتى أصبحوا يكونون صفوة رجال الدولة وقادة الجيش ورجال البلاط الخليفى، وكان عددهم يتزايد وثروتهم تعظم ونفوذهم يتراعى ويتسع ، حتى كونوا في المجتمع الاندلسى طبقة بارزة ممتازة .

واضفى الناصر على الاندلس النظام ، وذل لها سبل الرخاء ، وهياً لها الاحترام والتقدير بين دول العالم المتحضر فى عصره وزاد فى موارد الثروة بتشجيعه الزراعة والتجارة والصناعة والفنون والعلوم والآداب .

وقد حكم الناصر خمسين سنة ويعد من حيث مدة الحكم من اطول امراء المسلمين عهدا ، وقد عرف كيف يفيد من ذلك الحكم الطويل فقد أنفق نصفه تقريبا فى اقرار الامن والقضاء على الخارجين ورد مطامع الطامعين ، وعرف بعد ذلك كيف يجنى ثمرة الجهد المبذول ، والعناء الذى احتمله فطابت أيامه الى حد كبير خلال النصف الثانى من حكمه وترامت شهرته فى أنحاء العالم ، وكان الناصر حاكما مطبوعا يعرف كيف يسوس الناس والأمر أمره ، وكيف يستجلب مودتهم ، ويفوز باخلاصهم ، ومناصحتهم ، ولم تفسده السلطة المطلقة ، ولم تصدق فيه تلك الكلمة المشهورة المأثورة عن السياسى العالم المؤرخ البريطانى اللورد أكتون وهى قوله « ان السلطة مفسدة والسلطة المطلقة تفسد افسادا

مطلقا ، ولقد استمتع الناصر فى الجزء الأكبر من حكمه بالسلطة المطلقة فلم تفسده ، وكانت هناته وسقطاته جد قليلة ، فالسلطة المطلقة لم تعصف بعقله ، ولم تخرجه عن الجادة .

وبعد الناصر من الناحية الادارية من اقدر خلفاء الاسلام ، وأعظم الحكام وقد فرضت عليه التجارب القاسية التى مر بها والمشكلات التى تناولها الميل الى جمع مقاليد السلطة جميعها فى يده ، على خلاف ما سار عليه الأمراء الاندلسيون قبله ، فقد امتازت حكومات الاندلس قبل عهده بحرية واسعة يمنحها الأمراء لكبار رجال الدولة ولاهل النواحي البعيدة عن العاصمة مما كان يجعل تلك الامارات تشعر دائما بالعزلة والاستغلال مع الاكتفاء بأداء الضريبة ، والمشاركة فى امداد الجيش ، وقد رأى الناصر ان هذا الاستغلال من دواعى وقوع الفتن ، وحدث الثورات والخروج على الطاعة ، وتفكيك وحدة الأمة ، وانه مدعاة لظهور العصبية القبلية والنعرات الجنسية والعقيدية ، وصمم على أن يقلم أظافر المنتسبين الى البيوتات الكبيرة ، والأسر الارستقراطية ، وتمشيا مع سياسة القضاء على العصبية استكثر من الصقالبة ، وعنى بتعليمهم وتدريبهم وصقلهم ، وعهد اليهم بالمناصب السامية والقيادات العليا مما أثار عليه حفيظة زعماء العرب والبربر ، وظهرت آثار هذه النقمة فى واقعة الخندق التى لقي فيها الناصر أول هزيمة ساحقة ، ولكن هذه النتيجة لم ترجعه عن عزمه ولم تحمله على تغيير سياسته التى وضع أصولها منذ ولى الحكم ، وقد كان جده الأمير عبد الله قد (١) بنى الساباط بين القصر والجامع

(١) الجزء الثانى من ابن عذارى صفحة ٢٣٩ .

بمدينة قرطبة رغبة في شهود الجمعة والمحافظة على الصلوات، وكان يقعد في الساباط قبل صلاة الجمعة وبعدها يرى الناس ويشرف على أخبارهم وحركاتهم ويسر بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفى عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضا على بعض أبواب قصره في أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلامات وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشربيا لذلك ، فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقته بيده ولا انتهاء مظلمة على لسانه ، ولكن الناصر لم يكن راضيا عن هذه السياسة ، وكان يرى انها مضيعة للوقت والجهد وان من الخير أن يفرغ الأمير لكبريات المشكلات ، ويعهد الى رجاله بالنظر في أمثال هذه الامور ، وهم تحت رقابته من أحسن منهم أبقاه ، ومن أساء عزله أو استبدل به غيره ، ونقله الى عمل آخر .

ولم تحل مهام الحرب ومطالب السياسة دون قيام الناصر بأعمال الانشاء العظيمة ، وفي مقدمتها انشاء مدينة الزهراء اعظم قواعد الاندلس المملوكية وقد بلغت قرطبة في عصره أوج العظمة والازدهار ، وأصبحت تفوق منافستها في الشرق بغداد في البهاء والفخامة .

وقد عنى الناصر باصلاح الاسطول وتجديده واستطاع بذلك السيطرة على مياه اسبانيا الجنوبية الشرقية وان ينازع الفاطميين السيادة في الشق الغربي من البحر المتوسط . وتوطدت في عهده الاحوال الاقتصادية وامتلات خزائن الدولة بالاموال وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة وبلغت الجبابة أرقاما مدهشة قدرت بخمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص مبيعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم

التي لا تحصى ، وقيل انه خلف عند وفاته في بيوت الاموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف الف دينار (خمسة آلاف مليون) دينار ، وكان يقسم الجباية من اجل النفقة الى ثلاثة اثلث : ثلث لنفقة الجيش وثلث للبناء والمنشآت العامة وثلث يدخر للطوارئ .

ويقول المؤرخ الكبير راينهاردت دوزي (١) : «عبد الرحمن الثالث هو بلا نزاع أعظم أمراء الأمويين الذين حكموا اسبانيا، وقد قاربت منجزاته حد الإعجاز ، فقد وجد البلاد فريسة للفوضى والحرب الداخلية وقد مزقتها الخلافات الحزبية وتقسمتها مئات من صغار زعماء الأجناس المختلفة ومعرضة لغزوات المسيحيين من الشمال ، وعلى شفا أن يستولى عليها الليونيون أو الفاطميون من أفريقية ، وبرغم العقبات الكثيرة استطاع أن ينقذ الأندلس من نفسها ومن السلطة الأجنبية ، ورفعها الى منزلة اسمى وأقوى مما بلغت من قبل ، وكسب لها السلام والرخاء في الداخل ، والمكاثرة والاحترام في الخارج ، وقد وجد الخزينة العامة في حالة من الفراغ محزنة وتركها غاصة بالمسال ، وكان يكفي ثلث الدخل القومي البالغ ٦٠٠٠٠٠٠ رطل من القطع الذهبية للمصروفات العادية ، وكان يحتفظ بثلث الدخل وينفق الباقي للمنشآت العامة ، وقد قدر أنه في سنة ٩٥١ م (٣٤٠ هـ) كان في الخزينة الملكية ما يبلغ عشرين مليوناً من القطع الذهبية ، ويؤكد لنا رحالة خبير بالشؤون المالية ان عبد الرحمن والحمداني (٢) الذي كان يحكم حينذاك بالعراق كانا أغنى أمراء المسلمين في ذلك

(١) اسبانية اسلامية لدوزي صفحة ٤٤٥/٤٤٦ .

(٢) الحمداني الذي كان يحكم حينذاك في العراق هو سيف الدولة

والرحالة الذي يشير اليه دوزي هو ابن حوقل .

العهد ، وكانت حالة البلاد متجاوبة مع رخاء الخزينة العامة ، وقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وفنون العلوم ، وقد سر عيني الرحالة رؤية الحقول التي أجيد زرعها من كل جانب والتي كانت تروىها المياه على أحدث الطرق العلمية حتى ان الثرى الذى كان يبدو قحلا عقيما صار خصبا ممرعا ، وقد أدهشه النظام الكامل المسيطر حتى فى الأماكن التي يتعذر الوصول اليها ، وذلك بفضل رقابة العسس الساهر ، وأثار تعجبه رخص أثمان السلع واللوازم المنزلية (فأشهى الفواكه كانت غاية فى رخص الثمن) والاناقة فى الملابس الغالية وبوجه خاص الارتفاع العام لمستوى المعيشة الذى مكن كل انسان بدون استثناء على وجه التقريب من أن يمتطى صهوة بغل بدلا من ان يسعى على قدميه ، وكانت قرطبة والمرية وغيرها من المدن ، حافلة بمختلف الصناعات ، وقد بلغ تقسم التجارة الى حد ان المشرف العام على الجمارك يذكر فى تقريره ان رسوم الوارد والصادر كانت تكون الجزء الأكبر من الدخل القومى وكانت قرطبة يسكانها البالغ عددهم نصف المليون وبمساجدها ثلاثة الآلاف وقصورها الفخمة ومنازلها البالغ عددها مائة وثلاثين ألف منزل وأرباضها الثمانية والعشرين لا يفوقها فى اتساع الرقعة والفخامة سوى بغداد وهى المدينة التى كان الأندلسيون يحرسون على الموازنة بينها وبين مدينتهم ، وقد وصلت شهرة قرطبة الى ألمانيا حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التى اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « جوهرة الدنيا » ، وكانت المدينة المناظرة لها التى بناها عبد الرحمن لا تقل عنها بهاء وروعة ، ولم يترك الناصر شيئا يزيد فى بهائها ، وقد صارت قوة عبد الرحمن لا تقاوم ، فالأسطول الذى أنشأه مكنه من أن ينافس الفاطميين

فى سىادتهم على البحر المتوسط ، وامتلاكه لمدينة سبقة
جعل مفتاح موريتانيا فى يده ، ومكنه جيشه الحسن النظام
- والذى ربما كان احسن جيوش العالم نظاما فى تلك الفترة
- من أن يكون له الغلبة والتفوق على المسيحيين فى الشمال ،
وأعظم الملوك كبرياء سـعوا الى محالفتـه ، وامبراطور
القسطنطينية وحكام ألمانيا وفرنسا وإيطاليا أرسلوا السفراء
الى بلاطه .

وهذه الانجازات عظيمة من غير شك ، ولكن الذى يثير
دهشة دارس ذلك العهد الزاهر ويبعث على الاعجاب ليس هو
البناء بقدر ما يثيره ويبعثه مشيد البناء نفسه - تثيرهما قوة
ذلك العقل المستوعب الذى لم يفلت منه شىء والذى كانت
سيطرته على التفصيلات لا تقل إثارة للاعجاب عن سيطرته على
أسمى التصورات ، وهذا الرجل الأحوذى الحكيم الذى وحد
الامة وقوى موارد ثروتها والذى بما عقد من مخالفات وأجرى
من اتفاقات ومعاهدات أوجد توازنا للقوى ، والذى اتسع
تسامحه فكان يدعو الى الاستشارة رجالا يدينون بديانة غير
ديانته مثل هذا الرجل أجدر بأن يكون مثالا للحاكم فى العصر
الحديث أكثر مما هو خليفة فى العصر الوسيط ، .

ويقول المؤرخ ليفى بروفنسال « عشية اختفى الناصر
كان يمكن تقدير العمل العظيم الذى اضطلع به فى اتساع
مداه خلال الأيام منذ ابتداء حكمه ، فقد كون من مملكة
قرطبة التى كانت لا تنقطع عنها الحروب الداخلية وتنافس
القبائل وتصادم الجنسيات المختلفة بعضها مع بعض فى أثناء
حكم أسلافه كون منها دولة تنعم بالسلام والثراء والرخاء ولم
يتوان فى محاربة المسيحيين ، وحافظ بقوة السلاح على أمن
حدوده ، ودفع الخطر الفاطمى بصلافة واقتدر ، ومن ذلك

الحين صارت قرطبة عاصمة اسلامية تنافس القيروان ومدن الشرق العظيمة ، وفاقت العواصم الاخرى الغربية الأوربية ، وحصلت على شهرة في عالم البحر الأبيض لها مكانة كبيرة حتى صارت لا تقارن الا بالقسطنطينية ، ولا نزاع في أن امتداد حكمه الذي تجاوز المؤلف كان له فضل في الوصول الى هذه النتائج ، فقد مكنه من أن يتابع خلال عشرات السنين سياسة موحدة مطردة قائمة على الإرادة الحسنة وعلى الايمان بالسلطة المطلقة ، ولكنها خالية من الاخطاء التي يقع فيها امراء أقل منه في المواهب ودونه شعورا بالواجب ، .

وفي الحكومة التي يتوقف فيها كل شيء على ارادة رجل واحد قد جمع مقاليد السلطة كلها في يده رصار يفصل في كل كبيرة وصغيرة وفي بلاط قد امتلأ برجال الحاشية من كبار رجال القصر والصقالبه والحصيان والجواري كان من الممكن أن يكثر حوك الدسائس ، وتنظيم المؤامرات ، واستغلال النفوذ ، واساءة استعمال السلطة ، ولكن قوة شخصية عبد الرحمن ، وصلابة ارادته ، ومضاء عزيمته ، وشدة يقظته ، حالت دون ذلك وقد انعقد اجماع المؤرخين ورواة الاخبار العارفين على أن الناصر كان من أعظم ملوك الاسلام جلالة قدر ، وسمو شأن ، وضخامة ملك ، وأنه خليف بان يوضع الى جانب أسامي من عرفت الدنيا من الخلفاء والملوك والسلاطين والباطرة والقيصرة ، وأنه من هؤلاء النفر الذين لا يوجد الزمان بأمثالهم الا في الفلوات النادرة والمواقف الحاسمة .

مراجع الكتاب

المراجع القديمة :

- ١ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ طبعة المكتبة التجارية وتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد .
- ٢ - ازهار الرياض في أخبار عياض للمقرئ طبعة لجنة النشر والتأليف .
- ٣ - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي طبعة مكتبة صادر ببيروت .
- ٤ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
- ٥ - الحلة السراء لابن الأبار تحقيق الدكتور حسين مؤنس
- ٦ - جذوة المقتبس للحميدى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- ٧ - تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- ٨ - الصلة لابن بشكوال طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .

- ٩ - الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون .
- ١٠ - مطمح الانفس للفتح بن خاقان (مطبعة دار السعادة بمصر) .
- ١١ - المطرب في أشعار أهل المغرب لابن دحية المطبعة الأميرية بالقاهرة .
- ١٢ - صفة جزيرة الأندلس للحميرى مطبعة لجنة التأليف والنشر .
- ١٣ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن خيان وتحقيق الدكتور محمود على مكى طبع لجنة احياء التراث الاسلامى .
- ١٤ - مروج الذهب . . . المسعودى .

المراجع الحديثة : -

- ١ - تراجم اسلامية شرقية وأندلسية - للأستاذ عبد الله عنان .
- ٢ - تاريخ العرب فى أسبانيا للأستاذ عبد الله عنان .
- ٣ - الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال - للأستاذ عبد الله عنان .
- ٤ - رحلة الأندلس - للدكتور حسين مؤنس .
- ٥ - تاريخ الاسلام السياسى - للدكتور حسن ابراهيم حسن .
- ٦ - المجلد فى تاريخ الأندلس - للأستاذ عبد الحميد العبادى

- ٧ - العرب فى أسبانيا لستانلى لين بول - ترجمة الأستاذ على الجارم .
- ٨ - تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى - للدكتور على محمد حمودة .
- ٩ - ظهر الاسلام - الجزء الثالث - للدكتور أحمد أمين .
- ١٠ - الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة - للدكتور أحمد هيكى .
- ١١ - فى الأدب الأندلسى - للدكتور جودت الركابى .
- ١٢ - العرب والحضارة - للدكتور على حسنى الخربوطلى .
- ١٣ - قرطبة فى التاريخ الاسلامى - للدكتور جودة هلال والأستاذ محمد محمود صبح
- ١٤ - عبيد الله المهدي - للأستاذ حسن ابراهيم حسن والأستاذ طه أحمد شرف .
- ١٥ - دراسات فى تاريخ الأدب العربى - لاغناطيوس كراتشو كوفسكى .

مراجع أجنبية

- (1) Epanish Islam, by Reinhart Dozy.
- (2) L'Espagne Musulmane, par E. Levi-Provençal.
- (3) The Civilization of Spain, by J.B. Irend.

فهرس

الموضوع	الصفحة
١ - المقدمة	٣
٢ - نشأة عبد الرحمن الناصر	٩
٣ - عهد الثورات	١٥
٤ - سياسة عبد الرحمن الناصر	٤٩
٥ - عبد الرحمن الناصر وتحويل الامارة الأندلسية الى خلافة	٦٧
٦ - عبد الرحمن الناصر والخطر الفاطمي	٧١
٧ - صراع عبد الرحمن الناصر مع الدول المسيحية	٨١
٨ - وفود الأمم في بلاط الناصر	١١٥
٩ - قرطبة والزهاء	١٣١
١٠ - عبد الرحمن الناصر بين وزرائه	١٥٥
١١ - الثقافة الأندلسية في عهد الناصر	١٧١
١٢ - عبد الرحمن الناصر في حياته الخاصة	١٨٩
١٣ - وفاة عبد الرحمن الناصر	١٩٩
١٤ - عبد الرحمن الناصر في الميزان	٢٠٣
١٥ - مراجع الكتاب	٢١١

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٣٦٠

وزارة الثقافة

المجلة المصرية العامة للكتاب

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٨ / ٧١٠٥٥ طرافياً : يانثرو

الامعة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تليفون : ٤٧٤٣٦ / ٤٥٥٨٩

مكتبات القومية للتوزيع في ج.ع.م.

القاهرة

٣٦ شارع شريف ت : ٤٠٠١٢ ١٩ شارع ٢٦ يوليو ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرائش ت : ٤٦٣٨٣ ٢٢ شارع الجمهورية ت : ٩١٤٢٣٣
١٣ شارع الميادين ت : ٢١١٨٧ الباب الأخضر بالحسين ت : ٩١٣٤٤٧
الاستكبرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ الجيزة : ١ ميدان الجزيرة ت : ٨٩٨٣١١
منشور : شارع عبدالسلام الشاذل ٢٦٠٥ القضاة : شارع ابن خبيب ت : ٤٤٥٤
مطلة : ميدان الساعة ٢٥٩٤ السيوط : شارع الجمهورية ت : ٢٠٣٢
طبعة الكبرى : ميدان المحطة ٤٢٧٧ لسوف : شرق البياسي ت : ٢٩٣٠
التصوير : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج.ع.م.

لبنان : الشركة القومية للتوزيع - بيروت - شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصلىة
بغداد : الشركة القومية للتوزيع - بغداد - ميدان التحرير - عمارة قاطنة

توكيلات ومجالس خارج ج.ع.م.

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد سالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحب - عمان
ليبيا : محمود عارف التويهي - طرابلس
لبنان : عبد الله محمد البيلوس - جاكوتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع فرطاج - تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ميلوش مراد بالجزائر العاصمة
الغرب : المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ٤٢ - ٤٤ شارع الكلي - الاحباس -
الدار البيضاء

موريتانيا : مكتبة بريل - ليد

المجلة المصرية العامة للكتاب

في خدمة الثقافة المصرية

مطابع الهيئة المصرية العامة

الثنى ١٠ قروش



